الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي و البحث العلمي
Université Abou Bekr Belkaid
Tlemcen Algérie
جامعة أبي بكر بلقايد
تلمسان الجزائر

كلية الآداب واللغات
قسم اللغة العربية وآدابها
شعبة الدراسات الأدبية

أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في الأدب العربي القديم

فن الرسائل في العهد الزياني (633هـ-962هـ)
مقاربة تاريخية تحليلية

إعداد الطالب:
هشام تاولي

إشراف الأستاذ الدكتور:
محمد مرتاض

لجنة المناقشة:

أ/د. محمد زمري	أستاذ التعليم العالي	جامعة تلمسان	رئيسا
أ/د. محمد مرتاض	أستاذ التعليم العالي	جامعة تلمسان	مشرفا ومقررا
د. وردة محصر	أستاذة محاضرة (أ)	جامعة تلمسان	عضوا
د. رفيقة بن لباد	أستاذة محاضرة (أ)	جامعة أدرار	عضوا
د. سميرة مالكي	أستاذة محاضر ة(أ)	جامعة وهران	عضوا

السنة الجامعية: 1442هـ-1443هـ / 2021م-2022م

إهداء

أهدي هذا البحث إلى من أعانني ووقف إلى
جانبي في مسيرتي العلمية: والديّ الكريمين أطال
الله عمرهما ورزقهما الصحة والعافية.

إلى زوجي وابني

إلى إخوتي الأعزاء

شكر وعرفان

الحمد لله الذي بفضله تتم الصالحات وبمنه وكرمه تنال الدرجات، فالشكر له على نعمه التي لا تحصى ولا تعد.

وإذا كان من كمال الشكر شكر ذويه، فإني أجد نفسي عاجزا عن تقديم الشكر إلى أستاذي الفاضل محمد مرتاض الذي كان خير موجه ومعين، فله مني أزكى عبارات التقدير والامتنان.

مقدّمـــــــــة

منذ أن وطئت أقدام العرب الفاتحين أرض المغرب العربي بدأ نور الإشعاع والتطور يبزغ جليا ويلوح في الأفق عبر عصور مختلفة، ونخص بالذكر هنا المغرب الأوسط (الجزائر) الذي احتضن أقواما وشعوبا كثيرة بدءا من الرستميين والمرابطين، والموحدين ووصولا إلى دولة الزيانيين، هذه المملكة التي تعدّ حاضرة من حواضر المغرب العربي، والتي ظلت تلمسان عاصمة لها على مر ثلاثة قرون، حيث كانت زاخرة بالإنجازات وخلّف أهلها -وبخاصة العلماء والأدباء والفقهاء- إرثا حضاريا وثقافيا بامتياز على جميع الأصعدة وفي شتى المناحي والمجالات الفكرية والثقافية، ومنها المجال الأدبي الذي يعدّ مرآة عاكسة لثقافة الشعوب ومدى تحضرهم.

هذا الأدب الذي مرّ بمراحل مختلفة وشهد ازدهارا كبيرا شمل جميع فنونه النثرية والشعرية حتى صار ينافس أدب المشرق الذي هيمن على الساحة الأدبية وذاع صيته في الآفاق، إلا أن المتتبع للدراسات الأدبية التي اهتمت بالأدب المغاربي القديم يقف على حقيقة مفادها أن جل هذه البحوث قد ركزت على الأدب الأندلسي الذي أولته اهتماما بالغا، وغضّت الطرف في كثير من الأحيان عن الأدب الزياني الذي ظل مدة طويلة حبيس المصنفات التاريخية وكتب التراجم والسيّر، مما يجعله يحتاج إلى من يصنّفه وفق سياقه التاريخي والجغرافي، وهذا لا يعني أن الباحثين قد أهملوه كل الإهمال، بل منهم من عكف على دراسته، وأولاه اهتماما كبيرا، وحصر نطاق تخصصه عليه دون غيره، إيمانا منه بروح الانتماء والاعتزاز بتاريخ الأمة وإنجازاتها على مرّ العصور. لكن جل هذه الدراسات في نظرنا تظل ناقصة ولم تلم ولم تحط بجميع جوانبه، فأغلبها قد ركّز أصحابها اهتمامهم على الجوانب التاريخية للأدب الزياني ودراسة الشخصيات الأدبية وإسهاماتها في هذا الميدان، وقد مالت الكفة فيها لصالح الشعر على حساب النثر.

وبما أن الأدب الزياني أدب ثري حيث يعدّ جزء لا يتجزأ من تراثنا المغاربي الذي ننتسب إليه بحكم الهوية والانتماء الجغرافي، فنحن الأولى به والأجدر باحتضانه، لكونه لم يحظ كثيرا بالاهتمام الذي يليق به، فوجب إسهامنا في معالجة بعض قضاياه ليكون منارة تنير تاريخنا الأدبي والفكري.

أجل، لقد دفعتنا الغيرة على هذا الأدب بسبب الإهمال الذي طال كثيرا من جوانبه، هذا كله وباقتراح مباشر من أستاذي الفاضل الدكتور مُحَمَّد مرتاض الذي كرّس حياته، وأفنى وقته في

سبيل خدمة هذا التراث، والذي ما فتئ يشجع طلبة العلم ويحثهم عليه، فإن موضوع فن الرسائل في العهد الزياني كان من بين اقتراحاته أثناء اللقاءات العلمية التي جمعتني به، فصادف هذا المقترح في نفسي قبولا وميولا، وذلك حتى نواصل المسيرة في هذا الميدان لعلنا نكون خير خلف لخير سلف.

وموضوع الأطروحة الذي هو « فن الرسائل في العهد الزياني» يكتسي أهمية كبيرة بالنسبة إلينا فهو يعنى بدراسة فن من الفنون الأدبية النثرية في بلاد المغرب الأوسط خلال العهد الزياني، لتقفي أثر الرسائل الديوانية التي تتضمن أهم الأحداث والوقائع التاريخية، والعلاقات السياسية التي ربطت الدولة الزيانية بمختلف الدول والممالك الأخرى، كما تقف الدراسة على أهم المواضيع والأغراض التي تضمنتها الرسائل الإخوانية ومدى ارتباطها بالواقع الاجتماعي والسياسي آنذاك، وتحاول إبراز أهم السمات والخصائص الفنية التي تميز النوعين، وتسلط الضوء على أشهر الكتّاب والأدباء الذين أسهموا في خدمة الأدب وازدهاره من خلال فن الرسائل.

لذا سنحاول في هذه الدراسة الإجابة على العديد من الإشكالات المطروحة ومن بينها:

- ما هي أهم المواضيع والأغراض التي تضمنها فن الرسائل بنوعيه الديوانية والإخوانية في عهد الدولة الزيانية؟
- إلى أي مدى عكست هذه الأغراض الواقع السياسي والاجتماعي الذي ميز هذا العصر؟
- من هم أشهر الكتّاب والأدباء الذين أسهموا في ازدهار أدب الرسائل في عهد الدولة الزيانية؟
- ما المكانة التي تبوّأها هذا الفن الأدبي في هذا العصر مقارنة بالفنون الأدبية الأخرى كالشعر وفن الخطابة وغيرهما؟
- ماهي أهم السمات الفنية والموضوعية التي اتسم بها فن الرسائل الديوانية والإخوانية في هذا العصر؟

وبما أن دراستنا قد عنيت بأدب الرسائل الديوانية والإخوانية في العهد الزياني ومن أجل الإحاطة والإلمام بجوانبه، وللإجابة عن هذه التساؤلات فقد وضعنا له خطة اشتملت على مدخل وثلاثة فصول وخاتمة، وذيلناه بفهرس للآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة، وقائمة للمصادر والمراجع، وفهرس للموضوعات.

وقفنا في المدخل عند تحديد مفهوم مصطلح الرسائل استنادا إلى المعاجم اللغوية، وآراء وأقوال النقاد والدارسين المهتمين بهذا الفن الأدبي، وعرّفنا فيه أنواع الرسائل وأهم الأغراض التي يشتمل عليها كل نوع، وحددنا نشأتها عبر العصور التي سبقت الحقبة الزمانية التي نحن بصدد دراستها في إيجاز.

وخصصنا الفصل الأول لدراسة الرسائل الديوانية، فكانت البداية بالحديث عن الشروط الواجب توفّرها في كاتب الإنشاء ومدى تطابقها مع كتّاب البلاط الزياني، ثم التعريف بأشهرهم كأبي بكر بن خطاب المرسي، وابن خميس التلمساني، وابن هدية القرشي، ويحيى بن خلدون، ثم قمنا بتصنيف الرسائل الديوانية حسب أغراضها ومضامينها مع تحليلها، وقد جاء على النحو الآتي: رسائل البيعة، ورسائل تأكيد المودة والولاء، ورسائل اللوم والعتاب، ورسائل الاستدعاء للحجابة، ورسائل المعاهدات والعلاقات التجارية، ورسائل الفتوح والتعريفات، والظهائر الرسمية ورسائل التخدم.

وتطرقنا في الفصل الثاني للرسائل الإخوانية وأشهر أعلامها الذين جمعت بينهم روابط أخوية انعكست على رسائلهم المتبادلة فيما بينهم كابن مرزوق الخطيب، وعبد الرحمن بن خلدون، ولسان الدين بن الخطيب، ثم صنفنا الرسائل حسب الغرض الذي لأجله دبجت إلى سبعة محاور هي: الشكر والثناء، والتهنئة والتعزية، والشوق والحنين، والشفاعات والعنايات، والاعتذار والشكوى والعتاب، والوصف، والرسائل الدينية.

وجاء الفصل الثالث خاصا بالدراسة الفنية للرسائل الديوانية والإخوانية معا، حيث احتوى على الخصائص البنائية المشكلة للرسائل من حيث البدء والعرض والختام، وأهم السمات الأسلوبية التي ميزت هذا الفن النثري كالاقتباس الديني والتضمين الأدبي، والجمل المعترضة والإيجاز

والإطناب، والسمات الإيقاعية المتمثلة في الأسلوب المرسل والمسجوع، وتوظيف الجناس والطباق والمقابلة، وأخيرا السمات التصويرية من تشبيه واستعارة وكناية. ثم كانت الخاتمة التي جعلناها خلاصة لأهم نتائج البحث.

أما المنهج الذي اعتمدناه في هذه الأطروحة فهو المنهج الوصفي التحليلي الذي أعاننا على تتبع حياة بعض الأعلام والشخصيات التاريخية التي تركت بصمة جلية على الأدب وبخاصة فن الرسائل، كما أفادنا في رصد الظواهر الأدبية والنقدية التي احتوتها النصوص المختلفة، وفي الكشف عن أغلب المؤثرات والمكونات المتعلقة بالأغراض التي تضمنتها، وفي تحليل النصوص بغرض الوقوف على أهم السمات الفنية التي ميزت هذا الجنس الأدبي في العصر الزياني.

وككل بحث، فإننا استعانا بمصادر ومراجع كان لها فضل السبق وهي مظانّ تنوعت ما بين التاريخية والنقدية وكتب التراجم، نذكر منها على سبيل المثال، (الإحاطة في أخبار غرناطة) للسان الدين بن الخطيب، و(نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب) للمقري، وكتابي (تاريخ ابن خلدون) و(التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا) لعبد الرحمن بن خلدون و(صبح الأعشى في صناعة الإنشا) للقلقشندي. و أما المراجع الحديثة التي استفدنا منها فهي متعددة نشير – على سبيل الذكر لا الحصر – إلى كتاب (تلمسان في العهد الزياني) لعبد العزيز فيلالي، و(أدب الرسائل في الأندلس) لفايز عبد النبي فلاح القيسي، و(علاقة إسبانيا القطلانية بتلمسان) لعمر سعيدان، و(أدب الرسائل في المغرب العربي) للطاهر توات، وغيرها من المصادر والمراجع التي استفدنا منها بدرجات متفاوتة.

أما عن الدراسات التي سبقت موضوعنا أو ارتبطت به ارتباطا مباشرا فليس هناك بحث قد عالجه بدراسة مستفيضة أو أولاه عناية خاصة، على أن هذا لا ينفي وجود بعض البحوث التي دلفت من موضوعنا أو لامسته قليلا، ومن بين تلك الأعمال ننوه بكتاب (أدب الرسائل في المغرب العربي في القرن السابع والثامن الهجريين) للباحث الطاهر توات وهو عمل جمع فيه بين الرسائل الديوانية والإخوانية وأشار فيه إلى بعض الكتّاب الذين يتقاطعون مع موضوع بحثنا، كما يمكننا الإشادة بعمل نورية بن عدي (الأدب في العهد الزياني الثاني) والذي يمس جانبا ولو بسيطا من بحثنا حين تناولت الباحثة باقتضاب أدب الرسائل الديوانية والإخوانية في هذا العصر.

وبما أن أي عمل أو جهد لا يخلو من صعوبات، فإن أول عقبة واجهتنا تمثلت في قلة الرسائل بنوعيها الديوانية والإخوانية، فالأولى لم تعكس فترة الدولة الزيانية التي دامت قرونا مما يعني أن عددها كان قليلا. وينطبق الحكم نفسه على الأخرى التي لم تتواءم مع كثرة الأدباء والعلماء إبان الحقبة المذكورة في المغرب الأوسط، أضف إلى ذلك مسألة الهوية والانتماء التي كانت عائقا تحول دون إضافة نصوص أخرى ولاسيما تلك التي تتعلق بالرسائل الإخوانية، ومسألة أخرى متعلقة بفرز هذه النصوص وتصنيفها حسب مواضيعها إذ إن معظمها تعددت أغراضها وتنوعت مضامينها.

هذا ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله، فمن واجب الاعتراف بالجميل والفضل العميم أن أتوجه بكلمة امتنان صادق لأستاذي المشرف مُحَمَّد مرتاض نظير رعايته العلمية المخلصة، وتوجيهاته الدقيقة الصائبة، شاكرا له الشكر كله، وداعيا المولى عز وجل أن يديم عليه نعمة الصحة والعافية، وأن يبقيه ذخرا لخدمة العلم فجزاه الله عني وعن طلبة العلم خير الجزاء وجعلني ممن يديمون له الوفاء.

تلمسان في: 02 ذي الحجة 1442هـ

الموافق لـ 11 جويلية 2021م

هشام تاولي

مدخـــل:

لمحة عـــن فـــــن الرســـــائـــل

1- تعريف الرسالة:

1.1 الرسالة لغة:

أسهبت معاجم اللغة في شرح لفظ الرسالة الذي اشتق من المادة اللغوية (رسل) حيث جاء في لسان العرب:« الرَّسَل القطيع من كل شيء والجمع أَرْسَال... والرَّسَل قَطِيع بعد قَطِيع... وأرسلوا إبلهم إلى الماء أَرسَالاً أي قِطَعًا...والتَّرسل كالرِّسل والتَّرَسُّل في القراءة والترسيل واحد، وهو التَّحْقيق بلا عَجلة، والإرسال التَّوجيه وقد أَرسَلَ إليه، والاسم الرِّسالة والرَّسالة والرَّسول والرَّسيل، وتراسل القوم أرسل بعضهم إلى بعض».[1]

وجاء في مقاييس اللغة في مادة رسل أن «الرَّسْل هو السَّيرُ السَّهل...ويقال أَرسَل القوم إذا كان لهم رِسْلٌ أي اللَّبَن...وتقول جاء القوم أَرْسَالاً أي يتبع بعضهم بعضا، والواحد رَسَلَ، والرَّسُول معروف».[2]

وجاء في معجم تاج العروس في مادة رسل أيضا، « الإِرسَالُ التَّوجيهُ، وبه فسر إِرْسَالَ الله عز وجل أنبياءه عليهم السلام، كأنه وجّه إليهم أن أنذروا عباده، والاسم الرِّسَالة بالكسرة والفتح»[3]، ويورد الفيروز أبادي المعنى نفسه فيقول :« والإرسال التَّسليطُ والإطْلاَقُ والإِهمالُ، والتَّوجيه والاسم الرِّسالة بالكسر والفتح، والرَّسُول أيضا المرسَلُ».[4]

كما تحدث قدامة بن جعفر عن اشتقاق لفظة الرسالة، قال: «والتَّرسل من تَرسَّلتُ أَتَرسَّلُ تَرسُّلاً وأنا مُترسِّلٌ،...ولا يقال ذلك إلا لمن يكون فعله في الرسائل قد تكرر...ويقال لمن فعل ذلك مرة واحدة أَرْسَلَ يُرسِلُ إِرْسَالاً وهو مُرْسِلٌ والاسم الرِّسَالة، أو رَاسَل يُراسِل فهو مُراسِل، وذلك إذا كان هو ومن يُراسِلُه قد اشتركا في المراسَلَة».[5] والمعنى نفسه جاء به الزمخشري في مادة

---

[1] لسان العرب (ابن منظور: أبي الفضل جمال الدين مُحَمَّد بن مكرم)، دار صادر، بيروت، م11، دت، ص281-283.

[2] معجم مقاييس اللغة (ابن فارس أحمد بن زكريا) تحقيق وضبط: عبد السلام مُحَمَّد هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ج2، 1979م، ص 392.

[3] تاج العروس من جواهر القاموس (الزبيدي مُحَمَّد مرتضى الحسيني) تحقيق: عبد الفتاح الحلو، المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت، ج 29، 1997م، ص74.

[4] قاموس المحيط، مراجعة: أنس مُحَمَّد الشامي وزكريا جابر أحمد، دار الحديث، القاهرة، 2008م، ص639.

[5] نقد النثر(قدامة بن جعفر)، تحقيق: عبد الحميد العبادي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1980م، ص95.

رسل:« رَاسَلَه في كذا وبينهما مكاتبات ومراسلات، وتَراسَلوا أَرْسَلتُه بِرِسَالة وبرَسُول، وأَرْسَلْت إليه أن افعل كذا، وأَرْسل الله في الأمر رُسُلاً».[1]

وقد ورد هذا المصطلح كثيرا في القرآن الكريم إما مفردا أو جمعا بمعنى النقل الشفهي[2] عن طريق الرسل والأنبياء الذي حملوا رسالات ربهم إلى أقوامهم للتبليغ عنه عز وجل، ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى على لسان النبي صالح (عليه السلام) مخاطبا قومه: ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾[3] أو في مثل قوله عز وجل: ﴿ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًا ﴾.[4]

يتضح لنا مما سبق أن المعاجم اللغوية القديمة قد اتفقت في مجملها على مفهوم لفظ الرسالة الذي اشتق من مادة (رسل)، وقد تطور مدلوله من الاستعمال الحسي – أي بمعنى التوجيه – إلى الاستعمال المعنوي ليدل على كل كلام يكتب للتواصل بين شخصين بواسطة رسول. أما مدلول هذا اللفظ في القرآن الكريم فكان بمعنى النقل الشفهي.

2.1 الرسالة اصطلاحا:

لم يحدد الدارسون القدامى تعريفا مفصلا للرسالة، وجل ما نجده إنما هو عبارة عن آراء متناثرة في كتب النقد الأدبي، ففي العصر الجاهلي وعصر صدر الإسلام وردت الرسالة بمدلول خاص، إذ كان يراد بها «ما يؤديه المرسل إلى المرسل إليه عن طريق رواية الخبر والإبلاغ الشفوي»[5]، وحين ازدهرت الكتابة في الدولة الإسلامية وأصبحت الحاجة ملحة إليها أصبحت «مستغنية عن جهارة الصوت، وسلامة اللسان من العيوب، لأنها بالخط»[6]، فهي بذلك عبارة عن

---

[1] أساس البلاغة (الزمخشري أبي القاسم جار الله محمود بن عمر بن أحمد) تحقيق: مُحَمَّد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط1، ج1 1998م، ص353.

[2] الرسائل الفنية في العصر الإسلامي حتى نهاية العصر الأموي (رضا جواد غانم)، المكتبة الوطنية، بغداد، 1978م، ص15.

[3] سورة الأعراف: الآية (79).

[4] سورة الجن: الآية (28).

[5] الفنون البديعية في الرسائل الإخوانية، (قاسم عزام، مُحَمَّد إسماعيل بن عبد السلام)، مجلة القسم العربي، جامعة بنجاب، لاهور، باكستان، ع 24، 2017م، ص 107.

[6] نقد النثر (قدامة بن جعفر)، ص113.

نص مكتوب عكس الخطبة التي تلقى مشافهة. وفي الأدب الأندلسي عرفت الرسائل بمصطلحي الكتاب والصحيفة فهما يحملان المدلول نفسه الذي تؤديه الرسائل، وهو الإشارة إلى النص المكتوب الذي يبعثه الكاتب إلى غيره في موضوع من المواضيع، وشاع استخدام هذين اللفظين بين المترسلين في مكاتباتهم حتى صار مرادفا له في الدلالة والمعنى.[1]

ويعرّفها القلقشندي على أنها نص مكتوب تتعدد وتختلف أغراضه ومضامينه فهو يقول: «هي جمع رسالة والمراد فيها أمور يرتبها الكاتب من حكاية حال من عدو أو صيد، أو مدح وتقريض، أو مفاخرة بين شيئين، أو غير ذلك مما يجري هذا المجرى، وسميت رسائل من حيث إن الأديب المنشئ لها ربما كتب بها إلى غيره مخبرا فيها بصورة الحال، مفتتحة بما تفتتح به المكاتبات، ثم توسع فيها فافتتحت بالخطب وغيرها».[2]

وربط أبو هلال العسكري في تعريفه للرسالة بينها وبين الخطبة فهو يرى أنهما متقابلتان إذ لا فرق بينهما إلا التسمية، وذلك على أساس تشاكل الألفاظ والفواصل، وما إلى ذلك من سهولة وعذوبة الألفاظ، و تحررهما من الوزن والقافية، إلا أن الخطبة تلقى شفاهة، بينما الرسالة تكتب ثم يبعث بها، ومن السهل أن تجعل الرسالة خطبة والخطبة رسالة.[3]ومنهم من ربط الرسالة بالشعر وجعل بينهما علاقة وطيدة، فابن طباطبا يرى أن الرسالة قصيدة محلولة متحررة الوزن، فهو يقول: «ويسلك- الشاعر- منهاج أصحاب الرسائل في بلاغاتهم وتصرفهم في مكاتباتهم، فإن للشعر فصولا كفصول الرسائل، فيحتاج الشاعر أن يصل كلامه على تصرفه في فنونه صلة لطيفة، فيتخلص من الغزل إلى المديح، ومن المديح إلى الشكوى...».[4]

ويمكن القول إن الرسالة تندرج ضمن فنون النثر الأدبي، يطول أو يقصر حجمها بالنظر إلى أسلوب الكاتب والغرض الذي يكتب فيه، وقد يضمنها الشعر إما من نظمه أو من نظم غيره

---

[1] بتصرف أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري (فايز عبد النبي فلاح القيسي)، دار البشير للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 1989م، ص80-82.

[2] صبح الأعشى في صناعة الإنشا، المطبعة الأميرية، القاهرة، ج14، 1919م، ص138-139.

[3] ينظر: الصناعتين الكتابة والشعر، تحقيق: علي مُحَمَّد البجاوي، مُحَمَّد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ط1، 1952م، ص 136.

[4] عيار الشعر، شرح وتحقيق: عباس عبد الساتر، بيروت لبنان، ط2، 2005م، ص12.

يستشهد به، أما أسلوبها فحسن رشيق، ولغتها بليغة، وألفاظها منتقاة ومعانيها طريفة.[1] وللرسائل الفنية بناء خاص تتميز به، وأركان أساسية لا يمكن الاستغناء عنها وهي البداية والمتن والختام، ولكل عنصر طابعه الخاص، فالبداية غالبا ما يذكر فيها الكاتب من أرسلت إليه الرسالة، والمتن يتناول فيه الموضوع الذي أنشئت من أجله الرسالة، والنهاية غالبا ما تأتي بلفظ السلام.[2] هذا هو الشكل العام الذي يتميز به هذا الفن الأدبي، إلا أنه لا ينطبق على جميع الرسائل لأن نوعها وغرضها هما اللذان يفرضان شكل بنائها، فقد يستفتح الكاتب نصه بالشعر أو باستخدام ألفاظ مختلفة أو الولوج في الغرض مباشرة.

كل هذه الآراء المتعددة لم تختلف على أن الرسالة فن أدبي نثري قديم قدم الأدب العربي، وهي عبارة عن نص مكتوب موجه من طرف إلى طرف آخر في موضوع معين، أو غرض من الأغراض الشعرية المتعارف عليها، وهي تتسم بخائص وسمات فنية كبقية الفنون الأدبية الأخرى وهي أقرب إلى فن الخطابة.

2- أنواع الرسائل:

1.2 الرسائل الديوانية:

اعتنى المسلمون بالكتابة منذ بداية دعوتهم، وزادت الحاجة إليها مع مرور الزمن حين توسعت وتطورت دولتهم، وقد قسّموا الكتابة إلى قسمين كتابة الرسائل وكتابة الأموال[3]، وعدوا كتابة الرسائل والإنشاء أفضل مراتب الكتابة فهي « أجمل مراتب النباهة، وأعلى مراتب الوجاهة»[4]، وذكر الحريري في مقامته الفراتية أن «صناعة الإنشاء أرفع، وصناعة الحساب أنفع»[5]،

[1] ينظر: الأدب العربي في الأندلس (عبد العزيز عتيق) دار النهضة العربية، بيروت، ط2، 1976م، ص448.

[2] ينظر: أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري (فايز عبد النبي فلاح القيسي)، ص 85.

[3] ينظر: صبح الأعشى (القلقشندي)، ج1، ص54.

[4] البرد الموشى في صناعة الإنشا (موسى بن حسن الموصلي الكاتب) تحقيق: عفاف سيد صبرة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1990م، ص45.

[5] مقامات الحريري، دار بيروت للنشر والتوزيع، بيروت، 1978م، ص174.

وقد خص المسلمون الرسائل الرسمية بديوان* سمّوه ديوان الرسائل، ثم تطور فيما بعد إلى ديوان الإنشاء.[1]

وتعرّض الدارسون إلى مفهوم الرسائل الديوانية قديما، فابن خلدون يقول إنها :« تعني المخاطبات لمن بعد عن السلطان، وتنفيذ الأوامر فيمن حجب عنه».[2] في حين أن القلقشندي أعطى لها مفهوما أكثر وضوحا وتفصيلا، إذ يقول إن المراد بكتابة الإنشاء «كل ما رجع إلى صناعة الكتابة إلى تأليف الكلام وترتيب المعاني من المكاتبات والولايات، والمسامحات، والإطلاقات ومناشير الإقطاعات، والهدن، والأمانات، والأيمان وما في معنى ذلك».[3] فالرسائل الديوانية حسب القلقشندي كل وثيقة تتضمن كلاما مضبوطا بمعاني بليغة، تتناول قرارات إدارية صادرة عن جهة رسمية في الدولة، وتكون موجهة إلى الموظفين من وزراء أو حجاب أو قادة للجند وغيرهم، أو الموجهة للرعية أو الدول والممالك المجاورة أو البعيدة.

ونستطيع أن نجمل مفهومها بأنها تلك الكتب الصادرة عن ديوان الإنشاء بأمر من الخليفة أو من ينوب عنه، تتضمن غرضا من الأغراض تكون موجهة إلى جهة معينة أو شخص بحد ذاته، يشترط أن تحتوي على اسم المرسِل والمرسل إليه، ولابد من كتابة تاريخ الرسالة ووضع علامة السلطان عليها. تلك هي العناصر التي لا يمكن الاستغناء عنها، فحين تتوفر هذه الأركان يمكن أن نطلق عليها اسم الرسالة الديوانية التي «تتطلب من كاتبها ثقافة كبيرة في الأدب واللغة والتاريخ، وحفظ عدد من الشواهد الشعرية والنثرية والأقوال والحكم ولاسيما القرآن والحديث، وتتصف الرسالة الديوانية بالأسلوب الرصين المنمق البلاغي».[4]

* أصل هذه التسمية (الديوان) فارسي إذ إن كسرى رأى كتّاب ديوانه يحسبون مع أنفسهم فقال: ديوانه، أي مجانين، فسمي ذلك المكان بهذا الاسم، وهناك قول آخر على أن الديوان اسم للشاطين، فلقب الكتّاب بهذا الاسم لحذقهم في الأمور. ينظر: نهاية الإرب في فنون الأدب (شهاب الدين أحمد النويري)، تحقيق: علي بوملحم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2004م، ج8، ص147.

[1] صبح الأعشى (القلقشندي)، ج1، ص52.

[2] مقدمة ابن خلدون، تحقيق: عبد الله محمّد الدرويش، دار يعرب، دمشق، ط1، ج1، 2004م، ص419.

[3] صبح الأعشى، ج1، 1922م، ص54.

[4] المعجم المفصل في الأدب (محمّد التونجي) دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، ج2، 1999م، ص479.

أما مواضيعها فمتعددة، فقد أورد صاحب مواد البيان مواضيع متعددة منها: الحض على الجهاد، والحض على الطاعة، والهدن والعقود، وفي خلع الطاعة، وفي الاعتذار عن السلطان، وفي الفتوح، وفي الأوامر والنهي وغيرها.[1] ويصطلح عليها بالرسائل الرسمية لأنها تصدر عن جهة رسمية كحاكم أو وزير أو قائد، وتعرف أيضا بالسياسية لأنها تتضمن في الغالب أغراضا سياسية كالتهنئة بالانتصار في الحرب أو مبايعة السلطان وغير ذلك، وهي ذو أهمية كبيرة في تاريخ الدول فهي لسان حالها، تبين علاقة الحاكم بالمحكوم، وعلاقة الدولة بالدول الأخرى، كونها وثائق رسمية صادرة عنها وتختص بها، وهي من أهم المصادر التي يعود إليها المؤرخون لدراسة فترة معينة.

2.2 الرسائل الإخوانية:

انتشر هذا النوع من الرسائل حين توسعت بلاد المسلمين نتيجة الفتوحات الإسلامية، فتفرق الناس في الأمصار المفتوحة، فابتعدوا عن الأوطان والأهل والأصحاب، خاصة في عهد الدولة الأموية والدولة العباسية، وسميت بذلك الاسم «نسبة إلى الإخوان وجمعها إخوانيات وهي مشتقة من لفظ أخ، وتعني المكاتبات الدائرة بين الأصدقاء»[2]، فأصل التسمية يرجع إلى لفظ الأخ لأجل التفريق بينها وبين الرسائل الرسمية، وهي تتناول موضوعا أدبيا يدور بين شخصين أو أديبين وتتضمن أغراضا عديدة كحل للغز أو لمعضلة ما، أو عتابا أو اعتذارا ، أو في المدح أو الرثاء، وتكون مصطبغة بألوان البديع المختلفة.[3]

ويعرّفها عبد العزيز عتيق بأنها تدور بين الإخوان والأصدقاء والخلصاء ومنها أيضا الرسائل التي يرسلها الكاتب إلى من يريد أن يخطب مودته، أو يلتمس منه أمرا من الأمور[4]، وقد تعددت تسميات هذا النوع من الرسائل حيث اصطلح عليها بالرسائل الإخوانية لأنها تكون بين الإخوان، والرسائل الاجتماعية لأنها لا تخرج عن إطار العلاقات الاجتماعية كالتعزية والتهنئة، وسميت أيضا

[1] ينظر: مواد البيان (علي بن خلف الكاتب) تحقيق: حاتم صالح الضامن، دار البشائر للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط1، 2003م، ص345 وما بعدها.

[2] صبح الأعشى، (القلقشندي)، ج8، ص 126.

[3] المعجم المفصل في الأدب (مُحَمَّد التونجي)، ج2، ص478.

[4] الأدب العربي في الأندلس، ص 454.

بالرسائل الخاصة، لأنها تحمل مضامين خاصة لا يطلع عليها عامة الناس، وعرفت أيضا بالرسائل الأدبية كون المواضيع التي تتناولها لها علاقة بالنفس البشرية كالشوق والمدح.[1]

أما فيما يخص موضوعات الرسائل الإخوانية فقد ذكر القلقشندي أن أغراضها ومعانيها متعددة متشعبة لا تقف عند حد، وعدّدها في سبعة عشر نوعا وهي: التهاني، التعازي، التهادي والملاطفة، الشفاعات والعنايات، التشوق، الاستزارة، المودة، خطبة النساء، الاسترضاء والاستعطاف والاعتذار، الشكوى، الشكر، العتاب، عيادة المريض، الذم، الأخبار، المداعبة.[2]

ولم تقتصر الرسائل الإخوانية على ما سلف ذكره من الأغراض بل امتدت إلى مواضيع أخرى لها علاقة بالجانب الديني كرسائل الوعظ والإرشاد، والرسائل المتضمنة أسئلة أو إجابات فقهية حول مواضيع متعددة ومختلفة، ونجد كذلك الرسائل العلمية تندرج ضمن هذا النوع من قبيل التي تكون بين الطالب وشيخه المتضمنة طلب الإجازة أو الرد عليها.

3- نشأة فن الرسائل:

لم تخل ساحة البحث في تاريخ الأدب العربي للشعر وحده فقط، بل كان للنثر مكانة متميزة أيضا، وتم الاهتمام بأنواعه المختلفة، وللتعرف على نشأة فن الرسائل وجب المرور على مختلف العصور الأدبية، بدءا من العصر الجاهلي الذي هو أول العصور الأدبية، فبعد الاطلاع على فن الرسائل في هذا العصر تبين أنه لم يكن له وجود لانعدام النصوص التي تثبت عكس ذلك، وفي هذا يقول شوقي ضيف: «ليس بين أيدينا وثائق جاهلية صحيحة تدل على أن الجاهليين عرفوا الرسائل الأدبية وتداولوها، وليس معنى أنهم لم يعرفوا الكتابة، فقد عرفوها غير أن صعوبة وسائلها جعلتهم لا يستخدمونها في الأغراض الأدبية الشعرية والنثرية»[3].

لكن بالرغم من عدم وجود وثائق تدل على أن الجاهليين عرفوا فن الرسائل، فهذا لا يعني أنهم لم يعرفوا فنون نثرية أخرى، وهذا ما يؤكده شوقي ضيف في قوله: «ولما فرغت من بحث الشعر

[1] ينظر: أدب الرسائل في المغرب العربي في القرن السابع والثامن الهجريين (الطاهر توات) ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط2، ج2، 2010م ، ص7.

[2] ينظر: صبح الأعشى، ج9، ص5 وما بعدها.

[3] تاريخ الأدب العربي-العصر الجاهلي- دار المعارف، القاهرة، ط11، دت، ص398.

الجاهلي وشعرائه، انتقلت أبحث في النثر الجاهلي، فلاحظت أن الجاهليين لم يعرفوا الرسائل الأدبية المحبرة، ولكنهم عرفوا القصص والأمثال والخطابة وسجع الكهان»[1]، إلا أن العرب في هذا العصر استخدموا الكتابة لأغراض سياسية وتجارية، لكنها لم ترق إلى كونها أدبية[2]، وعدم وجود رسائل فنية ووجود ألوان أخرى راجع إلى طبيعة العصر وطبيعة أهله وما كانوا يمارسونه ، فقد كانوا شغوفين ومحبين لعروض فروسيتهم وشجاعتهم في معاركهم، ويقضون معظم أوقاتهم في السهر في الليل وحول خيامهم[3]، فالظروف الاجتماعية والاقتصادية وحتى السياسية التي اتسمت بالبساطة كونهم عاشوا في بيئة صحراوية قاحلة، إذ كان همهم الوحيد هو البحث عن الماء والكلأ، كما أن عدم انفتاحهم على الأمم الأخرى وانغلاقهم بسبب الأعراف القبلية التي كانت تحكمهم، وولعهم بالشعر وتنافسهم في نظمه كلها أسباب جعلتهم لا يهتمون بتدوين هذا الفن الأدبي.

وهذا لا يعني مطلقا أنه لم تكن هناك رسائل في هذا العصر، فبالعودة إلى كتب التاريخ والأدب نجد رسائل عديدة كان موضوعها طلب العون والنصر ضد العدو، أو الأخذ بالثأر، أو استرجاع الملك ككتاب السموأل إلى الحارث بن أبي شمر الغساني يوصي بامرئ القيس ليساعده في الوصول إلى قيصر الروم ليمده بما يحقق أمله[4]، وكتاب قصي بن كلاب إلى أخيه رزاح بن ربيعة بن حرام العذري يدعوه إلى نصرته.[5] لكن بالرغم من وجود هذه النصوص إلا أنها تظل ناقصة وقليلة جدا إذا ما قورنت بالشعر مثلا والسبب في ذلك يعود إلى عدم التوثيق شأنه شأن كل ما هو قديم.[6]

---

[1] المرجع السابق، ص429.

[2] الفن ومذاهبه في النثر العربي (شوقي ضيف)، دار المعارف، القاهرة، ط10، 1983م، ص 19.

[3] المرجع نفسه، ص15.

[4] ينظر: كتاب الأغاني (الأصفهاني أبي الفرج علي بن الحسين)، تحقيق: إحسان عباس، إبراهيم السعافين، بكر عباس، دار صادر، بيروت، ط3،ج9، 2008م، ص74.

[5] ينظر السيرة النبوية- سيرة ابن هشام (عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري)، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط3، ج1، 1410هـ/1990م، ص 137.

[6] قراءة جديدة للنثر العربي القديم- من العصر الجاهلي إلى نهاية العصر الأموي- (مُحَمَّد مرتاض)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2012م، ص51.

أما في عصر صدر الإسلام ومع بزوغ الدين الجديد، الذي أنار عقول الصحابة بتعاليمه السمحة، وأخرجهم من الظلمات إلى النور، ومع نزول القرآن الكريم المحكم الآيات الذي كان له الأثر الكبير في التحول الجذري للحياة العامة، فأول ما نزل من الوحي قول المولى عز وجل: ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥ ﴾[1] ، فهذه الآيات البينات من الذكر الحكيم يأمر فيها الحق تعالى رسوله الكريم بتعلم القراءة والكتابة، فمنذ ذلك الحين صارت الكتابة ذو أهمية كبيرة في عهد النبوة تسهم في نشر الدين، فاستخدمها النبي (ﷺ)في جميع مواثيقه وعهوده، ثم تبعه الخلفاء الراشدون من بعده يحذون حذوه ويتبعون سنته.[2]

و قد كانت الرسالة أول اتصال بالعالم الخارجي للرسول (ﷺ)، ولم يكن لا الشعر ولا الخطابة قادرين على أداء الدور العملي الذي تؤديه الرسالة في نشر الدعوة، حيث استخدمت الكتابة استخداما واسعا في كتابة شؤون المسلمين، وكان الرسول عليه السلام يكتب كثيرا من عهود الأمان ومن المعاهدات،كما كان يكاتب الأمراء والملوك من العرب وغيرهم يدعوهم إلى الإسلام[3]، وممن راسلهم كسرى عظيم فارس بما نصه: «**بسم الله الرحمن الرحيم، من محمّد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس، سلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله ورسوله، وشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، إلى الناس كافة، لينذر من كان حيا، أسلم تسلم، فإن أبيت فعليك إثم المجوس.**»[4]

وفي عهد الخلافاء الراشدين استمر تشجيعهم للكتابة والقراءة، فقد ساروا على نهج الرسول (ﷺ) في تبليغ الرسالة المحمدية، فاستعانوا كذلك بفن الرسائل، وهي لا تختلف عن عهد النبوة من حيث الشكل، إذ تفتتح بلفظ الخليفة متبوعا بالمرسل إليه، بدءا من عهد خلافة أبي بكر الصديق وعهد عمر بن الخطاب الذي ظهرت في زمن حكمه الدواوين، كما اتخذ الولاة والأمراء الكتّاب

[1] سورة العلق: الآية (1-5).

[2] ينظر تاريخ الأدب العربي العصر الإسلامي (شوقي ضيف)، دار المعارف، مصر، ط7، 1982م، ص130.

[3] الفن ومذاهبه في النثر العربي (شوقي ضيف)، ص96.

[4] تاريخ الطبري-تاريخ الرسل والملوك (الطبري: أبي جعفر مُحَمَّد بن جرير) تحقيق: مُحَمَّد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، ط2، ج2، 1968م، ص 654.

الخاصين بهم. وفي عهد عثمان بن عفان حافظت الكتب على النسق نفسه، حيث لم تختلف عما كان معهودا ومألوفا من ذي قبل[1]. ومن النماذج التي ترسخ لهذا الفن في هذا العصر رسالة عمر بن الخطاب (ﷺ) إلى أبي موسى الأشعري المتضمنة توجيهات وإرشادات سياسية، ومما جاء فيها قوله: «بسم الله الرحمن الرحيم، **أما بعد فإن القضاء فريضة محكمة، وسنة متبعة، فافهم إذا أدلي إليك، فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له.آس بين الناس في مجلسك ووجهك، حتى لا يطمع شريف في حيفك، ولا يخاف ضعيف من جورك. البينة على من ادعى واليمين على من أنكر، والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحا حرم حلالا أو أحل حراما...**».[2]

والملاحظ على هاتين الرسالتين ورسائل أخرى لا يسع المجال لذكرها أن رسائل الرسول (ﷺ)، ورسائل الخلفاء من بعده اتسمت بالإيجاز في التعبير، والتركيز على الفكرة لتبليغ الدعوة، والابتعاد عن الصنعة اللفظية وعن التزويق والتكلف، ولغتها جزلة متينة.[3]

وبناء الرسائل في صدر الإسلام غالبًا ما يأخذ شكلا واحدا حيث تبدأ بالبسملة التي تليها تعابير من قبيل: من مُحَمَّد رسول الله أو من خليفة رسول الله ،أو من أمير المؤمنين، وقد تبدأ الرسالة باسم الرسول مباشرة مثل :(هذا كتاب من مُحَمَّد رسول الله)، وإذا كانت الرسالة موجهة إلى مسلم فإنَّ خير ما تستهل به (سلام الله عليك). أما إذا كانت موجهة لغير المسلم فإن ما تستهل به هو(السلام على من اتبع الهدى)، ويلي تحية السلام مباشرة التحميدات مثل :(فإني أحمد الله) أو (أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو)، وقد يرد فيها ذكر التشهد أيضًا أو يكتفي فيها بعبارة (أما بعد).[4]

وحين آل الأمر إلى بني أمية نجد أن الكتابة نمت نموا واسعا «فقد جدّ كثير من المشكلات، وتعقدت الحياة من جميع أطرافها المادية والسياسية والعقلية، إذ تحضر العرب، وأخذوا

---

[1] ينظر :نشأة الكتابة الفنية في الأدب العربي (حسين نصار)، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، 2002م، ص 54-60.

[2] البيان والتبيين (الجاحظ :أبي عثمان عمرو بن بحر)، تحقيق: عبد السلام مُحَمَّد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط7، ج2، 1998م، ص49.

[3] ينظر: الفن ومذاهبه في النثر العربي (شوقي ضيف)، ص 98.

[4] النثر الفني أبرز فنونه وأعلامه (عمر عروة)، دار القصبة للنشر، الجزائر، دت، ص33.

يستعرون كثيرا من النظم الأجنبية وموارد الثقافات لدى الأمم المفتوحة»[1]، فازدهرت بذلك الرسائل الشخصية نظرا لاتساع بلاد المسلمين نتيجة الفتوحات الإسلامية مما دفعهم إلى أن يتكاتبوا في شؤون حياتهم الشخصية من تهنئة وتعزية وغيرهما، وكذلك بالنسبة إلى الرسائل الديوانية فهي الأخرى عرفت نهضة كبيرة والفضل يعود إلى كتّابها الذين كانوا يعدّون من الذروة في الفصاحة والبيان أمثال زياد والحجاج وقطري بن الفجاءة، ولم تقتصر الرسائل في هذا العصر على الخلفاء وحدهم بل تعدت إلى الولاة وقادة الجيوش.[2]

وهنا بدأ الاهتمام من لدن هؤلاء بصاحب هذه الوظيفة الذي يعنى بكتابة الرسائل «فاختاروا لبلاطهم أفضل المثقفين أسلوبا وأعلاهم لغة وأسماهم بيانا وأجملهم خطا كي تكون رسائلهم بمثابة رسل خير في السراء، أو رماح حرب في الضراء، من أجل ذلك انصرفت العناية أول الأمر إلى تأسيس ديوان للكتابة الإنشائية، الذي من خلاله تأسست شبه رابطة للكتّاب الرسميين، حتى صارت لهم مع مرور الزمن تقاليد خاصة يجب مراعاتها وتثبيتها لينسج على منوالها من بعدهم»[3]، فازدهرت بذلك الرسائل السياسية في هذا العصر، ومنها كتاب الحجاج بن يوسف الثقفي إلى المهلب بن أبي صفرة* يأمره بالجد في قتال الأزارقة**، ونصها: «**أما بعد، فإن بشرا رحمه الله استكره نفسه عليك، وأراك غناه عنك، وأنا أريك حاجتي عنك، فأريني الجد في قتال عدوك، ومن خفته على المعصية ممن قبلك فاقتله، فإني قاتل من قبلي ومن كان عندي من ولي لمن هرب عنك فأعلمني مكانه، فأني أرى أن آخذ السمي بالسمي والولي بالولي**».[4]

---

[1] المرجع السابق، ص99.

[2] ينظر: الفن ومذاهبه في النثر العربي، ص 102-103.

[3] قراءة جديدة للنثر العربي القديم (مُحَمَّد مرتاض)، ص 221.

* هو أبو سعيد المهلب بن أبي صفرة، واسمه أبو سعيد المهلب بن أبي صفرة – ظالم – بن سراق بن صبح بن كندي بن عمرو بن عدي بن وائل بن الحارث بن العتيك الأزدي، ولاه الحجاج بن يوسف الثقفي بلاد خرسان سنة 79هـ . ينظر: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان (ابن خلكان أبي العباس شمس الدين أحمد بن مُحَمَّد بن أبي بكر) تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ج5، 1977م، ص 350-353.

** الأزارقة: فرقة من الخوارج أصحاب نافع بن الأزرق، ينظر موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون(مُحَمَّد علي التاهوني) مكتبة لبنان، بيروت، ط1، 1996م، ص 142.

[4] الكامل في اللغة والأدب (المبرد: أبي العباس مُحَمَّد بن يزيد) تحقيق: عبد الحميد هنداوي، وزارة الشؤون الاسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية، دت، مج3، ص165.

وردّ عليه المهلب بما نصه: «**ليس قبلي إلا مطيع، وإن الناس إذا خافوا العقوبة كبروا الذنب، وإذا أمنوا العقوبة صغروا الذنب، وإذا يئسوا من العفو أكفرهم ذلك، فهب لي هؤلاء الذين سميتهم عصاة، فإنهم فرسان أبطال، أرجو أن يقتل الله بهم العدو وأكثرهم نادم على ذنبه**».[1]

ومن أشهر كتّاب العصر الأموي عبد الحميد الكاتب الذي جعل من فن الرسائل فنا قائما بذاته له قواعده وأصوله، « وعنه أخذ المترسلون ولطريقته لزموا، وهو الذي سهّل سبيل البلاغة في الترسل»[2]، ومن رسائله الشخصية كتابه إلى أهله عند هزيمة مروان من فلسطين معزيا عن نفسه بما نصه: «**أما بعد، فإن الله جعل الدنيا محفوفة بالكره والسرور، وجعل فيها أقساما مختلفة بين أهلها، فمن درت له بحلاوتها، وساعده الحظ فيها، سكن إليها، ورضي بها، وأقام عليها، ومن قرصته بأظفارها، وعضته بأنيابها، وتَوَطَّأته بثقلها، قلاها نافرا عنها، وذمها ساخطا عليها، وشكاها مستزيدا منها، وقد كانت الدنيا أذاقتنا من حلاوتها، وأرضعتنا من درها أفاويق، استحلبناها، ثم شمست منا نافرة، وأعرضت عنا متنكرة...**»[3]

ولم تختلف الرسائل في بداية هذا العصر عما كانت عليه في صدر الإسلام موجزة تعنى بالفكرة دون زخرفة أو تنميق لفظي خاص، إلا أنه وفي بداية القرن الأول للهجرة أخذت شكلا آخر لما كانت عليه، حيث اتسمت بالإطناب، والتنميق والزخرفة.[4]

ولو انتقلنا إلى العصر العباسي عصر الإبداع الأدبي، والازدهار الفكري والعلمي، نجد أن الكتابة بلغت درجة متقدمة من التطور بسب إقبال أهلها على العلوم والآداب المترجمة عن الثقافات الأجنبية الفارسية واليونانية، حيث انعكس ذلك إيجابا على الرسائل الديوانية والرسائل الأدبية بخاصة، والنثر الأدبي بعامة الذي تأثر بملكات اللغات الأجنبية، ولاسيما اللغة الفارسية

---

[1] المصدر السابق، مج3، ص166.

[2] الفهرست- في أخبار العلماء وأسماء ما صنفوه من الكتب (النديم مُحَمَّد بن إسحاق)، تحقيق: رضا تجدد، ج3، دت، ص131.

[3] كتاب الوزراء والكتاب (الجهشياري أبو عبد الله مُحَمَّد بن عبدوس)، تحقيق: مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلبي، مطبعة مصطفى الباني الحلبي وأولاده، القاهرة، ط1، 1938م، ص72-73.

[4] الفن ومذاهبه في النثر العربي (شوقي ضيف)، ص106.

على نحو ما هو معروف عن ابن المقفع وترجمته لقصص (كليلة ودمنة) التي حملت في طياتها الكثير من آداب الفرس الاجتماعية والأخلاقية، والنظم السياسية والحكم[1]، فنشطت الرسائل السياسية نشاطا واسعا، ومما ساعدها على ذلك تعدد الدواوين فديوان للحرب وديوان للرسائل، وديوان لشرقي الدولة وغربيها، ولكل ولاية ديوان، ودواوين أخرى لأولياء العهد والأمراء والوزراء، ومن لم يتخذ ديوانا من هؤلاء كان له كاتب يكتب عنه.[2] أما الرسائل الإخوانية فهي الأخرى نمت في هذا العصر، ومما ساعد على ذلك ظهور طبقة متميزة من الكتّاب الذين يجيدون الكتابة الإخوانية، كونهم كانوا من كتبة الدواوين، ولديهم الثقافة المتنوعة التي تساعدهم على تنميق كتاباتهم، بالإضافة إلى مرونة النثر وسهولته لعدم تقيده بوزن أو قافية.[3]

وفي هذا العصر أخذت الرسائل شكلا مغايرا لما كان معهودا عليه من قبل، إذ طغى عليها السجع، واحتوت على الشعر فمنهم من أثبته في مقدمة الرسالة ومنهم من جعله في خاتمتها، وضمنوها الأمثال، وكتبوا في أغراض الشعر من غزل ومديح وهجاء وفخر ووصف، وأصبغوها بمحاسن البيان من خيال واستعارة وتشبيه.[4] ولو طالعنا كتاب جمهرة رسائل العرب لوجدناه زاخرا بالرسائل المتنوعة التي كتبت في هذا العصر، وبذلك نخلص إلى أن هذا النوع من الفنون النثرية بزغ نجمه في هذه المرحلة وانتشر انتشارا واسعا، وظهرت أنواع أخرى من الرسائل كالأدبية والوعظية، وظهر كثير من المترسلين أشهرهم عبد الله بن المقفع، ومُحَمَّد بن زياد الحارثي، والجاحظ، وعبد الله بن المعتز وغيرهم.

أما في بلاد الأندلس فإن فن الرسائل هو الأكثر شيوعا بين سائر الفنون النثرية الأخرى وذلك لانتشار الدواوين وحاجة أهل الأندلس إلى التواصل فيما بينهم، لذلك نجد أنها قد تدرجت في التطور عبر المراحل والأدوار التاريخية التي مرت بها الأندلس، ويمكن أن نشير هنا إلى عصري الطوائف والمرابطين اللذين بزغ فيهما عدد كبير من المترسلين كابن عبدون، وابن زيدون، وابن أبي الخصال وغيرهم، ولم تكن دولة الموحدين التي تسبق الدولة الزيانية إلا امتدادا لهذين العصرين، فنبغ

[1] بتصرف تاريخ الأدب العربي- العصر العباسي الأول (شوقي ضيف)، دار المعارف، القاهرة، ط8، دت، ص442.

[2] ينظر: المرجع نفسه، ص 465.

[3] ينظر: المرجع نفسه، ص 491.

[4] ينظر: النثر الفني في القرن الرابع (زكي مبارك)، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، دت، ص106-107

فيه هو الآخر كتّاب أبدعوا في هذا الفن، فازدهرت فيه الرسائل الديوانية والإخوانية. ونتيجة ذلك نجد أن الحقبة التاريخية التي نجن بصدد دراستنا لا شك أن أدباءها – بحكم التواصل الثقافي والتأثير والتأثر– قد تأثروا بنتاج سلفهم الذين سبقوهم إلى هذا الميدان، ولاسيما كتّاب وأدباء القرنيين الخامس والسادس الهجريين.

نخلص مما سبق أن فن الرسائل تدرّج في التطور عبر مراحل زمنية متعددة، فبعد أن كان مجرد كلام ينقل مشافهة في العصر الجاهلي، صار مع بداية تأسيس الدولة الإسلامية فنا مكتوبا، وشاع حين اقتضت الضرورة إليه مع توسع بلاد المسلمين، إلى أن تعددت أغراضه ومضامينه خلال حكم الأمويين، لتتنوع أساليبه وخصائصه الفنية مع تطور وازدهار الحركة الفكرية والثقافية في العصر العباسي، لتغلب عليه الصنعة اللفظية والزخرفة الفنية مع نهاية هذا العصر. وبالانتقال إلى بلاد المغرب العربي وخاصة المغرب الأوسط نجد أن الرسائل وجدت منذ تأسيس الدولة الرستمية في تاهرت، مرورا بعهد المرابطين ووصولا إلى عهد الدولة الموحدية التي تسبق مرحلة تأسيس الدولة الزيانية بتلمسان، فالرسائل التي نحن بصدد دراستها لم تنشأ من العدم، وإنما هي وليدة عصور متعددة، ومخلفات إرث تركته الدول التي حكمت بلاد المغرب العربي.

الفصل الأول: الرسائل الديوانية

- ***شروط كاتب الإنشاء***
- ***أشهر كتّاب الدولة الزيانية***
- ***أغراض الرسائل الديوانية في العهد الزياني***

سبق لنا الإشارة إلى أن الرسائل الديوانية هي تلك الرسائل التي تعالج أمور السياسة العامة للدولة من حيث الإدارة والتنظيم الداخلي، والعلاقات الخارجية، وكل ما يتعلق بالحياة العامة وشؤون الرعية، وعرفت رعاية واهتماما كبيرا من لدن السلاطين والملوك في الدول المختلفة، حتى أنهم أنشأوا لأجلها ديوانا خاصا بها هو ديوان الإنشاء الذي يعد ذا أهمية كبيرة في سياسة الدول، فلا يمكن للحاكم الاستغناء عن خطة الكتابة التي تأتي في المرتبة الثانية من حيث الأهمية بعد مرتبة الخلافة، فبها تستقيم أمور السياسة والحكم، ولم تستغن عنها لا الدول المتقدمة كالدولة الأموية والعباسية، ولا المتأخرة منها، وصاحب هذا الديوان يتبوّأ مكانة كبيرة في الدولة لأنه يعدّ لسانها وقلمها الأعلى، « فصناعة الإنشاء أشرف صناعات الممالك وأسناها وأفضل درجات المملكة، وأعلاها، وأميز رتبها وأبهاها، الجامعة للأشياء الذي له قوام الملك وضبط قواعده...والمنع والإمضاء، والقبض والبسط، والوصل والفض، والسر والجهر، والنهي والأمر».[1]

وأشار المقري إلى أن صاحب ديوان الإنشاء في بلاد الأندلس الذي أنيطت به مهمة كتابة الرسائل كانت له مكانة مرموقة ومميزة حتى صار يحظى باهتمام بالغ من طرف أهلها، يقول: «كاتب الرسائل وله حظ في القلوب والعيون عند أهل الأندلس، وأشرف أسمائه الكاتب، وبهذه السمة يخططه من يعظمه في رسائله، وأهل الأندلس كثيرو الانتقاد على صاحب هذه السمة، لا يكادون يغفلون عن عثراته لحظة، فإن كان ناقصا عن درجات الكمال لم ينفعه جاهه ولا مكانه من سلطانه من تسلط الألسن في المحافل والطعن عليه معلى صاحبه».[2] ولاشك أن هذه المكانة التي تبوّأها كاتب الرسائل لم تقتصر حتما على بلاد الأندلس بل حتى على بلاد المغرب العربي بعامة، والمغرب الأوسط بخاصة، وبما أن الأعين كانت مسلطة عليه فكان لابد عليه أن يتحرى الصواب ويتجنب الوقوع في الخطأ، وحتى يتحقق له ذلك وجب أن تتوفر فيه شروط وسمات تأهله لهذه الوظيفة.

---

[1] المفتاح المنشا لحديقة الإنشا (ابن الأثير ضياء الدين)، دراسة وتحقيق: عبد الواحد حسن الشيخ، مكتبة ومطبعة الإشعاع الفنية، مصر، ط1، 1999م، ص51.

[2] نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، (أحمد بن مُحَمَّد المقري التلمساني)، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1968م ج1، ص 217.

1- شروط كاتب الإنشاء:

يشترط أن تتوفر في صاحب ديوان الإنشاء الصفات العلمية من «زيادة العلم وعارضة البلاغة لأنه معرض للنظر في أصول العلم لما يعرض في مجالس الملوك، ومقاصد أحكامهم».[1] وعبد الحميد الكاتب في رسالته التي وجهها لكتّاب السلاطين، والتي كانت بمثابة قانون دائم سار عليه أغلبهم حيث وضع شروطا لهم أهمها أن يكون عالما بالنوازل، والأخذ من كل علم بنصيب من صنوف الآداب، والتفقّه في الدين وبخاصة كتاب الله عز وجل والفرائض، وإجادة اللغة العربية، والخط ورواية الأشعار، ومعرفة تاريخ وسير العرب والعجم.[2] وهذا ما يؤكده البطليوسي في حديثه عن المترسل الذي «يحتاج إلى الاستكثار من حفظ الرسائل، والخطب والأمثال، والأخبار والأشعار، ومن حفظ عيون الحديث يدخلها في تضاعيف سطوره متمثلا إذا كتب...ولا بأس باستعمال الشعر اقتضابا وتمثلا»[3].

وأضاف القلقشندي الإسلام كشرط من شروط تولي خطة الكتابة « ليؤمن (الكاتب) فيما يكتبه ويمليه، ويوثق به فيما يذره ويأتيه إذ هو لسان المملكة، المرهب للعدو بوقع كلامه، والجاذب للقلوب بلطف خطابه، إذ لا يجوز أن يولّى أحد من أهل الكفر».[4]ومن كمال الشروط العلمية أن يكون الكاتب ملما ببعض اللغات الأجنبية، وذلك ضروري في المكاتبات مع الدول الأجنبية، لفهم الكتب التي ترد على الملك أو الأمير، والرد عليها دون الاستعانة بترجمان، لأن في ذلك حفظا لأسرار الدولة، وحتى لا تختلط عليه المعاني، وحتى يفهم المضمون ويعرف الغرض منها.[5]

ولابد أيضا، من توفر شروط خلقية وهي كثيرة أجملها عبد الحميد الكاتب في رسالته إلى الكتّاب، ومنها أن يتصف بالأناة وضبط النفس، والعفاف والعدل والإنصاف، وكتم الأسرار،

---

[1] مقدمة ابن خلدون (ابن خلدون)، ج1،ص 430.

[2] ينظر :كتاب الوزراء والكتاب (مُحَمَّد الجهشياري) ، ص75.

[3] الاقتضاب في شرح أدب الكتاب، تحقيق: مصطفى السقا، حامد عبد المجيد، دار الكتب المصرية، القاهرة، ج1، 1996م، ص140،139.

[4] صبح الأعشى ، ج1، ص61.

[5] ينظر: المصدر نفسه، ج1، ص165.

والوفاء بالعهود، وألا تكون نفسه طماعة نمامة، وأن يكون مقداما أو محجاما حين يقتضي الأمر، وعدم التكبر والتحلي بالتواضع، وعدم الملل، والصدق في القول، ومصاحبة الأخيار من الناس.[1] ويبدو أنهم بالغوا في اختيار كاتب الديوان، فلم يكتفوا بهذه الشروط حيث أشار النويري إلى صفات خِلقية يجب أن تتوفر في الكاتب منها اعتدال القمة وكثافة اللحية، وأن يكون حسن الخط.[2]

أما فيما يتعلق بشروط اختيار الكاتب في دولة بني عبد الواد الزيانية، فيتبين لنا من خلال دراسة شخصياتهم وسيّرهم أن سلاطين هذه الدولة اعتمدوا الشروط السابقة نفسها، فاختيار كاتب الإنشاء لديهم لم يخضع لمقياس القربي بل لمقياس الكفاءة وحسن السلوك[3]، وهذا ما تؤكده وصية أبي حمو موسى الزياني الثاني* لولده وولي عرشه أبي تاشفين، إذ اشتملت على الشروط العلمية الواجبة توفرها في صاحب الإنشاء حيث يقول :« يا بني وأما كتّابك فلتتخير منهم لسرك كاتبا من وجوه بلدك، موفيا لغرضك ومقصدك، فصيح اللسان جريء الجنان، بليغ البيان، عارفا بالآداب، سالكا طرق الصواب، بارع الخط، حسن الضبط، عالما بالحل والربط، كاتما للأسرار، متحليا بالوقار، ذا عقل وافر، وفهم حاضر، وذهن ثاقب، وفكر صائب».[4]

وتضمنت بالإضافة إلى ما سبق شروطا خلقية لابد من توفرها في صاحب الديوان، وهي أن يكون «حلو الشمائل، موسوما بالفضائل، جميل الهيئة واللباس، والموالاة للناس، لأن الكاتب عنوان المملكة، وبه تتبين الأمور المشتبكة، ومن كتابك يستدل على عقلك، ويعترف بمعرفتك

---

[1] ينظر :كتاب الوزراء والكتاب، (محمّد الجهشياري)، ص74.

[2] ينظر: نهاية الإرب في فنون الأدب، ج07، ص13.

[3] نظم الحكم في دولة بني عبد الواد الزيانية،(بوزيان الدراجي)،ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1993م، ص142.

* هو أبو حمو موسى بن يعقوب، وينتهي نسبه إلى يغمراسن بن زيان، ولد سنة 723هـ في غرناطة، تلقى تعليمه الأول في مسقط رأسه، ثم ارتحل إلى تلمسان مع والده أين أتم تعليمه، وحين استولى المرينيون على تلمسان انتقل مع عائلته إلى ندرومة ثم إلى تونس الحفصية، ومنها عاد إلى منطقة الزاب أين جمع جيشه واستطاع تحرير تلمسان واسترجاع الملك الضائع سنة (760هـ)، وأطلق على دولته اسم الدولة الزيانية بعد أن كانت تسمى إمارة بني عبد الواد، ووجه أنظاره نحو بناء وتشييد دولته القوية حفاظا على وحدتها ودوامها، و«صرف وجه العناية لإحياء رسوم الخلافة، وتوطيد قواعد الملك، وتشييد مصانع الدولة، مضطلعا بتفصيل أحكام ذلك، وإحكام تفاصيله، عارفا بتحديد رسومه، ورسم حدوده». ينظر: بغية الرواد، ج2، ص 15 وما بعدها. تلمسان في العهد الزياني (عبد العزيز فيلالي) موفم للنشر والتزيع، الجزائر، ج1، 2002م، ص55.

[4] واسطة السلوك في سياسة الملوك، (أبو حمو موسى الزياني الثاني)، مطبعة الدولة التونسية، تونس، 1279هـ، ص 60،61.

وفضلك، هذا أقل ما يشترط في الكاتب، ويكون في حقه وحقك من الواجب، فإنه إذا كان الكاتب بهذه المثابة صلح أن يكون أهلا للكتابة، وإن خل بهذه الشروط كان جديرا بالتأخر والسقوط لإخلاله بكتابته وعدم إصابته، وكان ذلك وصما في حق مخدومه، ودليلا على جهله في تقديمه».[1]

ولقد حظي صاحب هذا المنصب بمكانة مرموقة في بلاط السلاطين الزيانيين، ومن مهماته ووظائفه قراءة الرسائل والخطابات الواردة على السلطان، وهذا ما أشار إليه أبو حمو موسى الثاني في وصيته حيث قال:« فأول من يدخل عليك كاتبك ووزيرك، إذ بهما صلاحك وتدبيرك...لتلقي إلى الكاتب ما أردت من سرك، ويعرض عليك الكتب الواردة من أقطارك وأمصارك»[2]. وحدد الشروط والصفات التي يجب أن تتوفر فيه، فعليه أن يكون فطنا حذرا أثناء القراءة لما قد تتضمنه تلك الكتب الواردة من ألفاظ لا تليق بمقام السلطان وحاشيته، فيتجاوزها إلى أن يخلو به ويعرضها عليه، قال: «ويجب على هذا الكاتب... أن يكون دربا بقراءة الكتب وسردها، متحرزا عند قراءتها من ألفاظ شائنة، أو وصمة في ضمن الكتاب كامنة، فإنه ربما يجد فيها ما يكون في حق الجلساء وصما، وقبيحا يستحق في الوقت كتما، فيتجاوز الكاتب عن ذلك اللفظ المشين، ولا يبينه في الحين، ثم ينتظر به خلوة إليك، فيعيد قراءته عليك، ويظهر ما أخفاه عن الجلساء، فيعد ذلك من قوة فطنته والذكاء».[3]

ومن مهمات ووظائف الكاتب في دولة بني عبد الواد الزيانية تحرير المراسلات السلطانية والعهود والمعاهدات، سواء أكان ذلك إلى ملوك وسلاطين الدول أم إلى عمّاله وموظفيه من ولاة وقضاة ووزراء، كما أنيطت به في زمن أبي حمو الثاني مهمة التوقيع*، ففي ذلك يقول: «فإذا فرغ

[1] المصدر السابق، ص 60- 61.

[2] المصدر نفسه، ص 81، 82.

[3] المصدر نفسه، ص82.

* التوقيع: وهو أن يجلس الكاتب بين يدي السلطان في مجالس حكمه وفصله، ويوقع على القصص المرفوعة إليه أحكامها والفصل فيها، متلقاة من السلطان بأوجز لفظ وأبلغه، فإما أن تصدر كذلك، وإما أن يحذو الكاتب على مثالها في سجل يكون بيد صاحب القصة، ويحتاج الموقع إلى عارضة من البلاغة يستقيم بها توقيعه. المقدمة(عبد الرحمن بن خلدون)، تحقيق: عبد الله مُحَمَّد الدرويش، دار يعرب، دمشق، ط1، 2004م، ج1، ص430.ويعرفه القلقشندي بقوله:« أما التوقيع فهو الكتابة على الرقاع والقصص بما يعتمده الكاتب من أمر الولايات والمكاتبات في الأمور المتعلقة بالمملكة والتحدث في المظالم». صبح الأعشى، ج1، ص110.

الكاتب من عرض كتبك، وتلقى بالتوقيع ما أردته من أربك، خرج لكتابة ما أمرته به، ويجري على أحسن مذهبه».[1]

إن هذه الوصية التي اشتملت على أهم الشروط الواجب توفرها في صاحب ديوان الإنشاء الزياني، والمهمات والوظائف التي أنيطت به تبين الاهتمام البالغ من لدن أمراء بني زيان به، الذين سعوا إلى جلب أفضل الكتّاب وأحسنهم خلقا وعلما وأدبا ممن حازوا المرتبة والمكانة الرفيعة في زمانهم، هذا الأمر حتما لم يقتصر على فترة حكم أبي حمو موسى الثاني وحده بل شمل السلاطين من قبله ومن بعده، وهذا ما سيتضح أكثر أثناء ترجمتنا لأشهر الكتّاب الذين شغلوا منصب ديوان الإنشاء.

2- أشهر كتّاب الدولة الزيانية:

لقد وردت أسماء عديدة في المصادر التي أرّخت لتاريخ الدولة الزيانية وكتب التراجم والسير لشخصيات تولّت رئاسة ديوان الإنشاء، واختصت بكتابة الرسائل الصادرة عن سلاطين بني زيان، وأول تلك الأسماء التي استقدمها يغمراسن بن زيان* وجعلها كاتبا لرسائله، أبو إسحاق إبراهيم بن يخلف بن عبد السلام التنسي العالم**، ومنهم أيضا أبو مُحَمَّد بن غالب، وأبو عبد الله مُحَمَّد بن جدار،[2] وأبو عبد الله بن مدورة في عهد أبي تاشفين الأول[3]، وفي عهد الأميرين أبي سعيد وأبي

[1] واسطة السلوك في سياسة الملوك، ص 82.

* هو يغمراسن بن زيان بن ثابت بن مُحَمَّد العبد وادي، أبو يحيى أول سلاطين الدولة الزيانية، بويع يوم مقتل أخيه، ومحى آثار الدولة الموحدية، تولى الحكم سنة (633هـ)، حيث برزت دولته بسبب ما أظهره من «أبهة الخلافة،....واستعمل ما يورث الملك كمالا وجمالا ...فانتخب الوزراء و الحجاب، وانتقى القواد، والكتاب». تاريخ بني زيان ملوك تلمسان: مقتطف من نظم الدر والعقبان في بيان شرف بني زيان (التنسي مُحَمَّد بن عبد الله)، تحقيق وتعليق: محمود آغا بوعياد، موفم للنشر، الجزائر، 2011م، ص115. ينظر ترجمته: معجم أعلام الجزائر- من صدر الاسلام حتى العصر الحاضر (عادل نويهض) مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، ط2، 1980م، ص354، 355. و الإحاطة في أخبار غرناطة (لسان الدين بن الخطيب) تحقيق: مُحَمَّد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط2، ج1، 1973م، ص563.

** من علماء المالكية أصله من "تنس" كان يرد على تلمسان كثيرا ينهل منه الفقهاء العلم، فألحّ عليه سلطان تلمسان يغمراسن بن زيان على الإقامة فيها رغبة في نشر العلم فوافق وجعله كاتب رسائله، توفي بتلمسان وقبره بالعبّاد. ينظر تاريخ بني زيان ملوك تلمسان،(مُحَمَّد التنسي)، ص 126، 127. ينظر ترجمته في: بغية الرواد، ج1، ص 151. والبستان (ابن مريم التلمساني)، ص66، 67.

[2] بغية الرواد، (يحي بن خلدون)، ج2، ص226.

[3] المصدر نفسه، ج2، ص237.

ثابت استكتبا عبد الواحد بن مُحَمَّد الزواق، ثم أبعداه وعينا مكانه علي بن مُحَمَّد بن سعود[1]، وفي عهد أبي حمو موسى الثاني الفقيه أبو عبد الله مُحَمَّد بن علي بن أحمد العصامي[2]، أما أشهر كتّاب الدولة الزيانية فهم:

1.2 مُحَمَّد بن عبد الله بن داود بن خطاب الغافقي المرسي:

نزيل تلمسان من أهل مرسية، كان من أبرع الكتّاب خطا وأدبا وشعرا، ومن أعرف الفقهاء بأصول الفقه، كتب بغرناطة عن ملوكها، رجع إلى مرسية وقد اختلّت أمورها، فارتحل إلى تلمسان وكتب بها عن أمير المؤمنين يغمراسن بن زيان،[3]، أخذ العلم عن عدد كبير من علماء بلده كأبي بكر بن جوهر، وأبي بكر بن محرز، وأبي بكر الغافقي، وأبي علي الحسن بن عبد الرحمن الرفاء، وأبي عيسى مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن أبي السداد، ووأبي المطرف بن عميرة، والربيع بن سالم.[4]

وبعد استقراره بتلمسان قرّبه يغمراسن بن زيان من مجلسه وجعله صاحب القلم الأعلى[5]، فصدرت عنه رسائل عن ديوان الإنشاء خاطب بها سلاطين تونس ومراكش، وظل ملازما للبلاط الزياني إلى أن توفي سنة (686هـ).[6] وهو يعد من أشهر كتّاب الدولة الزيانية حيث كان له دور سياسي كبير مع بداية تأسيسها، إذ كان لسانها الذي تنطق به، وقلمها الذي تكتب به، كما كان له دور أدبي تمثل في تراثه الذي ظل محفوظا إلى يومنا هذا في الوقت الذي ضاعت فيه أغلب الرسائل الديوانية الصادرة عن ملوك بني زيان، فترك ابن خطاب إنتاجا أدبيا متنوعا نثرا وشعرا، فقد ذكر جامع رسائله أنه جمع شعره في كتاب سماه (المستطاب من شعر الفقيه أبي بكر بن خطاب)، وأما رسائله فقد جمعها في كتاب سماه (فصل الخطاب في ترسيل أبي بكر بن خطاب) وذلك تلبية لرغبة وزير النصري أبي عبد الله بن الوزير أبي القاسم بن الحكيم الرندي.

---

[1] المصدر السابق، ج2، ص 257.

[2] المصدر نفسه، ج2، ص 37.

[3] البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان (ابن مريم التلمساني)، ص 227.

[4] ينظر: بغية الرواد، ج1، ص 169.ورحلة ابن رشيد السبتي (ابن رشيد أبي عبد الله مُحَمَّد) دراسة وتحليل: أحمد حدادي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامي، مطبعة إليت، المغرب، ج1، 1424هـ/ 2003م، ص299.

[5] تاريخ بني زيان ملوك تلمسان (مُحَمَّد التنسي)، ص 127.

[6] الإحاطة في أخبار غرناطة (لسان الدين بن الخطيب)، ج2، ص433.

2.2 مُحَمَّد بن عمر الحجري الرعيني المعروف بابن خميس التلمساني:

هو مُحَمَّد بن عمر بن مُحَمَّد بن عمر بن مُحَمَّد بن خميس الحميري الحجري الرعيني نسبة إلى حجر ذي رعين وهو من أهل تلمسان يكنى أبا عبد الله ويعرف بابن خميس[1]، واشتهر بين علماء عصره وذاع صيته بينهم حيث «كان نسيج وحده زهدا وانقباضا، وأدبا وهمة حسن الشيبة، جميل الهيئة، سليم الصدر، قليل التصنع، بعيدا عن الرياء والهوى، عاملا على السياحة والعزلة، عارفا بالمعارف القديمة، مضطلعا بتفاريق النحل، قائما على العربية والأصلين، طبقة الوقت في الشعر، وفحل الأوان في النظم المطول، أقدر الناس على اجتلاب الغريب، ومزج الجزالة بالسلاسة، ووضع الألفاظ البيانية مواضعها».[2]

ولم تشر المصادر التي ترجمت له لتاريخ ولادته، غير أن الرحالة العبدري الذي دخل إلى تلمسان، ولقي فيها ابن خميس قد أورد في معرض ترجمته له إشارة يمكن أن نحدّد بها تاريخ ولادته إذ قال: « وما رأيت بمدينة تلمسان من ينتمي إلى العلم أو يتعلق به بسبب سوى صاحبنا أبي عبد الله بن مُحَمَّد بن خميس وهو فتى السن مولده عام خمسين وله عناية بالعلم مع قلة الراغب فيه والمعين عليه، وحظ وافر من الأدب، وطبع فاضل في قرض الشعر»[3]، وإذا علمنا أن العبدري بدأ رحلته سنة (688هـ) فإن مولد ابن خميس يكون بناء على ذلك في النصف الأول من القرن السابع الهجري، أي في عهد السلطان يغمراسن بن زيان.

وحياة ابن خميس يكتنفها الكثير من الغموض، فجميع المصادر التي ترجمت له لم تشر إلى تاريخ ولادته ولا إلى نشأته وأسرته ودراسته وشيوخه، فلا نكاد نعرف عن ذلك شيئا، اللهم إلا إشارات قليلة ونادرة عُرضت في ثنايا هذه المصنفات والرحلات، أو في ثنايا قصائده التي تلمح إلى هذه الجوانب من حياته. لكن بالعودة إلى عصره نجده حافلا بالعلماء والفقهاء والمفكرين، ولاريب في أنه أخذ العلم والثقافة على يد هؤلاء.

---

[1] أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض (أحمد بن مُحَمَّد المقري التلمساني) تحقيق: مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلبي، مطبعة فضالة، المغرب، دت،ج2، ص301.

[2] الإحاطة في أخبار غرناطة (لسان الدين بن الخطيب)، ج2، ص528، 529.

[3] الرحلة المغربية (مُحَمَّد العبدري البلنسي) تقديم: سعد بوفلاقة، منشورات بونة للبحوث والدراسات، الجزائر،ط1، 2007م، ص 31- 32.

تولى ابن خميس رئاسة كتابة الإنشاء في ديوان السلطان أبي سعيد عثمان بن يغمراسن، وقد أشار إلى هذا غير واحد من الذين ترجموا له، فقد ذكر يحي بن خلدون أن السلطان المذكور ولاه كتابة الإنشاء في ديوانه حين اعتلى سدة الحكم[1]، غير أننا لا نعلم متى تولى هذه الوظيفة، ولا المدة التي قضاها فيها، والظاهر أنه تولاها مباشرة بعد وفاة ابن خطاب المرسي سنة (686هـ)، أما عن المدة التي قضاها في ديوان الإنشاء فيبدو أنها كانت قصيرة كما تشير إلى ذلك المصادر، إذ إنه سرعان ما تخلى عن هذه الخدمة لما كان يدور من دسائس ومؤامرات في قصر السلطان، وفي ذلك قال ابن الخطيب: « كتب بتلمسان عن ملوكها من بني زيان، ثم فرّ عنهم، وقد أوجس منهم خيفة، لبعض ما يجرى بأبواب الملوك».[2]

أما وفاته فقد ذكر ابن مريم أنه مات طعنا على يد علي بن نصر الشهير بالأبكم في غرناطة[3]، وذلك في مطلع شهر شوال من عام (708هـ)، وهو ابن نيف وستين سنة، وكان من آخر كلامه قوله: «أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله»، وكان من آخر نظمه رائعته الهائية التي مطلعها:

لمـــن المنـــازِلُ لاَ يُجِيـــبُ صـــدَاهَا مُحِيَّـــتْ مَعَالِمُهـــا وَصَـــمَّ صَـــدَاهَا[4]

وقد اشتهر ابن خميس بنظم الشعر على حساب النثر إذ عدّ من فحول الشعراء في زمانه بلا منازع حيث ترك ديوانا شعريا يضم أغراضا متعددة، ومن جميل شعره مدحه لبني زيان في قوله:

لَـــوْلاَ بَنُـــو زِيَّان مَـــا لَـــذَّ لي ال عَـــيْشُ وَلاَ هَانَـــتْ عَلَـــيَّ اللَّيَـــالْ
هُـــمْ خَوَّفُـــوا الـــدَّهْرَ وَهُـــم خَفَّفُـــوا عَلَـــى بَـــني الـــدُّنْيَا خُطَـــاهُ الثِّقَـــالْ
لَقِيـــتُ مِـــنْ عَـــامِرِهِم سَـــيِّدًا غَمْـــرَ رداءِ الحَمْـــدِ جَـــمَّ النّـــوَالْ
وَكَعْبَـــةً لِلجُـــودِ مَنْصُـــوبَةً يَسْـــعَى إِلَيْهَـــا النَّـــاسُ مِـــنْ كُـــلِّ بَالْ[5]

[1] ينظر: بغية الرواد (يحي بن خلدون)، ج1، ص230.
[2] الإحاطة في أخبار غرناطة (لسان الدين بن الخطيب)، ج2، ص529.
[3] البستان، (ابن مريم)، ص225.
[4] تعريف الخلف برجال السلف (الحفناوي أبي القاسم مُحَّد)، مطبعة بيير فونتانة الشرقية، الجزائر، ج2، 1324هـ/1906م، ص368.
[5] نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، (أحمد المقري)، ج5، ص364.

3.2 مُحَمَّد بن منصور بن علي بن هدية القرشي التلمساني:

هو أبو عبد الله بن مُحَمَّد بن منصور بن علي بن هدية القرشي، من ولد عقبة بن نافع الفهري، عالم خير، من أئمة اللسان والأدب، ذو بصر بالوثائق، مشهور الفضل والدين[1]، تلمساني الدار والمنشأ، تولى خطة القضاء مع كتابة السر للسلطان أبي تاشفين الأول. وأشاد به النباهي وذكر المكانة التي تبوّأها في بلاط السلطان الزياني، قال: «كبير قطره في عصره نباهة، ووجاهة وقوّة في الحق وصرامة، وكان أثيرا لدى سلطانه، قلّده مع قضائه كتابة سره، وأنزله من خواصه فوق منزلة وزرائه، فصار يشاوره في تدبير شؤون ملكه، فقلما كان يجري شيئا من أمور السلطنة إلا عن مشورته، وبعد استطلاع رايه، كان أصيل الرأي، مصيب العقل، مذكرا لسلطانه بالخير، معينا عليه، كاتبا بليغا ينشئ الرسائل المطولة في المعاني المشردة، ذو حظ وافر من علم العربية واللغة والتاريخ».[2]

وأشاد بمكانته أيضا، مُحَمَّد ابن مرزوق، فقال في حقّه:« أبو عبد الله بن هدية، أحد قضاة العدل، وأئمة اللسان والأدب، ونفوذ الأحكام، والبصر بالوثائق».[3] وتوفي ابن هدية أواسط (735هـ) بتلمسان في عهد السلطان أبي تاشفين الأول الذي شهد جنازته، وولّى ابنه أبا علي منصور مكانه.[4]

4.2 أبو زكريا يحي بن مُحَمَّد بن خلدون:

ولد أبو زكريا يحي بن خلدون بتونس سنة (734هـ-1334م)، أي بعد أخيه عبد الرحمن بسنتين، حيث بلغت شهرة عبد الرحمن المؤرخ الذائع الصيت مبلغا عظيما، واعتنى الباحثون بدراسة إنتاجه الفكري عناية كبرى، الأمر الذي أدى إلى انشغالهم به وبفلسفته الاجتماعية عن أخيه يحي وآثاره التاريخية والأدبية، كما لم يعن بدراسة يحي بن خلدون إلا القليل من الباحثين، رغم أن عددا كبيرا من المؤرخين والأدباء اعتمدوا على كتابه (بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد

---

[1] بغية الرواد (يحي بن خلدون)، ج1، ص153، 154.

[2] تاريخ قضاة الأندلس، تحقيق: لجنة إحياء الثرات العربي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1980م، ص 134، 135.

[3] المناقب المرزوقية (مُحَمَّد بن مرزوق التلمساني)، دراسة وتحقيق: سلوى الزاهري، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط1، 2008م، ص175.

[4] أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض (أحمد المقري التلمساني)، ج5، ص48.

الواد) ونقلوا عنه أخبارا عديدة وأشعارا كثيرة. وينتمي يحي بن خلدون إلى أسرة عريقة في الثقافة والعلوم وينحدر من أسرة عربية قديمة أصلها من حضرموت، استقرت بالأندلس إثر الفتح العربي.[1]

وأسهمت البيئة العلمية التي نشأ فيها يحي بن خلدون في جعله يرتقي إلى طبقة الكتّاب البارزين في عصره من أمثال أبي القاسم بن رضوان، ولسان الدين بن الخطيب وغيرهما، فكان كاتبا وشاعرا ومؤرخا يمتاز بثقافة أدبية واسعة، وأسلوب زاخر بالمحسنات البديعية والسجع المستظرف، إضافة إلى نبوغه في سائر العلوم الإنسانية والاجتماعية وبخاصة التاريخ.[2]

وتبوّأ يحيي بن خلدون مكانة مرموقة في زمانه حيث «اشتغل كاتبا في بلاط الأمير أبي عبد الله الحفصي، وفي بلاط السلطان الزياني أبي حمو موسى الثاني، وفي بلاط الأمير عبد العزيز المريني، ثم عاود الكرة لخدمة أبي حمو الثاني قبل أن يغتال في تلمسان في إحدى ليالي رمضان من سنة (780هـ) وهو عائد من المشور بعد تأدية صلاة التراويح حيث طعن بخناجر عديدة إلى أن سقط على دابته».[3]

وبالرغم من أنه اشتغل كاتبا لديوان الإنشاء في الدولة الزيانية على عهد أبي حمو موسى الزياني الثاني وتدوينه لتاريخ وأمجاد سلاطينها في كتابه، إلا أنه لم يثبت فيه ولو رسالة واحدة أنشأها من رسائله السياسية والإخوانية، ومن المؤسف أيضا أن جميع المصادر التاريخية التي أرّخت لعهده، وكتّاب السير الذين ترجموا له لم يذكروا أي نص من نصوص رسائله، وهذا ما يضع الدارس في حيرة من أمره فيما يتعلق بأسلوب يحي بن خلدون وإنتاجه الأدبي وبخاصة فن الرسائل، فرأينا من الحكمة أن نشير هنا إلى السمات العامة لأسلوبه الفني انطلاقا من النصوص الواردة في كتابه بغية الرواد.

لا شك أن أسلوبه لم يختلف عن أسلوب بقية كتّاب عصره فقد سلك نهجهم وتأثر بالعديد منهم كلسان الدين بن الخطيب وابن رضوان وغيرهما، حيث امتاز أسلوبهم بالصنعة اللفظية

---

[1] بغية الرواد (يحي بن خلدون)، ج1، ص07، 08.

[2] ينظر: أبو حمو موسى الثاني حياته وآثاره (عبد الحميد حاجيات)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982م، ص176.

[3] من أعلام تلمسان – مقاربة تاريخية فنية– (مُحَمَّد مرتاض) ، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، 2004م، ص154، 155.

إذ طغى عليه توظيف المحسنات البديعية التي أصبحت السمة الغالبة على أغلب الفنون النثرية، ومن نماذج أسلوبه قوله في سياق مدحه لأبي تاشفين: «... دخل الحضرة العلية مولانا الأمير المعظم أبو تاشفين، علم الكمال المنصور، وروض الجمال المقصور، وأسد الحروب الهصور، وشرف الجحافل والقصور، سبط الرسالة، وبدر هذه الهالة، ومظهر العلاء والجلالة...فيا لله من شمائل فضحت الخمائل، وضرائب أبدت الغرائب، ومواهب أخجلت السحائب، وشجاعة عودت الضراغم الضراعة».[1]

إن هذا النص وغيره من النصوص التي لا يسع المجال لذكرها تكشف عن بعض الجوانب المهمة التي يتسم بها أسلوب الكاتب، فهو لا يستغن عن السجع شأنه شأن أغلب كتّاب عصره، وإن لم يكن يبالغ في استخدامه، ويتحرى الدقة في الوصف والبراعة في التصوير الناجمين عن حسن اختيار الألفاظ، كما يكثر من الاستعانة بالصور البيانية وبخاصة الاستعارة التي تزيد المعنى رونقا وجمالا، وغالبا ما يعمد إلى تأكيد كلامه مستعينا بالاقتباس من القرآن الكريم، كما لا يخلو أسلوبه من سائر المحسنات البديعية الأخرى كالطباق والجناس وغيرهما.

هذه ترجمات لبعض الشخصيات المرموقة التي تولّت رئاسة ديوان الإنشاء وكتابة الرسائل في عهد الدولة الزيانية، تدل على أن سلاطين تلمسان كانوا يتخيرون لهذه المهمة أفضل الكتّاب وأبرعهم، إما من الناحية العلمية التي امتازوا بها وفاقوا بها أقرانهم في زماهم، أو من الناحية الخلقية التي امتازوا بها عن غيرهم من كتمان الأسراء والإخلاص في خدمة الأمراء، والتشيع لهم، ليس لشيء سوى خدمة لدولتهم ومصالحها السياسية الداخلية والخارجية التي تفرضها الظروف والمناسبات المختلفة، وإيمانا منهم بأهمية هذه الوظيفة التي تعد ركيزة أساسية في بناء الدولة والتحكم في زمام السلطة لفرض الهيمنة والهيبة على الأعداء، ولتحسين صورتها حتى تنعم بالاحترام والتقدير.

[1] بغية الرواد (يحيى بن خلدون)، ج2، ص256.

3-مواضيع الرسائل الديوانية

من المصاعب التي تعترض الباحث في هذا الموضوع، هو أن معظم الرسائل الديوانية الصادرة عن ديوان الإنشاء في عهد الدولة الزيانية ضاعت، ولم يصلنا منها إلا القليل النادر إذا ما قيست بالفترة الزمنية التي عاشتها الدولة، وهذا لغز محيّر إذا ما قورنت مثلا برسائل الدولة المرينية التي بقيت محفوظة إلى اليوم، وهذا السبب يعزوه بعض الدارسين إلى إهمال المؤرخين والأدباء لعدم اهتمامهم بتدوين الرسائل، أو بسبب المعارك والحصارات المتكررة على مدينة تلمسان من قبل المرينيين والحفصيين، والإسبان ثم الأتراك، فضلا عن الحروب الأهلية والصراعات الداخلية من أجل السلطة[1].

هذه عوامل اجتمعت كلها ضد هذا الفن الأدبي في العصر الزياني، لتسهم في ضياع أغلب نصوصه، ولولا كتاب ابن خطاب المرسي الذي جمعت فيه رسائله، ولولا المراسلات الزيانية مع مملكلة أراغونة التي بقيت محفوظة في الأرشيف الأراغوني، لما وصلنا اليوم منها شيء، وأغلب الرسائل الديوانية التي تتوفر لدينا تبين نوعية العلاقة السياسية القائمة بين الدولة الزيانية وغيرها من الدول كالحفصية بتونس ودولة المماليك بمصر وبني نصر في غرناطة، والعلاقات التجارية القائمة بين تلمسان ومملكة أراغونة الإسبانية، لدى سنركز في بحثنا على الرسائل التي بين أيدينا وتصنيفها بحسب المواضيع والأغراض التي كتبت لأجلها.

1.3 رسائل البيعة:

البيعة لغة هي «الصفقة على إيجاب البيع وعلى المبايعة والطاعة، والبيعة المبايعة والطاعة، وقد تبايعوا على الأمر كقولك أصفقوا عليه، وبايعه عليه مبايعة: عاهده».[2] واصطلاحا هي «العهد على الطاعة كأن المبايع يعاهد أميره على أن يسلم له النظر في أمر نفسه وأمور المسلمين لا ينازعه في شيء من ذلك، ويطيعه فيما يكلفه به من الأمر على المنشط والمكره».[3]

[1] ينظر: تلمسان في العهد الزياني(عبد العزيز فيلالي)، ج1، ص 457، 458.
[2] لسان العرب (ابن منظور)، مج8، ص 26.
[3] المقدمة (ابن خلدون) ج1، ص390.

فهي بذلك عهد يقطعه المبايع على نفسه بطاعة المبايَع وعدم الخروج عن أمره، وطاعته في جميع الأحوال والظروف، وتكون بطريقة مباشرة حيث يعلن المبايع للسلطان ولاءه والدخول في طاعته والانصياع لأوامره مشافهة، وتكون كذلك بطريقة غير مباشرة عن طريق رسالة توجّه إلى المبايَع عند قيامه أول مرة بأعباء منصبه إقرارا له ورضا عنه، وهي ذات طابع ديني لأن الرسول (ﷺ) هو الذي سنّها مثل بيعة العقبة وبيعة الرضوان. وللبيعة ارتباط وثيق بالجانب السياسي لأن من مزاياها تنظيم شؤون الدولة والحفاظ على استقرارها وضمان الموالين لها.

وقد اتسمت العلاقات الزيانية بالدولة الحفصية* في عهد يغمراسن بن زيان وابنه عثمان بالتقارب الواضح، بل بتبعية زيانية للحفصيين مما اضطر أمراء تلمسان لمبايعتهم بطاعة أوامرهم والانصياع لها، وهذا ما يؤكده ابن خلدون في قوله:«أما يغمراسن وبنوه فلم يزالوا آخذين بدعوتهم- للحفصيين-واحدا بعد واحد متجافين عن اللقب أدبا معهم، مجددين البيعة لكل من يتجدد قيامه بالخلافة».[1]

ولم تصلنا إلا ثلاث رسائل كتبها ابن خطاب المرسي أثناء توليه رئاسة ديوان الإنشاء، الأولى عن مؤسس الدولة الزيانية إلى الواثق الحفصي** في السابع محرم سنة(677هـ) ، ويعود سبب هذه البيعة إلى الاضطرابات الداخلية، حيث إن السلطان قد تعرّض للدسائس من لدن صاحب علامته ما اضطره إلى الفرار إلى تلمسان ثم العودة إلى بجاية وتولي الحكم مرة أخرى[2]، وأثناء ذلك بويع من طرف يغمراسن بن زيان، حيث استهل رسالته بحمد الله عز وجل والثناء عليه وشكره، والصلاة على رسوله الكريم، قال:« **الحمد لله الذي تغمدنا بإنعامه المتتابع، وهدانا إلى**

* الحفصيون أو بنو حفص سلالة أمازيغية مصمودية حكمت في تونس وشرق الجزائر وطرابلس من 1229م/1574م ومؤسسها هو أبو زكريا بن عبد الواحد الحفصي. ينظر: الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية (ابن الشماع أبي عبد الله) تحقيق وتقديم: الطاهر بن مُحَمَّد المعموري، الدار العربية للكتاب، تونس، 1984م، ص48 وما بعدها.

[1] تاريخ ابن خلدون (ابن خلدون)، ج7، ص120.

** هو أبو زكريا يحي الواثق بويع بالخلافة ليلة وفاة والده سنة (675هـ)، عرف بسخائه نحو الرعية والاهتمام ببناء المساجد،كما تميز بشخصيته السياسية الضعيفة، ولم تدم ولايته طويلا حيث خلع نفسه وسلم الأمر لعمه المولى أبي إسحاق إبراهيم سنة 678هـ. ينظر: الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية (ابن الشماع)، ص74، 75.

[2] ينظر: الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، (ابن قنفد القسنطيني أبو العباس أحمد بن الخطيب)، تحقيق: مُحَمَّد الشاذلي النيفر وعبد المجيد التركي، الدار التونسية للنشر، تونس، 1968م ، ص 134 وما بعدها.

الصراط المستقيم، بما نصب لنا من الشرائع، ونظم العلم على مقتضى حكمته وتدبيره...نحمده ﷻ على مواهبه التي لا تحصى، ونشكره شكرا يضاعف قسم آلائه كما وعد ونثابر على أدائه كما أمر ووصّى، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة رهينة بالخلاص مرتهنة من اليقين والإخلاص إلى الأمد الأقصى... ونوالي من صلواته أعطرها نفحة وأنورها صفحة على سيدنا مُحَمَّد رسوله الذي قربه واجتباه، وحباه من الأثر حين كرّمه بالاصطفاء واصطفاه للكرامة بما حباه، وأومض به بارق السعادة فصعد البراق به حتى رأى من آيات ربه ما أراه، وبعثه بالحنيفية البيضاء، وأحضى بسعادته اتباعه من قضى له بالإحظاء، فصلى الله عليه وعلى آله الطيبين وأصحابه المنتخبين».[1]

ثم تطرق للحديث عن الإمامة منذ عهد الرسول (ﷺ) والخلفاء الراشدين من بعده، قال:« **أما بعد، فإن الله لسابق حكمته وسابغ نعمته خلق لعباده هذه الدار اختبارا واعتبارا... وبعث فيهم الرسل إلى معرفته هادين، وبعبادته منادين، ليرشدوهم إلى ما يحفظ نظامهم في هذه العمارة، ويصلح معادهم بعد فناء حياتهم المعارة، وخصّنا منهم بمن تأخر بالزمان، وتقدم لديه شرف الحظوة والمكان، سيدنا مُحَمَّد رسوله الذي أيّده بملائكته...وما مضى(ﷺ) حتى أعدّ لخلافته الصدّيق، وأهّله لحمل تلك الأمانة، وكان الخليق لها الحقيق، ...ثم مضى ﷺ حميدا سعيه، سديدا في حياطة الأمة رأيه، فوليها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب–ﷺ–...وقبضه الله تعالى وفتح الأمصار، ولقيت ريح الكفار منه الإعصار، فخلفه ذو النورين أمير المؤمنين عمر بن الخطاب – ﷺ –...فوليها بعده أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ**».[2]

ليعرّج بعد ذلك للحديث عما حل بالمسلمين بعد عهد الخلفاء الراشدين من تشتت أمرهم، وتفرقهم بتعدد المذاهب والفرق الدينية، وغلبة أعدائهم عليهم، وانتشار الفتن فيما بينهم، قال: «... **كثر دعاة الفرق، ودرس الطريق المهيع، فسلك الناس بنيبات الطرق، ومضت الأعصار والطريق تستقيم وتعوج، والفتن تسكن وترتج...وتقلد أمرها متقيدون، وتقيد للعمل**

[1] المغرب والأندلس في القرن السابع/13م–دراسة وتحقيق لديوانيات كتاب فصل الخطاب في ترسيل أبي بكر بن خطاب (أحمد عزاوي)، جمعية الحسن الوزان للمعرفة التاريخية، ربا نيت، الرباط، ط1، 2008م، ص 130.

[2] المصدر نفسه، ص131–133.

بعهدها متقيدون، إلي أن شيب الصريخ، واعتل الصحيح، فأسلموها لذاتها، وعجزوا عن مدافعة أعدائها». [1]

وذكر هذه الأحوال والظروف الصعبة التي مرت بها الأمة الإسلامية هي تمهيد لهذه البيعة التي يرى أنها أعادت المسلمين إلى الطريق الصحيح، ويبين فضلها على العباد، ويؤكد فيها الكاتب على أن المبايَع يسير على نهج الخلفاء الراشدين، قال: «...**من البيعة التي شدّت من ركن الإسلام ما هوى، وكفت أهله من شدائد الأحوال ما دهى، وأعادت رجاءهم بعد الهرم إلى الشباب،... وعمت بخيراتها البشر، ودرت لهم النعماء خلفا، وعقدت بينهم وبين الليالي حلفا، ...وما زالت يرثها كابر عن كابر، وتنتقل من أول على آخر، حتى انتهت إلى من ينهض نهوض سلفه الكريم بعبئها...وهو سيدنا ومولانا الخليفة المنتصر بالله، المنصور بفضل الله، أمير المؤمنين أبو عبد الله بن ساداتنا الأمراء الراشدين».** [2]

ليصل بعد ذلك إلى الغرض المقصود من هذه الرسالة وهو إعلان البيعة للسلطان الحفصي، والتي يرجى منها صلاح الأمة ودوامها، وذلك لا يتحقق إلا بإخلاص النية والوفاء بالعهد والطاعة لولي الأمر، ليختمها بالدعاء له، يقول: «... **ودعا إليها من قبله من الأبناء والقرابة وبني عبد الواد والوزراء، والأعيان والفقهاء، والصدور والصلحاء، فأجابوا جميعا إلى ذلك وأصفقوا عليه فيمن أصفق، ورأوه أوفق لهم من معاشهم ومعادهم وأرفق...على السمع والطاعة في اليسر والعسر، والمنشط* والمكره، والحلو والمر، بيعة صحيحة قرت بها نواظرهم، وأشربت صدق الصفاء في عقدها وقصد الوفاء بعهدها بواطنهم وظواهرهم، أعطوا بها صفقة أيمانهم... معتقدين أن سلامة الأمة واستدامة الأمة، إنما هو باتباع هذه الإمامة... فانصره اللهم نصرا مؤزرا، واجعل نصيبه من عنايتك الكريمة مثمرا موقرا، وعرفه في كل مرام يرومه فتحا مبينا وظفرا ميسرا».** [3]

---

[1] المصدر السابق، ص 133.

[2] المصدر نفسه، ص134.

* المِنشَط: من النشاط وهو الأمر الذي تنشط له وتخف إليه، وتؤثر فعله. لسان العرب، مج7، ص 413.

[3] المغرب والأندلس في القرن السابع (أحمد عزاوي)، ص135.

وهذا هو الجزء المهم في نص البيعة كلها، إذ يشتمل على الأركان التي عقدت بينهم، وهم السلطان الحفصي من جهة والسلطان الزياني وقرابته، وحاشيته من وزراء، وأصحاب الشأن من علماء وفقهاء من جهة أخرى. وتضمن أيضا طريقة تأديتها حيث كانت بواسطة القسم كما هو واضح في عبارة (صفقة أيمانهم)، أما شروطها فكانت على السمع والطاعة في جميع الأحوال والظروف، وأما أهميتها فتكمن في سلامة الأمة من المخاطر التي تحيط بها، ودوام عزها ومجدها.

ومن الأسباب الأخرى الموجبة للبيعة استرجاع الملك بعد ضياعه، ولمثل ذلك كانت بيعة عثمان بن يغمراسن لأبي حفص* بعد استرجاع العرش في تونس من الدعي ابن أبي عمارة**، حيث لم تختلف هذه الرسالة عن سابقتها من حيث الشكل والمضمون، إذ استهلها بحمد الله والثناء عليه والصلاة على رسوله الكريم مسهبا في ذلك، معرجا على ذكر الإمامة بدءا من الرسول الكريم مرورا بعهد الخلفاء الراشدين، مبينا ما آلت إليه أحوال المسلمين بعد انتهاء عهدهم، إلى أن انتهت الخلافة في يد الحفصيين فقاموا بها أحسن قيام، سالكين بذلك نهج الخلفاء الراشدين، ذاكرا بعد ذلك تبعيته وخدمته للحفصيين والدخول تحت جنابهم، قال: « **حتى انتقلت إلى البيت الحفصي الذي سمت في الشرف التالد والطارف معارجه، والتحمت بعمر بن الخطاب–ﷺ– أواصره... وتحققت فيه مخايل الاستقلال بأمر الأمة والاكتفاء بدفع الملة من عقدت يده أزراره، سيدنا أمير المؤمنين أبو حفص، الذي عهدها حين ضيعت الدمم، وقام لنصرها وقد قصرت الأيدي وخمدت الهمم... وكان ممن سبق في هذه الحلبة، وأبدى ما لديه من الحرص على الانتظام في سلكها والرغبة، عثمان بن يغمراسن**».[1]

* هو أبو حفص عمر بن أبي زكريا بويع سنة 683هـ، عرف بعدله وفضله وحسن تدبيره وعفوه، توفي سنة 694هـ. ينظر: الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، (ابن قنفد القسنطيني)، ص 146-148. والأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية، (ابن الشماع)، ص 82،81.

** هو أحمد بن مرزوق بن أبي عمارة من بيوتات بجاية الطارئين عليها من المسيلة، بويع بتونس سنة 681هـ، كان حامل النشأة و كثير التطور، ومن فجوره وتطوره انتسابه إلى غير نسبه، وخطب له بجميع منابر افريقية. حول دولته و عن استرجاع أبي حفص لملكه ينظر: الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية(ابن قنفد القسنطيني)، ص143-145.، و الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية (ابن الشماع)، ص78-80. تاريخ ابن خلدون، ج6، ص442،441.

[1] المغرب والأندلس في القرن السابع (أحمد عزاوي)، ص 148، 149.

ثم ينتقل إلى غرض الرسالة وهو إعلان البيعة التي لم يستثن منها أحدا، فالكل أعلن ولاءه للسلطان، يقول:« **ودعا إليها أبناءه وإخوته وأصهاره وقرابته ووجوه بني عبد الوادي، وصدورهم عند الحضور في النوادي، وخاصتهم وجمهورهم، وكبيرهم وصغيرهم، والملأ المباركين من الفقهاء والوزراء، والزهاد والصلحاء، وسائر الطبقات على اختلاف أعمالهم، وتفاوت أحوالهم...فبايعوه –أيّده الله– كافة على السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره والحلو والمر**».[1]

إن هذا النوع من الرسائل يغلب عليه الطابع الديني، فقد طغى على الرسالتين السابقتين توظيف الألفاظ والمعاني الدينية التي منبعهما القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، فلا تكاد تخلو عبارة من الإشارة إلى ما هو ديني، ومن بين الألفاظ المستخدمة نذكر(الله، التقوى، الظلمات، النور، الملائكة، المسلمون، الهدى، الصلاة، الزكاة، طاعة، اليسر، العسر، الأبرار، الدنيا ، الآخرة...). أما المعاني فهي متعددة منها ما يخص العقيدة كالتوحيد وعدم الشرك بالله، ومنها ما يتعلق بالإمامة كالعدل والطاعة، وجمع شمل المسلمين، وإعلاء كلمة التوحيد، ومحاربة أعداء الدين، أضف إليها الاقتباسات المباشرة وغير المباشرة التي سنتناولها لاحقا في الدراسة الفنية.

ومن أنواع البيعة المتعارف عليها عند الأمة، البيعة بولاية العهد حيث جرت عادة الملوك أن يعيّنوا في حياتهم من يخلفهم من بعدهم على سدة الملك، من أبنائهم أو أبناء عمومتهم ضمانا لبقاء ملكهم واستمرار دولتهم، ولاجتناب التنافس والصراع الذي قد يصل إلى حد التقاتل من أجل الوصول إلى الحكم، «فحقيقة الإمامة النظر في مصالح الأمة لدينهم ودنياهم فهو وليهم والأمين عليهم، ينظر لهم ذلك في حياته، ويتبع ذلك أن ينظر لهم بعد مماته، ويقيم لهم من يتولى أمورهم، كما كان هو يتولاها، ويثقون بنظره لهم في ذلك كما وثقوا به فيما قبل، وهذا الأمر عرف في الشرع بإجماع الأمة على جوازه وانعقاده».[2]

ومن نماذج هذه البيعة ما كتبه عثمان بن يغمراسن إلى الأمير الحفصي أبي مُحَمَّد عبد العزيز يبايعه، إذ بدأها بحمد الله والثناء عليه والصلاة على رسوله، واستثنى فيها ذكر إمامة الرسول الكريم

[1] المصدر السابق، ص150.

[2] مقدمة ابن خلدون (ابن خلدون)، ج1، ص391.

والخلفاء من بعده، لأن المقام يقتضي ذلك فالبيعة بولاية العهد وليست بالخلافة، مشيرا إلى تقليد السلطان أبي إسحاق ابنه ولاية العهد، قال: «...**وكان ممن ولي أمورهم فنظر لهم نظرة الشقيق، وسلك من الاحتياط عليهم وتحسين العاقبة لهم سواء الطريق، مولانا الأمير الأجل أبو إسحاق بن مولانا الأمير الأجل أبي زكريا بن سادتنا وموالينا الأمراء الراشدين أدام الله سعده، وقرن باليمن والتوفيق حله وعقده، فإنه محض لهم نصحه، وعرفهم رشد رأيه في تدبيره وأنجحه، حين وسعهم بنظره الأجمل، وناط أمورهم بمن يتعرفون بركة خلافته في الحال والمستقبل، فقلّد – أسعده الله– عهد إمرته من أبنائه الأمراء الأمجاد من رآه أحق بتقليده، وانعقد الإجماع على أنه أولى باختصاصه لهذه المزية العظيمة وتفرده، مولانا الأعلى المعتمد على الله المعتضد بالله أبا مُحَمَّد عبد العزيز**».[1]

وصرّح بقبوله للعقد المبرم المتفق عليه في شروط المبايعة في شأن ولاية العهد، وأعلن مبايعته لولي العهد، فقال: « **وإن عبد الإمامة الكريمة عثمان بن يغمراسن لما وقف على نص ذلك العهد المحكم، وعقد البيعة المبرم، ورأى ما ألزم من حكمه أهل الغرب والشرق، الداخلين في فريق طاعتها وهو فريق الحق، بادر إلى الدخول تحت حكمه، والاتسام بجميل وسمها، بصدر منشرح، وقلب بتوثيق عقدها وتأكيد عهدها جذلان فرح، مغتبطا بالاعتصام بحبلها، والارتسام في أهلها، فبايعه –أعلى الله أمره– على السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره، وعلى ما بويع عليه رسول الله عليه وسلم، وخلفاؤه الراشدون من بعده، والإمام المهدي –عليه السلام– وطيب ثرى لحده – بيعة تامة عامة متممة الشروط، موثقة الربوط**».[2] ويبدو في هذا النص أن أركان البيعة وطريقتها تختلفان عن الرسالتين السابقتين، حيث أبرمت بين الأمير الحفصي وعثمان بن يغمراسن دون غيره، على خلاف ما جاء في النصين الآخرين، وأما طريقتها فجاءت بواسطة عقد مكتوب يتضمن الشروط السابقة .

وما ننوه به هو أن رسائل البيعة في العهد الزياني أخذت في شكلها وبنائها شكل الخطب المطولة، إذ تستفتح بمقدمات طويلة، فيسهب الكاتب في حمد الله وشكره والامتنان له بجزيل

[1] المغرب والأندلس في القرن السابع، (أحمد عزاوي)، ص 144.

[2] المصدر نفسه، ص145.

نعمائه، والصلاة والسلام على رسوله وبيان فضله على الأمة، ومكانته بين الخلق، والمثير للانتباه ذكر الإمامة منذ عهد النبوة وعهد الخلفاء الراشدين الذين حكموا بكتاب الله وسنة نبيه، ثم ذكر أحوال المسلمين وما آلوا إليه من ضعف وهوان، وتشتت أمرهم وشملهم، وغلبة الأعداء عليهم، والغرض من ذكر كل ذلك هو ربط الماضي بالحاضر، وبيان أحقية الحفصيين في إمامة الناس، ففضلهم على الأمة كفضل الرسول الكريم والخلفاء الراشدين، فهذا النوع من الرسائل وسيلة للتمسك بالدولة وذلك بإبراز مآثرها، ومدى اهتمامها بالرعية، وبيان قوتها وتمسكها بالدين، مع التركيز على ما خص الله القائمين على شؤونها من شرف القيام بأمر الأمة خير قيام، لدفع أعدائها ولنصرة دين الله عز وجل.

وتوثق هذه الرسائل –في مقابل ذلك– جانبا مهما من التاريخ السياسي للدولة الزيانية التي كان سلاطينها يعلنون الولاء والتبعية للدولة الحفصية، هذه التبعية التي قد يرى بعض الدارسين أنها قللت من شأن الدولة وهيبة ملوكها، بل هي على العكس من ذلك تماما، حيث كان السلاطين الزيانيون مستقلين في تسيير شؤون دولتهم، إلا ما تعلّق منها بشؤون الحرب مثلما تدل عليه الرسائل التي سنأتي على ذكرها، وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار عمر الدولة القصير –أنذاك– فإنها كانت بحاجة ماسة إلى هذا التحالف والتقارب مع الحفصيين نظرا للأطماع المرينية التي كانت تهدد كيانها ووجودها، فما هذه التبعية في عهد يغمراسن بن زيان وابنه عثمان إلا فرصة استغلت لأجل تعزيز أركان الدولة وبناء صرحها.

2.3 رسائل تأكيد المودة وتجديد الولاء:

هذا النوع من الرسائل الديوانية يكون متبادلا بين ملوك وسلاطين الدول التي تجمع بينها علاقات صداقة ومودّة لغرض تعزيز الروابط الأخوية بين الدول والممالك، وإذا ما نظرنا في الرسائل الزيانية الموجهة إلى الملوك الحفصيين في هذا الغرض لوجدنا أنها تلي رسائل البيعة وترتبط بها ارتباطا مباشرا، لأنها بمثابة ترسيخ دائم لنص البيعة وتجديد للولاء للمبايع له.

ولعل هذه الرسائل قد فرضتها العلاقات الزيانية مع الحفصيين التي اتسمت في مرحلة متقدمة من عمر الدولة بالاضطرابات والصراعات بسبب ولاء يغمراسن بن زيان للموحدين، حيث ضاعف الخليفة الرشيد الموحدي الاتصال بصاحب تلمسان والإحسان إليه، فحصلت

المودة بينهما، الأمر الذي أدخل الشك والريبة في نفوس الحفصيين بتونس، لكن ذلك لم يدم طويلا فبمجرد استيلاء أبي زكريا الحفصي على تلمسان سنة (640هـ)، وفرار يغمراسن حتى أُعلن عقد الصلح الذي نص على رجوع هذا الأخير إلى المدينة مقابل دعوته لأبي زكرياء على منابر المدينة، لتبدأ مرحلة جديدة في العلاقات بين الدولتين والتي توطدت الصلات الحسنة بينهما حين تمت المصاهرة بين الأمير عثمان بن يغمراسن والأمير الحفصي صاحب بجاية الذي زوجه ابنته.[1]

وما يؤكد هذه العلاقات القائمة بين الدولتين هي المكاتبات التي جرت بينهما، ومنها ثلاث رسائل بعثها يغمراسن بن زيان لأبي إسحاق الحفصي يجامله فيها ويعلن ولاءه له. وقد جاءت على نسق واحد، إذ اتسمت بالإيجاز وعدم الإطالة في المقدمات التي تضمنت ذكر المخاطب، والدعاء له، وذكر المرسل متبوعة بحمد الله والصلاة على رسوله الكريم، أما عرضها فقد احتوى على غرض الرسالة المتمثل في تجديد الولاء للسلطان الحفصي والتأكيد على الانضواء تحت حكمه، والتذكير بفضل الإمارة الحفصية والدعاء للإمارة بالخير والنصر والدوام :«**الحضرة الكريمة حضرة مولانا الأمير الأعلى أبي إسحاق أيّد الله جنودها، وضاعف سعودها، وأباد بسيفها القاصل ورأيها الفاضل من شق عصا طاعتها وتعدى حدودها، مملوك إحسانها، المتشرف بالارتسام في عبدانها، وشاكر نعمة الله التي غمرته بمناتها، ومقبل راحتها، المستمطر غيث الجود من بنانها، يغمراسن بن زيان، سلام كريم يخصها ورحمة الله تعالى وبركاته... وإلى هذا فإن العبد أصدر هذه الخدمة إلى حضرة مولاه –أيّدها الله– سالكا من الانضواء إليها سبيلا تؤديه إلى السعادة، ومقررا من الإخلاص في خدمتها ما يهيئ لها قبول ما يفيض عليها من نيراتها الوقادة...لا جرم أن مملكتها البهية أسمى الممالك علما، وأهماما كرما، وأعلاها همما، وأوفاها ذمما، وأسدها رأيا، وأجدها سعيا... أبقاها الله للدنيا جمالا، وللدين موئلا ومآلا، وللآمال جاها ومالا**».[2]

[1] حول العلاقات التي جمعت الدولة الزيانية بالحفصيين في عهد يغمراسن بن زيان وابنه عثمان، ينظر: الدولة الزيانية في عهد يغمراسن –دراسة تاريخية وحضارية633هـ-681هـ (خالد بلعربي) دار الألمعية للنشر والتوزيع، قسنطينة، الجزائر، ط1، 2001م، ص 135-138. تلمسان في العهد الزياني(عبد العزيز فيلالي) ج1، ص21، 22.

[2] المغرب والأندلس في القرن السابع (أحمد عزاوي)، ص136.

ويجدّد له يغمراسن في رسالة أخرى ولاءه ، ويبين فيها ما يرجى ويأمل من وراء ذلك من أمن وتحقيق للمآرب: « **وإن العبد أصدر خدمته هذه إلى الحضرة العلية أيدها الله مقررا ما لديه من الخدمة لبابها، والتعلق بأسبابها، والانضواء إلى أسباب كنفها المنيع وجنابها ، متيقنا أن خدمتها أمنٌ لمتوليها من النوائب، ويمنٌ من المبادي في أمره والعواقب، وسبب يدني ما تأمن الآمال والمآرب**».[1]

ولم تختلف الرسالة الثالثة عما ذكرناه سابقا، إذ يقرّ صاحب تلمسان بواجب الخدمة لأبي إسحاق داعيا له ولدولته بالنصر المبين: « **وإلى هذا فإن العبد أصدر مخاطبته هذه إلى الباب الكريم بخدمته مقررا، ولعهدها السالف مذكرا، ولحظه منها منميا مثمرا... اللهم أمدّ حضرة مولانا من نصرك العزيز بأقوى معين، وسوغها من موارد الظفر كل صفو معين...اللهم كما مهدت بإيالته البلاد، وشملت بنظرها الصالح المصلح العباد، فزدها علوا وظهورا**».[2]

وبعث عثمان بن يغمراسن خلال توليه ولاية العهد رسالة إلى أبي إسحاق الحفصي يعلن فيها ولاءه له ورضاه عنه: « **فإن العبد وجه مخاطبته هذه إلى الباب الكريم – أيّده الله – لرسم خدمته مقيما، وبشعار العبودية معلما وكفى به وسما وسيما، وما أولى العبد أن يقيم خدمة غدي بها وليدا، ومهدت له كنف الرعاية تمهيدا**».[3]

يتضح أن هذا النوع من الرسائل فرضته بيعة سلاطين تلمسان للحفصيين، فالظروف السياسية المضطربة كانت تقتضي في كل مرة تأكيد هذا الولاء وتجديده مع إعلان الطاعة والخدمة لهم، حتى يأمنوا جانبهم، وحتى لا يدبّ الشك في نفوس من يوالونهم، وهذا أمر طبيعي مادامت البيئة التي نتحدث عنها بيئة اتسمت بالصراعات والانقسامات، فالكل كان يسعى إلى التوسع على حساب الآخر وانتهاز الفرصة المناسبة لذلك. ونحن نرى أن هذه الرسائل كان الغرض منها طمأنة الحفصيين، والتأكيد لهم بالبقاء على العهد الذي بايعوهم عليه من قبل.

---

[1] المصدر السابق، ص138.

[2] المصدر نفسه، ص 139، 140.

[3] الرسالة مؤرخة سنة 681هـ أي قبل إمارة عثمان بن يغمراسن، وأبو إسحاق تنازل عن العرش لابنه أبي فارس في 20 من ذي القعدة سنة (681هـ)، وهو ما يؤكد أن الرسالة بعثها بصفته وليا للعهد وليس كسلطان على تلمسان. ينظر: المغرب والأندلس في القرن السابع، (أحمد عزاوي)، ص141.

واتسمت هذه الرسائل بالإيجاز وعدم الإطالة في مقدماتها ومتنها، وبنيّت على نسق واحد إذ تستفتح بذكر المرسل إليه والمرسل، ومتنها ينطوي على موضوع واحد وهو إعلان الولاء، وتختم بالدعاء، ويغلب عليها حقل التبعية والولاء للسلطان الحفصي، فلا يكاد يخلو أي نص من الألفاظ والعبارات الدالة على ذلك من قبيل (العبد/ العبودية/ الاجتهاد في خدمتها/ الشكر لمنتها/ مقررا الإخلاص/ الإخلاص في خدمتها/ الانضواء إلى كنفها)، كما أنها لا تخلو من المدح الذي يعد سمة بارزة في مثل هذه الأغراض بهدف التأثير في نفس المتلقي، والدعاء للسلطان ودولته بالبقاء ودوام السعد.

وهناك نوع آخر يتضمن الغرض نفسه؛ أي تأكيد المودة فرضته العلاقات السياسية الخارجية للدولة الزيانية لمحاولة تمتين أواصر الأخوة والصداقة مع الدول الأخرى، فبالرغم من العلاقات المتباينة والمضطربة التي نشأت بينها وبين سائر الدول المجاورة لها أو البعيدة عنها، فتارة اتسمت بحالة العداء والاحتقان وتارة أخرى بحالة الود والتقارب، إلا أن دولة بني عبد الواد بنت علاقات متينة مع بعضها في فترة من الفترات، وهذا ما توضحه رسائل المودة والمهاداة التي بين أيدينا، حيث بلغت العلاقات الزيانية مع بلاد الأندلس أوجها مع بداية تأسيسها، وكانت هذه العلاقات قائمة بالدرجة الأولى مع غرناطة في عهد ملوك بني نصر، ومما ساعد على ذلك التشابه الكبير بين المدينتين–تلمسان وغرناطة– من أوجه عديدة، كونهما عاصمتين ازدهرتا في فترة واحدة، إضافة إلى تطلع المرينيين إلى توسيع نفوذهم وسلطتهم على سائر أقطار المغرب الإسلامي، كان له أثر كبير في تقارب ملوك تلمسان وغرناطة في المجال السياسي.[1]

ومن الأسباب التي أسهمت في تقوية العلاقات والروابط بين الدولتين هو حاجة كل طرف إلى الآخر لأجل تقديم المساعدات العسكرية وردّ الأعداء أثناء الحروب، وحماية الطرق والقوافل التجارية وغيرها، ومن نماذج هذا التقارب الرسالة التي بعثها عثمان بن يغمراسن بخط ابن خطاب إلى سلطان غرناطة أبي عبد الله بن الأمير جوابا عن كتاب من طرف هذا الأخير عزّى فيه بوفاة والده الأمير يغمراسن بن زيان، حيث استفتحها مستخدما الألقاب المفخمة التي تليق بمقام الملوك والسلاطين، قال:« **أخونا الذي أبرمنا عقد أخوته في ذات الله أشد الإبرام، وصفيّنا الذي لا**

[1] ينظر: تطور العلاقات بين تلمسان وغرناطة في العصر الوسيط (عبد الحميد حاجيات) عصور الجديدة، عدد خاص بتلمسان عاصمة الثقافة الإسلامية، العدد2، 2011م، ص39.

تحيل صفاءنا له حوادث الأيام، ولا تزال محبتنا فيه تنمي على الاتصال والدوام، الأمير الأجل الأعز الأسنى الأرفع الأسمى الأمجد، الأسعد الأوحد، الأطهر الأشهر الأكبر، الأحفل المظفر الأمضى الأعدل الأفضل، المعظم المؤثر الأخلص الأصفى الأكمل».[1]

وشكره بعد ذلك على تعزيته في وفاة والده وتهنئته له بولاة الإمارة، وأبرز له علاقات الود والمحبة التي تجمع بينهما، وأعلن له قبوله الاعتذار عن تأخر وصول الرسائل: «... **وعزيتم في المولى الوالد المقدس المرحوم ﷺ وجدد الرحمة عليه تعزية مثلكم من الإخوان الذين تلاقت قبل الجسوم قلوبهم، ولم يكن إلا التواخي في ذات الله مطلوبكم...وهنأتم وصل الله سعدكم بها هيأ الله لنا من الخير بأن أحلنا في محل إمارته، وملكنا زمام إيالته وإدارته... ونحن نقابل هذا الميسر من شكر الله تعالى بما نرجو أن يكون قيدا لأنعمه، وكفاء لمننه الجزيلة وكرمه، ولا نشك بحسب علمنا بودادكم الأصفى، وكمالكم الذي أدلته بينة لا تخفى، أنكم تأخذون من أحوالنا بالقسم الأوفر، والحظ الأكبر، بارك الله فيكم من أخ جليل في الأمراء، مساهم لنا في السراء والضراء، أصفى لنا المحبة وأصفيناها له، وطابقت أقواله في الوفاء والكرم أعماله، واعتذرتم بمقتضى الفضل الذي طبعتم على سجيته، وتميزتم بمزيته عن تأخر كتبكم إلينا، وقد تقرر بيننا وبينكم من خلوص السر والجهر ما لا يحتاج معه تكلف العذر، فإنا ننظر إلى كل ما صدر عنكم بعين الرضى، ونقيس مستقبل حالكم في الوفاء على ما تيقنا منه فيما مضى».**[2]

وهناك رسالة في شأن المهاداة وردت في كتاب ابن خطاب في شأن إهداء فرس إلى أمير غرناطة يرجّح أنها من أمير تلمسان عثمان بن يغمراسن، فمن المغرب الأوسط تهدى الخيول إلى الأندلس* ومما جاء فيها: « **ولما كان المصطفى (ﷺ) قد قال – وكفى بقوله دليلا –: (تهادوا تحابوا) فجعل الهدية إلى التحاب في ذاته سبيلا، سلكنا في تأكيد أسباب مصافاتكم على تلك**

[1] المغرب والأندلس في القرن السابع، (أحمد عزاوي)، ص162.

[2] المصدر نفسه، ص 163، 164.

* وردت الرسالة في فصل الخطاب في باب تأكيد المودة والمهادة تحت عنوان " وكتب في إهداء فرس" ولم تشر الرسالة إلى مرسلها ولا إلى المكان الذي أرسلت منه، لكن الراجح أنها أرسلت من تلمسان لأن بلاد المغرب العربي هي التي اشتهرت بتربية الخيول بخاصة تلمسان لا سيما في عهد يغمراسن بن زيان وإهدائها إلى الملوك والسلاطين في بلاد المشرق والأندلس. ينظر تاريخ الدولة الزيانية (مختار حساني)، ج2، ص36، 37.

الطريقة، واحتذينا حذو شريعته الكريمة الأنيقة، فبعثنا إليكم مع فلان موصل هذا إليكم – حفظه الله– من تحف هذا الموضع الذي هو من بلادكم معدود، وإلى حكمكم مردود، طرفا توجه يعثر في ذيول خجله، ويمتد إلى ما يقدر من جميل قبولكم، وتحقيق أمله، ولو أن الهدية تكون على قدر المهدى إليه لقلت لقدركم الجليل الدنيا، ولم نجد نفيسا يليق بتلكم الإمارة العليا، لكن إرضاؤكم يؤمل، وفضلكم هو الذي عليه يعوّل، ونرجو أن جلالكم ينظر إلى النية، لا إلى ذات الهدية».[1]

يتبين من الرسالتين جلاء العلاقات المتينة والروابط الأخويّة التي جمعت بين ملوك تلمسان وملوك بني نصر، فالرسالة الأولى تضمنت في حقيقة الأمر مواضيع متعددة كالشكر والاعتذار وتأكيد المودة، وهي عبارة عن جواب عن رسالة بعثها سلطان غرناطة معزيا صاحب تلمسان بوفاة والده، ومهنئا إياه باعتلاء العرش، فجاءت حافلة بألفاظ المدح والثناء التي توضح علاقة الأخوة والمحبة، ومنها (أخونا، المحبة، مغتبطون، إخاؤكم الكريم، ألّفها الصفاء، صفينا، التواخي، هنأتم، الوفاء، ودادكم الأصفى، أخ جليل)، وقابله عثمان بن يغمراسن بالشكر والتقدير، مؤكدا على أنه يبادله الشعور نفسه، والرسالة الأخرى خير برهان على هذه العلاقات التي جمعت بين الطرفين حين أهدى سلطان تلمسان فرسا لسلطان غرناطة، لأن الهدايا تقوّي المحبة والأخوية بين الطرفين، وحين أكدّ له أن مقامه أسمى وأرفع من الهدية.

كما تطلّع الزيانيون إلى بناء علاقات وطيدة مع سلاطين مصر[2]، وذلك لعدة أسباب أهمها رغبة بني عبد الواد في حصولهم على تأييد المشرق العربي ضد بني مرين، كما أن نظرتهم إلى المماليك كانت نظرة أمل بوصفهم حماة العالم الإسلامي ضد الأخطار التي تهددهم من ناحية المشرق، ولتأمين الطرق نحو بيت الله الحرام لأداء المناسك الدينية وبخاصة الحج، فكتب عبد الرحمن بن أبي موسى بن يغمراسن* إلى السلطان الملك الناصر مُحَمَّد بن قلاوون سنة (725هـ)، يعبّر له

[1] المغرب والأندلس (أحمد عزاوي)، ص166.

[2] حول العلاقات الزيانية المملوكية، ينظر: علاقات المغرب الإسلامي بمصر خلال القرن الثامن الهجري (الحاج عيفة) رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، بوزريعة، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم التاريخ، 2002/2001، ص177-179.

* هو أبو تاشفين الأول عبد الرحمن بن أب حمو موسى الأول تولى الحكم في الفترة الممتدة بين (718هـ) و(737هـ). ينظر ترجمته في بغية الرواد (يحي بن خلدون)، ج1، ص238. تاريخ بني زيان ملوك تلمسان، (التنسي)، ص 139 ومابعدها.

عن حسن النوايا وعلاقات الأخوية التي تجمع بينهما، حيث استهل الرسالة بالألقاب المفخمة المعظمة للسلطان المملوكي، وأتبعها بالدعاء له بما يناسب الحال، وشكره على ما ورد في كتابه من فضل وخير لاسيما دعوته لأداء مناسك الحج، وبعد ذلك بيّن له سبب استياء الزيانيين منهم وهو ميلهم إلى المرينيين: «... **وقد وجب شكركم علينا من كل الجهات، واتصلت المحبة والمودة طول الحياة، غير أن في قلوبنا شيئا من ميلكم إلى غيرنا واستئناسكم، ونحن والحمد لله أعلم الناس بما يجب من حقوق ذلكم المقام الشريف، ولنا القدرة على القيام بواجبكم، والوفاء بكريم حقكم، وليس بيننا وبين بلادكم ما يخشى والحمد لله من كيده، ولا يبالى بهزله ولا جده**».[1]

وأرسل مع رسالته هذه المكتوبة، رسالة أخرى شفاهية يلقيها عليه الشيخ أبو زكريا يحي بن أبي عبد الله مُحَمَّد بن جرار الوادي، يقر فيها بعلاقات الود والأخوة، ويعرّفه بما يوجد في تلمسان حتى يقدّمه له كهدية: « **وقد توجه إلى بابكم الشريف قرابتنا الشيخ الصالح الحسيب الأورع الأكمل الأزهد أبو زكريا يحيى...وقد شافهناه بما يلقيه إلى ذلكم المقام الشريف من تقرير الود والإخاء، والمحبة والصفاء، مما يعجز عنه الكتاب فالمقام الشريف يثق إلى قوله ويعامله بما يليق ببيته ودينه. وغرضنا أن تعرفوه بجميع ما يصلح لذلكم المقام الشريف مما في بلادنا، ويصلكم إن شاء الله في أقرب الأوقات، على أحسن الحالات**».[2]

توضح الرسالة حرص بني عبد الواد على بناء علاقات متينة وودية مع سلاطين مصر، إلا أن العائق الذي كان يحول دون استمرارها هو ميل المماليك إلى بني مرين، والسبب في ذلك أنهم كانوا يدركون أن المرينيين هم أضخم قوة في بلاد المغرب الإسلامي، فأظهروا الود نحوهم، الأمر الذي أغضب الزيانيين في فترة من الفترات، ولعل رسالة اللوم والعتاب التي سيأتي ذكرها خير دليل على ذلك، إلا أن الروابط بين مصر وتلمسان كانت ودية وأخوية في أغلب الأحيان، حيث تشير المصادر إلى تبادل الهدايا والرسائل بين الطرفين في العديد من المرات. وهذه الرسالة تثبت صحة ذلك من خلال العرض المقدم من سلطان مصر لصاحب تلمسان الذي دعاه إلى تأدية مناسك

[1] صبح الأعشى، (القلقشندي)، ج8، ص86.
[2] المصدر نفسه، ج8، ص86، 87.

الحج، الأمر الذي قابله بالشكر والامتنان، بالرغم من انزعاج بني عبد الواد من المماليك بسبب تحالفهم مع أعدائهم المرينيين، أما في شأن الهدايا فلا توضح هذه الرسالة نوعية الهدايا المرسلة، بل يعرض عبد الرحمن بن يغمراسن عليه أن يختار مما يوجد في تلمسان ويحتاج إليه الناصر حتى يبعثه إليه على شكل هدية تعبيرا منه عن حسن النوايا.

وكل ما جاء في الرسالة يوحي بالروابط المتينة التي يسعى كل طرف إلى بلوغها، فبالعودة إلى نص الخطاب يتبين أن شكله يدل على ذلك بدء من الألقاب المعظمة التي استخدمها الكاتب مثل: الحضرة العالية السامية، ناصر الإسلام، الأرفع، الأمجد، مُعلي كلمة الموحدين... وغيرها، بالإضافة إلى الجمل الدعائية التي تكشف عن نية صادقة نابعة من الأخوة الدينية في قوله: «**أدام الله علوّ قدره في الدنيا والآخرة، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة، وجعل وجوه محاسنهم في صفحات الدهر سارَّة سافرة، وصفقة أعدائهم خاسرة خائبة**».[1] كما لم تخل الرسالة من الألفاظ الدالة والموحية بالود والأخوة، مثل: أخيكم، البر بكم، تصافيكم، الود، الإخاء، المحبة، الصفاء.

وفي المرحلة الأخيرة التي عاشتها الدولة الزيانية، والتي انتهت بخلع الدولة العثمانية للسلطان مولاي الحسن بسبب ميله إلى الإسبان سنة (962هـ/ 1554م)، ألحقت تلمسان بالجزائر العاصمة مباشرة، وكان ذلك إيذانا بنهاية دولة عمّرت ثلاثة قرون وثمانية عشر عاما.[2] وأهم ما ميز هذه المرحلة ذهاب هيبة السلاطين الزيانيين، وانتشار الفوضى، وتمرد الولاة ورؤساء القبائل وعمال الجهات وقادة الجيش، حيث «نشب الخلاف بينهم حول العرش فانقسموا إلى طامع في الملك ومعارض له»[3]، الأمر الذي زاد من أطماع الإسبان والبرتغال في احتلال هذه المنطقة، فقاموا بعدة محاولات وأغاروا على السواحل الغربية للمغرب الأوسط فأصبح الزيانيون بين نارين، الصليبيون من جهة والعثمانيون من جهة أخرى.

---

[1] المصدر السابق، ج8، ص85.

[2] المراحل والأدوار التاريخية لدولة بني عبد الواد الزيانية (يحي بوعزيز) مجلة الأصالة، مطبعة البعث، قسنطينة، وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، الجزائر، العدد26، 1975م، ص 27.

[3] نهاية دولة بني زيان(مولاي بالحميسي) مجلة الأصالة، مطبعة البعث، قسنطينة، وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، الجزائر، العدد 26، 1975م، ص 31.

ومن الرسائل التي واكبت هذه الأحداث الرسالة التي بعثها السلطان أبو عبد الله مُحَمَّد السابع* سنة (939هـ) إلى إمبراطورة إسبانيا أنداك (دونيا إيزابيلا)، والتي تحمل في طياتها غرض تأكيد المودة وتعزيز أواصر الصداقة، فبعد أن استفتحها بحمد الله، وتمجيد المخاطب ومدحه والدعاء له، أعلن فيها انضواءه تحت مظلة الإسبان، وأكد رغبته في بناء علاقات ودية بين الطرفين في قوله: « **وعلمنا بمجدكم الشهير، وقدركم الخطير، يستدعي الزيادة من ذلك ويقتضيها، وإلى هذا فموجب كتبنا إليكم، هو إعلامنا وإياكم بما نحن عليه من الوفاء القديم، والتمادي من الأسباب المرعية على المنهج القويم... فإن نيتنا في ودكم ما زالت، وأغراضنا جارية على ما يليق بنا وبكم وما تبدلت ولا حالت**».[1]

وأعلن في مقابل ذلك معاداته لصاحب الجزائر وطلب مساعدة الإسبان في محاربته، وذلك بمدّ يد العون له، فالظاهر أن الزيانيين لم يقووا على مجابهته نظرا لقوة العثمانيين مما اضطرهم إلى الاستنجاد بالصليبيين: «**بل في صحيح علمكم ما هو حالنا عليه من نكاية صاحب الجزائر وما هو يرومه من تشغيبنا في الباطن والظاهر، فعلنا ذلك طمعا منا في مهادنته، وحيلة لجلب محاسنته. لما أعيانا أمره واشتد تنكيره وضره، أظهرنا له ما كنا نخفيه من عداوته، وقابلناه بما يليق بفساد بيته، وخبث سريرته. . . وقد توفر الآن عزمنا في إعمال الحركة عليه، والتوجه بكل وجه يمكن إليه، فجميع العرب، والقبائل على حربه متفقون، وإلى تضييق حصاره شارعون، وغرضنا منكم، أن تبادلوا بتوجيه العمارة في الحين والوقت، بالجد والعزم، وتجتهدوا في ذلك غاية الاجتهاد، والأخذ بالحزم، وتكونوا عليه برا وبحرا يدا واحدة**».[2]

إن هذه الرسالة تختلف عن الرسائل السابقة في كونها موجهة إلى الصليبيين وليس إلى المسلمين، هذا من ناحية، أما من ناحية أخرى فإن مصلحة الزيانيين وخوفهم من العثمانيين هي التي فرضت إقامة هذه العلاقة، والرغبة في التحالف مع الغرب، فهي تبرز في الوقت نفسه

* هو أبو عبد الله مُحَمَّد السابع بن أبي مُحَمَّد عبد الله الثاني ابن أبي ثابت الثاني تولى الحكم في فترتين الأولى من (930هـ) إلى (949هـ). والثانية سنة (950هـ)، عرفت دولته أنداك بالضعف والتبعية للإسبان. ينظر أدباء وشعراء من تلمسان، ص 341 .

[1] تاريخ الجزائر العام (عبد الرحمن الجيلالي) ج2، ص225.

[2] المرجع نفسه، ج2، ص 226.

العلاقات الزيانية الإسبانية، حيث حملت في طياتها مواضيع متعددة أهمها ولاء السلطان الزياني لملك إسبانيا بهدف الاحتماء تحت مظلته العسكرية من خطر العثمانيين المحدق به، وإرسال مبعوث زياني لغرض تجديد العهد بين الدولتين. كما تتجلى فيها العلاقات الزيانية مع صاحب الجزائر التي اتسمت بالعداوة، إذ أعلن السلطان الزياني صراحة معاداته، وطلب من الإسبان إرسال معونة عسكرية بغرض الإغارة عليه، هذا ما يؤكد لنا الحالة السياسية المضطربة التي مرت بها الدولة الزيانية في أواخر عهدها بسبب الخطر الذي كان يترصد سواحلها من قبل الإسبان، والأطماع العثمانية في السيطرة على تلمسان.

ونستشف من هذه الرسالة نموذجا من فنون النثر الأدبي، والتي تميط اللثام عن المستوى الذي بلغه فن الرسائل الديوانية في هذه المرحلة المتأخرة، فلو قورنت هذه الرسالة بالرسائل التي بعثها الزيانيون إلى ملوك أراغونة في النصف الأول من القرن الثامن الهجري لوجدنا بينهما اختلافا بينا من حيث اللغة والأسلوب، وإن اختلفت في طريقة استفتاحها، فهذه الرسالة أكثر فصاحة وبلاغة، إذ بالرغم من حالة الضعف والهوان التي شهدتها تلمسان، إلا أن فن الرسائل بقي يراوح مكانه، ولعل هذا يعود إلى العناية التي أولاها السلاطين بصاحب ديوان الإنشاء.

3.3 رسائل اللوم والعتاب:

لقد ذكرنا سابقا أن العلاقات الزيانية مع دولة المماليك عرفت تباينا في فترات متعددة، فقد اتسمت في الغالب بالود والأخوة، إلا أن هناك رسالة في غرض اللوم والعتاب بعثها السلطان أبو حمو موسى الأول* إلى السلطان الناصر مُحَمَّد بن قلاوون** تبين حالة الفتور التي ميزت العلاقات الثنائية بينهما، وقد جاءت جوابا على كتاب وصله من هذا الأخير يعاتبه ويلومه على نهب بعض الأمراء وهم عائدون إلى الديار المصرية انطلاقا من بلاد المغرب الأقصى سنة (707هـ)، حيث مرا بتلمسان وطلبا من صاحبها خفيرا يخفرهما إلى تخوم الدولة الزيانية شرقا، بسبب اضطراب المسالك

* حكم أبو حمو موسى الأول من (707هـ/1307م) حتى(718هـ/1918م) وكان حازما في سياسته الداخلية والخارجية واستطاع إخضاع عدة أقاليم من المغرب الأوسط. ينظر بغية الرواد (يحيى بن خلدون)، ج1،ص235-237.

** هو تاسع ملوك البحرية ويعد عهده الأوج في الحكم المملوكي بمصر، وكانت فترة حكمه الأطول بين سلاطين المماليك حيث امتدت بين(693هـ/1295م) حتى وفاته سنة (741هـ/1341م)، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار والمعروف بالخطط المقريزية (تقي الدين المقريزي) ،مكتبة الثقافة الدينية ،القاهرة ، ط2، 1978م، ج2، ص239-240.

في المغرب الأوسط، فبعث معهما بعض الأعراب لحراستهم، لكن اعترضهم قطاع طرق وقاموا بنهب ممتلكاتهم، وساد الاعتقاد أن عملية النهب قد تمت بتدبير من السلطان أبي حمو. وأرفق السلطان المملوكي رسالته بهدية تتمثل في كوبين من دهن البلسان، وخمسة مماليك من الترك رماة بخمسة أقواس من قسي الغز المؤنقة الصنعة من العرى والعقب، فغضب السلطان الزياني لذلك.[1]

وهو الأمر الذي اعتبره أبو حمو موسى الأول إهانة له فأمر كاتبه القاضي مُحَمَّد بن هدية بكتابة رسالة يرد فيها عليه، ونصّها: « **أما عتابك عن شأن الرسل وما أصابهم في طريقهم فقد حضروا عندي وأبنت لهم الاستعجال حذرا مما أصابهم، وأريتهم مخاوف بلادنا وما فيها من غوائل الأعراب، فكان جوابهم أنا جئنا من عند ملك المغرب فكيف نخاف مغترين بشأنهم يحسبون أن أمره نافذ في أعراب قبائلنا. وأما الهدية فترد عليك، أما دهن البلسان فنحن قوم بادية لا نعرف إلا الزيت وحسبنا به دهنا. وأما المماليك الرماة فقد افتتحنا بهم إشبيلية وصرفناهم إليك لتستفتح بهم بغداد والسلام**».[2]

لقد خلت هذه الرسالة في بنائها من المقدمة عكس ما يقتضيه شكل ونمط المراسلات الديوانية بين الملوك من ذكر المرسل (السطان الزياني) والمرسل إليه (السلطان المصري)، وتعظيمه وتبجيله بذكر الألفاظ المفخمة والمعظمة لقدره ومكانته، والدعاء له بأحسن الدعاء، والصلاة على الرسول (ﷺ)، فالمتعارف عليه عند مخاطبة الملوك استخدام صيغة الجمع تعظيما لهم بدل صيغة المخاطب المفرد، وهذه الرسالة خلت من كل ذلك وهو ما يتضح في ألفاظ: (عتابك، عليك، إليك)، ووردت على عكس ما ذكره القلقشندي على أنه جرت العادة أن تكون المكاتبات الواردة من ملوك تلمسان على صاحب الديار المصرية: «أن يبدأ الكاتب بقوله: إلى الحضرة الفلانية حضرة فلان، بالألقاب المعظمة المفخمة ثم يدعى له بما يناسب الحال، ويؤتى بخطبة ثم بالسلام، ويقع الخطاب في أثناء الكتاب بالإخاء بلفظ الجمع، ويختم بالدعاء المناسب».[3] فخلو هذه الرسالة من جميع هذه العناصر، والاكتفاء بنص موجز هو في حد ذاته إهانة للطرف المرسل إليه، ويوحي هذا الإيجاز بموضوع الرسالة كونها جاءت للرد على السلطان المملوكي، فمن دون

[1] حول هذه الحادثة ينظر: تاريخ ابن خلدون، (ابن خلدون)، ج7، ص300.

[2] المصدر نفسه، ج7، ص300-301.

[3] صبح الأعشى، ج8، ص84.

مقدمات استهل خطابه بالغرض مباشرة وهو الرد على الاتهامات الموجهة لصاحب تلمسان، وتبيان حقيقة الأمر حيث جاء في مضمونها أن الأمراء مرّوا به وحذرهم من قطّاع الطرق وطلب منهم التريث وعدم الاستعجال في السفر، لكنهم لم يكثروا لتحديره وقرروا مواصلة المسير.

والانزعاج باد من بني عبد الواد فيما يتعلق بموقف المماليك الموالي لأعدائهم من بني مرين، ومما زاد من هذا الاستياء هو أخذ الأمراء المماليك برأي صاحب المغرب الذي كان يعتقد أن أمره نافد في القبائل التي تقع تحت سلطة الدولة الزيانية بدل الأخذ برأي أبي حمو موسى الأول. ومما زاد من حدة هذا الاحتقان بين الطرفين هو الشعور بالإهانة والاحتقار بسبب الهدية المرسلة، فتجلى في الخطاب قوة الرد بشأنها، إذ رفضها وردّها عليه ولم يكتف بذلك بل سخر من سلطان مصر بشأن دهن البلسان في قوله: «وحسبنا به دهنا»، وكذلك بشأن المماليك في قوله: «وأما المماليك الرماة فقد افتتحنا بهم إشبيلية وصرفناهم إليك لتستفتح بهم بغداد».

وهذا الخطاب جاء بألفاظ وعبارات سهلة واضحة تخلو من أي غموض، وبأسلوب مباشر لا تعقيد فيه ولا يقبل التأويل، خال من أي زخرفة لفظية أو تصوير فني، فالكاتب لم يوظف المحسنات البديعية التي اعتاد الكتّاب على استخدامها في رسائلهم كالجناس والسجع والطباق وغيرها، والصور البيانية من تشبيهات واستعارات وكنايات، فكان الهدف من الرسالة هو إيصال الفكرة والمضمون لا التعبير عن المشاعر والأحاسيس.

4.3 الاستدعاء للحجابة:

يندرج هذا النوع من الرسائل ضمن الرسائل الصادرة عن جهة سياسية إلى الأعيان أصحاب الشأن في المجتمع من علماء وفقهاء وكتّاب وقضاة وغيرهم، لغرض عرض مهمة معينة يؤدونها للسلطان، وبما أن سلاطين الدولة الزيانية قد اهتموا بكاتب الديوان وتخيروا من بين الكتّاب أفضلهم مكانة وشأنا، ففي العهد الذهبي للدولة الزيانية بلغت الحياة الفكرية مرحلة متقدمة من التطور، والفضل في ذلك يعود لمحيي الدولة الزيانية أبي حمو موسى الثاني الذي عُرف إضافة إلى عدله وحكمته وسياسته الرشيدة بميوله الأدبي بخاصة الشعر، فله ديوان يضم أغراضا عديدة أهمها الشعر السياسي وشعر المدائح النبوية الذي يعرف أيضا بشعر المولديات، وفي النثر له كتاب سماه (واسطة السلوك في سياسة الملوك) ألّفه سنة (765هـ) يخاطب فيه ابنه

أبا تاشفين، واعظا إياه ومقدما له نصائح وتوجيهات تعينه في حياته السياسية، ويدعوه إلى التمسك بالأخلاق الحميدة والصفات النبيلة حيث «جمع فيه الكثير من أخبار الملوك وسيرهم... فجاء مجموعا يستظرف من مثله، ويدل على مكانه من الأدب ومحله، وثبت فيه الكثير من شعره».[1]

كما عرف بعنايته بالعلماء فكان ينزلهم المنزلة التي تليق بهم، وفي ذلك يقول التنسي: « أما اعتناؤه بالعلم وأهله فأمر يقصر اللسان عن الإجابة به، وفي دولته كان الإمام المتفنن البحر، الحبر، شريف العلماء وعالم الشرفاء، أبو عبد الله مُحَمَّد بن أحمد بن علي بن يحيى بن مُحَمَّد بن القاسم بن حمو*...فكان له محبا ومعظما وبه حفيا ومكرما، إذ كان واحد عصره دينا وعلما ونقلا وعقلا،... وله بنى مدرسته الكريمة».[2]

ومن النصوص الأدبية التي تثبت عنايته بأهل العلم الرسالتان اللتان بعثهما إلى العلامة ابن خلدون يستدعيه للحجابة ومنصب العلامة، فالأولى قد خطها بيده ونصها :« **الحمد لله على ما أنعم، والشكر لله على ما وهب، ليعلم الفقيه المكرم أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون، حفظه الله، على أنك تصل إلى مقامنا الكريم، لما اختصصناكم به من الرتبة المنيعة، والمنزلة الرفيعة، وهو قلم خلافتنا، والانضمام في سلك أوليائنا، أعلمناكم بذلك. وكتب بخط يده عبد الله المتوكل على الله موسى بن يوسف لطف الله به وخار له**».[3]

أما الرسالة الأخرى فقد جاءت بخط كاتبه يوم السابع عشر من عام تسعة وستين وسبعمائة ونصها:« **أكرمكم الله يا فقيه أبا زيد، ووالي رعايتكم، إنا قد ثبت عندنا، وصح**

[1] الإحاطة في أخبار غرناطة (لسان الدين بن الخطيب)، ج3، ص288.

* نشأ بتلمسان وأخذ العلم عن مشايخها ومنهم ابنا الإمام والآبلي، هو فارس المعقول والمنقول صاحب الفروع والأصول أدناه أبو حمو موسى الزياني الثاني من مجلسه، وأصهره في ابنته، وبنى له مدرسة يدرس فيها العلم إلى أن توفي سنة(171هـ). ينظر البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان (ابن مريم التلمساني) مراجعة: مُحَمَّد بن أبي شنب، المطبعة الثعالبية، الجزائر، 1908م، ص 164-166. بغية الرواد، (يحي بن خلدون)، ج1،ص 158.

[2] تاريخ بني زيان ملوك تلمسان، (مُحَمَّد التنسي)، ص 179.

[3] التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا (عبد الرحمن بن خلدون)، دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، بيروت، 1979م ص110.

لدينا ما انطويتم عليه من المحبة في مقامنا، والانقطاع إلى جانبنا، والتشيع قديما وحديثا لنا، مع ما نعلمه من محاسن اشتملت عليها أوصافكم، ومعارف فقتم فيها نظراءكم، ورسوخ قدم في الفنون العلمية والآداب العربية. وكانت خطة الحجابة ببابنا العلي–أسماه الله– أكبر درجات أمثالكم، وأرفع الخطط لنظرائكم، قربا منا، واختصاصا بمقامنا، واطلاعا على خفايا أسرارنا. آثرناكم بها إيثارا، وقدمناكم لها اصطفاء واختيارا، فاعملوا على الوصل إلى بابنا العلي، أسماه الله، لما لكم فيه من التنويه، والقدر النبيه، حجابا لعلي بابنا، ومستودعا لأسرارنا، وصاحب الكريمة علامتنا، إلى ما يشاكل ذلك من الإنعام العميم، والخير الجسيم، والاعتناء و التكريم. لا يشارككم مشارك في ذلك ولا يزاحمكم أحد، وإن وجد من أمثالك فأعلموه، وعولوا عليه، والله تعالى يتولاكم، ويصل سراءكم، ويوالي احتفاءكم. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».[1]

يتجلى في الرسالتين المكانة المرموقة التي وصل إليها ابن خلدون في زمانه، والاهتمام الذي حظي به من لدن ملوك وسلاطين المغرب العربي بعامة، لاسيما في المدن والحواضر التي نزل بها كتونس، وبجاية، وفاس، وتلمسان وغيرها، كيف لا وهو أشهر علماء عصره من دون منازع، ويبدو أن ابن خلدون كان مطلوبا في البلاط الزياني، فقد أشار إلى أنه حين أراد الانتقال من المغرب الأقصى إلى تونس مُنع خوف الإقامة عند السلطان الزياني، فاشترط عليه العدول عن تلمسان[2]. ولعل هذا يعود إلى المكانة التي حظي بها ابن خلدون عند القبائل العربية فقد ذكر أن سبب استدعائه من قبل أبي حمو كان لقرب عهده ومنزلته عند قبائل رياح لغرض مد يد العون له في الاستيلاء على بجاية، فرأى أن يعوّل عليه إلا أنه اعتذر وأرسل أخاه يحيى نائبا عنه.[3] لذلك نجد أن الرسالتين تحملان دعوة صريحة ومباشرة من قبل السلطان الزياني إلى العلامة والفقيه عبد الرحمن بن خلدون لمنصب الحجابة، وذلك لما يشتمل عليه من خصال ومؤهلات، وتمكنه من العلوم والمعارف المختلفة ترشحه دون غيره للمنصب لأنه كان ذا خبرة واسعة في هذا المجال لشغله منصب العلامة من قبل بتونس ثم بالمغرب في عهد السلطان أبي عنان.

[1] المصدر السابق، ص 110-111.

[2] ينظر: تاريخ ابن خلدون، (ابن خلدون)، ج7، ص546، 547.

[3] ينظر: المصدر نفسه، ج7، ص562، 563.

هذا فيما يتعلق بالموضوع الذي احتوت عليه الرسالتان، أما من ناحية الأسلوب فقد اتسمتا بوضوح الفكرة مع الإيجاز في العبارات، لأن الخطاب كان موجها من مقام أعلى هو السلطان إلى مقام أدنى منزلة منه، إذ لا يتطلب المقدمات المطولة والألقاب المفخمة والإسهاب في المدح كما جرت عليه العادة في الرسائل الديوانية بين الملوك، فجاءت خالية من الصياغة الشعرية والفنون البديعية كالسجع والجناس والطباق، ومن الصور والألوان البيانية، لأن التركيز فيها جاء منصبا على الفكرة في المقام الأول.

وطبيعة الخطاب الموجه بصفة رسمية من السلطان إلى العلاّمة ابن خلدون للعمل في منصب الحجابة تقتضي توظيف العبارات المتضمنة معاني التقدير، والتنويه والرفع من قيمة المرسل إليه العلمية والأدبية، والتودد إليه وتشجيعه على قبول الطلب، وهو ما تجسد بتوظيف ضمير الجمع المخاطب بدل ضمير المفرد مثلما ورد في سياق العبارات الآتية: (**لما اختصصناكم به من الرتبة المنيعة/ محاسن اشتملت عليها أوصافكم/ معارف فقتم فيها نظراءكم/ أكبر درجات أمثالكم**)، وفي مقابل ذلك لم يخل الخطاب من ذكر مكانة المرسِل (السلطان) كما هو معروف في المكاتبات الرسمية التي كانت تصدر عن السلاطين الزيانيين في قوله: (مقامنا الكريم، بابنا العلي، واختصاصا بمقامنا).

والرسالة الثانية ختمت بمجموعة من المعاني التي تدل على المكانة المرموقة، والمرتبة الرفيعة التي حظي بها العلماء والفقهاء في هذا العصر من أمثال عبد الرحمن بن خلدون وغيرهم من الذين اشتغلوا في مناصب سياسية مرموقة بإغداق المال عليهم والرفع من شأنهم من لدن السلاطين والأمراء الزيايين، ويتجلى ذلك في قوله: « **إلى ما يشاكل ذلك من الإنعام العميم، والخير الجسيم، والاعتناء والتكريم. لا يشارككم مشارك في ذلك ولا يزاحمكم أحد**».[1] فهذا نوع من الإغراء المادي الذي يصاحب العرض المقدم لهذه القامة العلمية، قبل أن ينهي نصه بالدعاء الذي غرضه التأثير الإيجابي في نفسية المرسل إليه، وترغيبه في المهمة التي استدعي لأجلها.

[1] التعريف بابن خلدون (ابن خلدون)، ص111.

5.3 رسائل المعاهدات والعلاقات التجارية:

لم تنحصر مواضيع الرسائل الديوانية في الأمور السياسية فقط، بل تعدتها إلى قضايا أخرى متعلقة بالجانبين الأمني والاقتصادي للدولة الزيانية التي لم تكتف بإنشاء علاقات مع الدول المجاورة لها أو مع الدول المسلمة وحسب، بل تعدت هذه العلاقات حدود الجغرافيا ومسألة الانتماء والهوية، وراحت تلمسان تعقد معاهدات واتفاقيات مع دول صليبية، وتعمل على بناء علاقات متينة معها بدافع المصلحة الاقتصادية والسياسية، إذ تأكد الدراسات التاريخية التي اهتمت بهذا الجانب على أن هناك علاقات نشأت بين الزيانيين والدول الأجنبية وبخاصة الصليبية منها، فكانت مملكة أرغونة* الإسبانية من بين تلك الممالك التي سعوا إلى التقرب منها ومحاولة عقد اتفاقيات تجارية معها، وما الرسائل المتبادبة بين الطرفين إلا خير دليل على ذلك.

وهذه الرسائل التي بعثها السلاطين الزيانيون إلى ملوك أراغونة ظلت محفوظة في الأرشيف الأراغوني إلى يومنا هذا، وقد تضمنت في أغلبها محاولات صلح متكررة بين الطرفين لغرض إتمام بنود اتفاقية تجارية واقتصادية تخدم المصالح المشتركة لكل دولة، حيث سعى الأراغونيون إلى دخول سوق تلمسان لما يمكن أن تدره عليهم من فوائد جراء المتاجرة في السلع المحلية والمستوردة، وكونها منطقة عبور للعديد من السلع بخاصة الذهب السوداني، ولتحقيق ذلك عمدوا إلى السيطرة على الطرق التجارية البحرية، كل ذلك لن يكون إلا عن طريق التخلي على السياسة العدائية اتجاه الزيانيين، وانتهاج سياسة السلم، وفي مقابل ذلك لم تكن الدولة الزيانية بحاجة إلى مزيد من الصراعات فيكفيها شر وكيد المرينيين والحفصيين.

فسعى بنو عبد الواد إلى توطيد العلاقات الثنائية مع مملكة أراغونة حفاظا على مصالحهم التجارية، والاقتصادية، لأن أهل الذمة كان لهم دور كبير في إنعاش الحياة الاقتصادية بتلمسان، حيث مارسوا العديد من الحرف والمهن والنشاطات الزراعية، والاقتصادية، والصناعات المختلفة،

* تقع أراغونة شمال شرق إسبانيا وعاصمتها سرقوسة، فتحها المسلمون سنة (69هـ/714م)، ثم صارت كونية تابعة لنفار في القرن التاسع الميلادي، وصارت مملكة سنة (426هـ/1034م)، وتوسعت بعد ذلك لتضم بلنسية وسردينية وكورسكا وجزر البليار وبيربينيون وروسيليون. ينظر التجارة الخارجية لتلمسان في عهد الإمارة الزيانية–من القرن السابع إلى القرن العاشر الهجريين– (بشاري لطيفة) رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، معهد التاريخ، السنة الجامعية: 1987/1986م، ص173.

ولم يكن من الممكن أن تتخلى عنهم، فوضع لأجل ذلك سفارات، وأبرمت اتفاقيات ومعاهدات بين الطرفين،[1] وهو ما يتضح لنا في المراسلات التي حصلت بينهما في هذا الشأن.

وأولى هذه الرسائل تلك التي بعث بها الوزير الزياني هلال بن عبد الله القطلاني*، إلى (جاقمو) ملك أراغون بتاريخ أول صفر من سنة (723هـ)، إذ استفتحه بألفاظ التقدير والثناء عل الملك، ثم أخبره بتلقي كتابه الذي طلب فيه إطلاق سراح أربعة وعشرين نصرانيا الذين تم أسرهم، قال :«... **وموجبه إليكم إعلامكم بوصول كتابكم وعلمنا ما ذكرتم فيه، وأنتم تطلبون منا أربعة وعشرين نصرانيا متاع (جوان منوال) ونحن نعرفكم أنكم إذا أردتم صلح مولانا أيّده الله فنحن نعطيكم الأربعة وعشرين نصرانيا الذين طلبتم متاع جوان منوال ونعطيكم أيضا زيادة عليهم ثلاثين نصرانيا من بلادكم من الذي نعطيكم نحن باختيارنا دون أن تعيّنوا لنا أنتم أحدا**».[2] حيث يوافق السلطان على تسليمه الأسرى التابعين للتاجر القطلاني (خوان منوال) على أن يزيده ثلاثين أسيرا من اختياره، لكن بشرط عقد الصلح قبل كل شيء، الأمر الذي يفهم منه شدة وصلابة صاحب تلمسان في التعامل مع ملك أراغون حين رفض عرضه وتعيينه للأسرى.

وأعلن السلطان الزياني مستخدما لغة الترغيب لا التهديد، استعداده لتقديم سلف له من الذهب بشرط تقديم الرهن الضروري والضمانات الكافية، وإن لم يوافق على شروطه فكل حر في تصرفه :« **وإن أردتم سلف ذهب فنسلف لكم ما تيسر لنا بعد أن تعطونا الضمان والرهان في الذهب، وإن أنتم لم تعملوا ما ذكرناه لكم، ولم توافقوا عليه فما بيننا كلام**».[3]

---

[1] حول العلاقات الاقتصادية والمبادلات التجارية، والطرق البحرية الخاصة بذلك بين الدولتين، ودور أهل الذمة في تلمسان ينظر: أهل الذمة في الدولة الزيانية 633هـ-962هـ (عبد الصمد حمزة) رسالة دكتوراه، جامعة وهران، كلية العلوم الإنسانية والإسلامية، قسم الحضارة الإسلامية، 2017/2016، ص 80 ومابعدها. وينظر العلاقة التجارية بين إمارة بني عبد الواد ومملكة أراغونة (بشاري لطيفة) مجلة الاتحاد العام للآثاريين العرب، عدد12، مج 12، ديسمبر 2011م، ص94- 109.

* هو من سبي النصارى أهداه السلطان ابن الأحمر إلى عثمان بن يغمراسن، الذي أهداه بدوره إلى ابنه أبي حمو الذي خص به ولده أبا تاشفين، وهو الذي زين لأبي تاشفين قتل والده والاستيلاء على الملك، وكان له نفود كبير في العرش الزياني حتى صار وزيرا. ينظر: تاريخ ابن خلدون، (ابن خلدون)، ج7، ص140.

[2] علاقة إسبانيا القطلانية بتلمسان- في الثلثين الأول والثاني من القرن الرابع عشر ميلادي-(عمر سعيدان) منشورات سعيدان، سوسة، تونس، 2002م، ص65، 66.

[3] المصدر نفسه، ص66، 67.

والملاحظ على هذا الخطاب الموجه إلى ملك أراغون توظيف الكاتب للغة السهلة البسيطة القريبة من لغة العامة، الخالية من كل زخرفة فنية، أو تنميق لفظي، وبأسلوب مباشر، معتمدا وضوح الألفاظ والمعاني والأفكار، ولعل السبب في ذلك هو مراعاة المخاطب الذي لا يفهم المقصود منها، فغالبا ما يبعث مع هذه الكتب ترجمان يكشف عن مضمونها، وكذلك طبيعة الرسالة ومضمونها لا يفرض أسلوبا أدبيا راقيا، فالمقام مقام اتفاق وتفاوض، لا مقام تعبير عن الأحاسيس والمشاعر.

وبعث عبد الرحمن بن موسى بن عثمان بن يغمراسن بن زيان رسالة إلى الملك نفسه يعلمه فيها بوصول كتابه مع رسوله ومفوّضه، حيث استهلها الكاتب بألفاظ الثناء والتقدير للمرسل إليه والدعاء له، وأكد سلطان تلمسان في هذا النص استعداده لدعم أواصر الصداقة والتقارب التي أشار إليها ملك أراغون في كتابه، وأخبره عن أمله في تجدد علائق المودة التي كانت قائمة بين الأسلاف: «... **وقد وصل كتابكم، ووقفنا على مقاصدكم فيه، ومذاهبكم التي تخص الود وتستوفيه، على ما دل منكم على حفظ القديم، والتمادي في الأسباب الماضية على المنهج القويم. ومثلكم من جرى على هذه السنن المسلوكة، وانتهى إلى ما يليق بجلة الملوك، ونحن عاملون على ما ذكرتم من أسباب المواصلة والوداد وتجديد ما كان بين الأسلاف من المودة والاعتقاد، وعلى أن تكون بلادنا كبلادكم، وتجروا على أغراضنا ومرادنا ونجري على أغراضكم ومرادكم، وأسباب الصداقة بين السلاطين معلومة وحدودها مرسومة موسومة ».**[1]

ثم ينتقل إلى الموضوع الأساس، وهو الرد على طلب (جاقمو الثاني) تسريح كامل الأسرى النصاري الموجودين في تلمسان، حيث عبّر سلطان تلمسان عن رفضه تحقيق طلبه، لاستحالة الاستغناء عن هؤلاء لأنهم حاذقون في الصنائع والحرف: « **وأما ما أشرتم إليه من تسريح جميع من عندنا من الأسرى فذلك ما لا يمكن أن يكون، كما لا يمكن لنا أن نطلب منكم تسريح من عندكم من أسارى المسلمين، لأنكم تعلمون أن ما عمّر بلادنا إلا الأسارى، وأكثرهم صناع متفننون في أنواع جميع الصنائع**».[2]

[1] علاقة إسبانيا القطلانية بتلمسان ، ص88- 90.

[2] المصدر نفسه، ص90، 91.

واقترح عليه إطلاق خمسة أو ستة أشخاص يقترحهم ملك أراغونة إرضاء له، وأكد له استعداده لقضاء الحوائج الأخرى التي قد يحتاجها الملك ويطلبها منه، والتي تكون سببا في تحقيق المودة والصداقة: « **ولو طلبتم ما يستغني عنه الحال في تسريح خمسة أو ستة لأسعفنا مطلبكم، وقضينا إربكم، وأما تسريح الجميع فصعب الآن...فإن أردتم أن تكون الصداقة بينا وبينكم في ما عدا الأسرى، ويكون حالنا وحالكم واحد في ما نحتاج أو تحتاجون إليه في قضاء الحوائج التي تمكن، ومن سرحة أو غيرها فنحن نعمل على ذلك إن شاء الله على ذلك، ونسلك في مودتكم وصداقتكم أنهج المسالك، فاعلموا ذلك**».[1]

نلمس من هذه الوثيقة الرسمية دور الأسرى النصارى في تلمسان، الذين استعملوا في إعمار البلاد ومختلف الصنائع والحرف التي يحتاج إليها السكان كما أشرنا إلى ذلك سابقا، لذلك لم يكن بالإمكان الاستغناء عنهم أو حتى مقايضتهم بأسرى المسلمين، كما يتبين لنا أن العائق الذي وقف سدًّا منيعا ضدّ عقد الصلح هو قضية الأسرى التي ألحّ عليها ملك أراغون، لكنه وجد معارضة شديدة من طرف السلطان الزياني، مما يدل على مدى قوة هذه الدولة في التعامل مع الدول الأجنبية، وعدم الاستكانة والخضوع لمطالبها.

واستمرت هذه المكاتبات بين الدولتين في شأن الصلح الذي لم يبرم بعد، فبعث عبد الرحمن بن موسى بن عثمان بن يغمراسن بن زيان مرة أخرى[2] رسالة إلى ملك أراغون في السابع عشر لرجب عام (727هـ) استهلها بذكر المرسل والدعاء له، والثناء على ملك أراغون: «**من عبد الله بن موسى بن عثمان بن يغمراسن بن زيان أيد الله أمره وأعز نصر، إلى الملك المعظم السلطان الأعز الأنجد الأشهر الأضخم الأفخم الأرضى الأكمل في أهل ملته، العادل الأمضى في مملكته، ملك أراغون وبلنسية وسردانية ومرسية وقنط برشلونة جاقمة أكرمه الله تعالى بتقواه ووفقه وأرشده وهداه. سلام على من اتبع الهدى ورحمة الله تعالى وبركاته**».[3]

[1] علاقة إسبانيا القطلانية بتلمسان (عمر سعيدان)، ص 91، 92.

[2] ينظر نص الرسالة: المصدر نفسه، ص73-75.

[3] المصدر نفسه، ص73.

ثم انتقل إلى الموضوع الذي كتبت لأجله الرسالة، وهو إعلامه بإرسال مبعوثين من تلمسان لإبرام عقد الصلح، وهو الحاجب الشيخ أبو يعقوب يوسف بن الحوراء و(جاقمو بن جاقمو الثاني) الذي كان يشتغل سفيرا مفوضا يرعى مصالح القطلانيين بتلمسان، ويشتغل تاجرا بها في الوقت نفسه:« ... **وبمقتضى ذلك وجهنا إليكم ولدكم الزعيم الأنجد الأنهض الأجد المكرم لدينا الأثير عندنا، جاقمة، مع ثقتنا الشيخ المكرم الأمين الحاج الأفضل أبي يعقوب يوسف بن الحوراء، برسم عقد الصلح بيننا وبينكم على حسب ما في العقود الواصلة صحبتها إليكم، وألقينا إليهما ما يلقيانه في معاني ذلك كُلِّه إليكم، ويُقَرِّرَانه على التَّمام والكَّمَال لَدَيكم إنْ شاء الله تعالى**».[1]

وهذه الرسالة الموجزة التي لم يشر فيها إلى أي بند من بنود الاتفاق المزمع عقده بين الطرفين*، تبرز فيها موافقة (جامقو الثاني) على شروط صاحب تلمسان قبل إمضاء عقد الصلح، وهو ما يفهم منه هيبة الدولة الزيانية في هذه الفترة، وإصرارهم على ترسيم هذا الاتفاق وفق الشروط المناسبة لهم التي تخدم مصالحهم وتلبي أهدافهم، ولعل السبب في ذلك يعود إلى كونهم لا يأمنون جانب القطلانيين، الذين عُرفوا بنقضهم للعهود والمواثيق في كل مرة.

وبعث حاجب السلطان هلال بن عبد الله رسالة أخرى على لسان سلطانه حيث تضمنت في طياتها الموضوع السابق، حيث يؤكد فيها صاحب تلمسان صداقته ومحبته لملك أراغون ووفاءه للمودة القائمة بينهما: «...**وعن التكريم لسلطانكم والمعرفة بقدر محلكم منه ومكانكم والعمل بمقتضى ذلك في كل أمره وشأنه، وإلى هذا فإنه بحسب المعتقد فيكم والمعتمد عليه من محبتكم وتصافيكم**».[2] إن الكاتب يقيم علاقة خاصة بين سلطانه وملك أراغون ويلزمه بخدمته، ويخبره أن الأمور تسير على النحو الذي يريد، وأنه يعمل جاهدا على تحقيق رغباته، وإقناع عبد الرحمن بن يغمراسن بذلك: «**واعلموا أني قررت عند مولاي أيده الله وفاءكم وعرفته**

[1] علاقة إسبانيا القطلانية بتلمسان (عمر سعيدان)، ص 74، 75.

* أهم بنود هذه الاتفاقية أشارت إليها رسالة بعثها (جامقو الثاني) إلى أبي تاشفين يطلب فيها عقد معاهدة سلم وتجارة لمدة عشر سنوات، وعرض عليه مساعدة عسكرية مقابل مبلغ مالي، ومحالفته له ضد أعدائه في حالة الحرب. ينظر: التجارة الخارجية لتلمسان في عهد الإمارة الزيانية (بشاري لطيفة)، ص 188.

[2] علاقة إسبانيا القطلانية بتلمسان، (عمر سعيدان)، ص81.

وهو العارف –أيّده الله– عنكم. وتحققوا أني لكم كما تحبون، مجتهد فيما يتجه لكم عندي من الحوائج على سبب ما تريدون إن شاء الله تعالى».[1]

يتضح من مضمون الرسالة أنه وفي أثناء هذه المفاوضات الجارية بين الطرفين يتدخل حاجب السلطان هلال بن عبد الله القطلاني الذي فيما يبدو أنه سعى جاهدا إلى محاولة إرساء العلاقات الودية بينهما، وإقناع سلطانه بضرورة عقد الصلح وإبرام الاتفاق التجاري، وإن أبدى انحيازه إلى الطرف المقابل مما يثبت نفوده داخل البلاط الزياني وتحكمه في زمام الأمور، و تغليب مصلحته الشخصية غير المعلنة مع ملك أراغونة من وراء عقد الاتفاق التجاري.

وأرسل أبو حمو موسى الثاني رسالة سنة (761هـ) بعد أن تمكن من استعادة تلمسان من يد المرينيين، إلى ملك أراغون (بترو الرابع)، فبعد التحية والمبالغة كالعادة في التبجيل والتكريم والشكر والمدح، فإن السلطان الزياني يعلم مخاطبه أنه يُولي اهتماما بالغا بالتجار الأراغونيين:« **فإنا لم نزل نمنح من وصل من جهاتكم وانخرط في سلك طاعتكم من التجار المترددين وغيرهم من ذوي الحاجات أجمعين ونوسعهم إحسانا وإنعاما، ونيسر عليهم في جميع مطالبهم وجملة مآربهم إجمالا وإكراما، ولم نضيق عليهم قط في جميع ما أرادوا لأن يوسقوه لبلادهم ويحملوه في صدرهم وإيرادهم».**[2]

وشكا له تصرف بعض التجار الذين استولوا على جفن يخص بعض الأندلسيين كان متجها إلى بلاد المسلمين، لأنهم بفعلهم هذا هم يهددون التجارة الخارجية لتلمسان بمنع وصول السلع المختلفة إلى وجهتها المحددة، لذلك وجّه إليه أحد مقربيه وهو الشيخ أبو عبد الله البلاتشي، والذي حمله مشافهة بنود الصلح واقترح عليه النظر فيها، إلا أن الرسالة خلت من أي بند، واكتفى فيها إلى الإشارة إليه: « **ومع هذا فقد عمدت طائفة من القطلانيين في أجفن معدين إلى مرسانا الشهير مرسى وهران المحروسة الكبير، وحملوا منه على جهة العمد العدوان والجرأة والإقدام، وهتكوا حرمة السلطنة وحق الإسلام... ووجهنا لكم الآن خديمنا...وأودعناه ما**

[1] المصدر السابق، ص82.

[2] المصدر نفسه، ص123، 124.

ينهيه إليكم من مقاصد الإكرام والبر المفر الأقسام ليخاطبكم بهذه الأحوال ويطالعكم بما لكم عندنا من القبول والإقبال».[1]

فيتبين لنا أن الخطاب الرسمي للدولة الزيانية مع الممالك النصرانية ساده حالة من التوتر التي وصلت إلى حد الاصطدام المتمثل في القرصنة البحرية، وهذا ما يدل على خبث السياسة التي تنتهجها هذه الممالك في التعامل مع الطرف الزياني، فبالرغم من الاتفاقيات المبرمة بينهما والعلاقات الودية التي تشير إليها الرسائل، إلا أن النصارى كانوا يتعمدون انتهاج هذه السياسة، ولعل السبب في ذلك هو عدم الرضى والقناعة المطلقة بفحوى الاتفاقيات، وهو ما يفهم منه نجاح سياسة بني عبد الواد في ما يخص العلاقات الخارجية التي كانت تقوم على الندية والصرامة، وعدم الانصياع لكل المطالب والتنازلات. وكمحاولة من القطلانيين للحصول على امتيازات أكثر كانوا يتعمدون في كل مرة قرصنة السفن والسلع التابعة لتلمسان، بهدف إجبارها على التفاوض مرة أخرى والتنازل عن حقوقها.

وتشير رسالة أخرى بتاريخ (764هـ) -أرسلها أبو حمو موسى الزياني الثاني إلى الملك (بترو الرابع)- إلى أحد بنود معاهدة الصلح وهو إخلاء سبيل الأسرى النصارى الأمر الذي رفضه صاحب تلمسان إلا بعد إلحاح شديد، إلا أن هؤلاء رفضوا مغادرة تلمسان وفضلوا الاستقرار بها إلا نفرا قليلا منهم قرروا المغادرة، فمنعهم السلطان الزياني حين علم أن جماعة من المسلمين أُسروا في أراغونة للسبب نفسه، وطلب منه تبادل الأسرى كشرط من شروط عقد الصلح، الأمر الذي تتجلى فيه هيبة وصلابة صاحب تلمسان في التعامل مع ملك أراغون: « **وأما قضية النصارى ...حين وقع بهم الغلب ...وتكرر منكم في شأنهم الكتب وألححتم في الطلب...خلينا سبيلهم ورأوا أنا صرفناهم وأخذنا لهم الخيل التي كنا أعطيناهم امتنع عن الجواز أكثرهم واختار الإقامة، وطلبوا منا الخدمة المستدامة...وأما الذين أرادوا الجواز منهم إلى بلادهم فهم نحو الثلاثين أو ما يقرب من عددهم، فلما جاءوا على الانفصال وأخذوا في الرحال إلا وبلغنا أن المسلمين من خدامنا وبلادنا أخذوا من مراسينا...أمسكنا نحن عن ذلك حتى تسرحوا أنتم**

[1] علاقة إسبانيا القطلانية بتلمسان، (عمر سعيدان)، ص124-126.

أولئك المأخوذين...فإذا سرحتم أولئكم نسرح نحن هؤلاء لكم، عملا بمقتضى الصلح الذي أشهدتم على أنفسكم به».[1]

ونصت المعاهدة بين الطرفين على عقد صلح لمدة خمس سنوات بين الدولتين، وهذا ما توضحه الرسالة المؤرخة في التاسع والعشرين من صفر لسنة (764هـ)، أهم ما جاء فيها من بنود عدم التعرض إلى التجار بسوء مع تقديم المساعدة لهم، وإرجاع الأسرى وبضائعهم حين يتم القبض عليهم، والعمل على مساعدة الرعايا في كلا البلدين وعدم إلحاق الأذى بهم: « **لا يتعدى أحدهما على أحد ولا أهل بلد في حالي الصدر والورد، سلما محافظا عليهما من الجهتين محفوظا عند الملتين ومنكلا الجانبين، لا يلحق إحدى الناحيتين من الأخرى مضرة في أمر ولا تعد في سر أو جهرن البر والبحر في ذلك سيان... ولا تشن في مدة المصالحة غارة ولا تدغر سيارة، فإن كان من جهة النصارى فعلى السلطان المذكور تسريح الأسرى ورد ما أخذوه للمسلمين ...وعلى مولانا السلطان أعزه الله مثل ذلك سواء... وعلى التجار الواصلين من إحدى الجهتين إلى الأخرى بمتاجرهم ألا يؤخذ منهم إلا العشر... ويحملون في إقامتهم إذا حضروا وفي طريقهم برا وبحرا مهما وردوا أو صدروا على الحفظ التام والرعي الشامل العام».**[2]

انطوت هذه الرسائل في مجملها على ثلاثة مواضيع، أولها الشق السياسي الذي كان يهدف إلى بناء علاقات سياسية متينة بين الدولتين، فلأجل ذلك أنشئت السفارات كما هو واضح في الرسائل، والشق الثاني يخص الجانب الأمني الذي شكّل عائقا في إرساء هذه العلاقات بخاصة الإغارات المتكررة على الموانئ، وسلب البضائع والسلع من الطرفين، وحماية الطرق التجارية، ومدّ يد العون بالجند والأسلحة للزيانيين، والشق الثالث يتعلق بالجانب الاقتصادي وهو الغالب في هذا الخطاب، إذ الهدف من كل هذه المراسلات هو المصلحة الاقتصادية بالنسبة إلى الصليبين الذين سعوا إلى المحافظة على مصالح بلادهم ورعاياهم، فحرصوا على الإبقاء على الضرائب، واستغلال الأراضي الزراعية بتلمسان، كل هذه المحاور التي سبق ذكرها تجسّدت في شكل معاهدات بين الدولتين.

[1] المصدر السابق ، ص 138-140.

[2] المصدر نفسه، ص 156، 157.

وهي تكشف عن العلاقات القائمة بين الطرفين في المجال التجاري، فكل طرف يسعى إلى تحقيق مآربه ومصالحه الخاصة عن طريق المفاوضات الكتابية والشفهية دون اللجوء إلى استخدام القوة، وأغلب هذ الرسائل جاءت بأسلوب واضح ودقيق في كل ما يطرح من قضايا حول أمور مختلف أو متفق عليها، مع الحرص على التسلسل المنطقي والموضوعي للمطالب المقترحة والردّ عليها، أو ما تعلق ببنود المعاهدات، وذلك باستخدام العبارات الواضحة التي لا غموض فيها، ولا تقبل التأويل، والخالية من الزخرفة اللفظية والصوَّر البيانية، إذ لا عناية لهم بها. هذا الأسلوب الخطابي لم يقتصر على بني زيان فقط بل تعداه إلى رسائل الدول الأخرى الموجهة إلى الممالك النصرانية، والتي عبّرت عن شواغل العصر وابتعدت عن الصور الأدبية[1]. ومع ذلك نجد لغة الرسائل الزيانية إلى مملكة أراغونة مصاغة بأسلوب أدبي، وبألفاظ فصيحة، وعبارات بليغة، تجسدت عن طريق توظيف السجع والطباق في البعض منها، كما أن سمة الإيجاز بارزة في هذا النوع من الرسائل.

6.3 رسائل الفتوح والتعريفات:

تعد رسائل الفتوح من الرسائل الرسمية ذات طابع سياسي عسكري تشتمل على أغراض متعددة كالانتصار في المعارك والحروب واسترجاع المعاقل من أيدي الأعداء، وهي «من أعظم المكاتب خطرا، وأجلها قدرا لاشتمال أغراضها على إنجاز وعد الله تعالى الذي وعد به أهل طاعته في إظهار دينهم على كل دين، وتوفير حظهم من التأييد والتمكين»[2]، وتتضمن هذه الرسائل مواضيع مختلفة منها ذكر همة المسلمين لنصرة الدين، واستعدادهم للنيل من عدوهم، والتنكيل به أشد تنكيل، والإشارة إلى الواقعة وما جرى بين الجيشين من قتال، ووصف أحوال الفريقين.

ومن المواضيع الشائعة التي تندرج ضمن هذا الغرض موضوع التهنئة بالفتوح الذي يتسم بالإطناب؛ فالكاتب يسهب في شكر الله على هذا النصر والإشادة بثبات الجند، ووصف إقدامهم وبسالتهم وتعظيم الفتح، لأن في ذلك سرور المكتوب إليه[3]، ونظرا للحالة السياسية المضطربة التي

[1] ينظر: أدب الرسائل في المغرب العربي (طاهر توات) ج1، ص258.

[2] مواد البيان (علي بن خلف الكاتب) تحقيق: حاتم صالح الضامن، دار البشائر، دمشق، ط1، 2003م، ص374.

[3] ينظر: حسن التوسل إلى صناعة الترسل (الحلبي: شهاب الدين محمود بن سليمان)، المطبعة الوهبية، مصر، 1398هـ ص95.

مرت بها بلاد المغرب العربي خلال العهد الزياني، وكثرة المعارك والحروب والصراعات الداخلية على السلطة من انقلابات وغيرها، كانت تتطلب هذا النوع من الرسائل، ومنها الرسالة التي بعثها يغمراسن بن زيان إلى السلطان الحفصي أبي إسحاق يهنأه بفتح قسنطينة من طرف ابنه أبي فارس بعدما تمرد عليها أبو بكر بن الوزير*، فقد استهلها الكاتب بما يناسب المقام ويوافق هذا الحدث كما جرت عليه العادة في مخاطبة الملوك والسلاطين، ثم أخبره بكتاب وصله من عند ابنه الأمير أبي فارس يخبره بما جرى من أحداث، إذ عرض على ابن الوزير ومن معه قبل الوصول إلى قسنطينة وفتحها الدخول في طاعته، إلا أنه رفض وأبى وأظهر العداوة: «... **وأنه قبل الوصول إليها قدم إلى الأشقياء المنتزين فيها يعرض عليهم أن ينزلوا الحصن، ويشتملوا ببرود الطاعة والأمن، إنذارا رجى إقبالا منهم عليه وقبولا، واقتداء بقوله عز وجل (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) فأظهروا الانقياد، وأضمروا اللجاج والعناد**».[1]

لكن الأمير أحسّ بخديعة تحاك ضده، فتحرك نحوهم بجيش جرار فوقع النزال بين الفريقين، فهجا الكاتب أبا بكر بن الوزير، ووصف هزيمته النكراء، وفتح الحصن:« ... **ورأى أن شيطانهم ما كف عن غية ولا أقصر، قصد قصدهم في أعداده الحاذرة، وأمداده الوافرة، وعساكره الجرارة، وكتائبه المتعودة لشن الغارة، ضراغم آجامها الرماح الخواطر، وبراثنها السيوف البواتر، على خيول المجادل، تنقض على الأقران أمثال الأجادل. . .وطارت إليهم من السهام عقارب سلبوا بها حياتهم حين لسبوا، فحقب الأمر ولم يجدوا لأزمتهم من فارج....فاقتحم الحصن عليهم عنوة، واستوفى جواد الإسعاد الرباني على استخلاصه طلقة لا عثرة ولا كبوة، وقيض على الشقي المغرور وشيعته فعجل حتفهم، وشرد بهم من خلفهم**».[2]

ثم يعلن السلطان الزياني فرحه بهذا النصر، واصفا إياه بالفتح العظيم، ويهنئ الأمير الحفصي بذلك:« **وإن العبد لمسرور الفؤاد، شاكر لله سبحانه في هذا الخبر المستفاد، وهو ما**

* هو أبو بكر بن موسى بن عيسى ونسبته من كومية من بيوت الموحدين ولاه السلطان أبو إسحاق حافظا على قسنطينة واستبد بها وعات فيها فسادا. حول هذه الوقيعة ينظر: تاريخ ابن خلدون، ج6، ص439،440 . والفارسية في مبادئ الدولة الحفصية (ابن قنفد القسنطيني)، ص 139.

[1] المغرب والأندلس في القرن السابع (أحمد عزاوي)، ص120.

[2] المصدر نفسه، ص 120، 121.

تسنى لحضرتكم المؤيدة من هذا الفتح الذي ملأ حديثة الآفاق طيبا، وقام به السيف من منابر الجماجم خطيبا...هنأ الله حضرة مولانا –أيّده الله– هذا الصنع الذي جاء بالمسرات فرادى ومثنى، وانطوت في ضمنه صنائع جمة حسنى، وصحح الآمال فلم يدع فيها أملا مُضْنَى، وقد أخذ العبد بالابتهاج به ملء جوانحه، ووجد بركة تعرّفه في فواتح أمره وخواتمه».[1]

وختم رسالته بما أظهره عبد الله بن يوفيان وجماعة الموحدين من ولاء وطاعة وبسالة في هذه المعركة:« **وذكر المولى أبو فارس أيده الله ما ظهر من عبدكم عبد الله بن يوفيان في ذلك الموقف الصعب من غناء حميد، ورأي سديد، ومحاولة نجيحة، وتصرف أعرب عن صدق ونصيحة....وذكر أيضا ما صدر عن جماعة المحدين من العمل المشكور، والصبر المأثور، ولا ينكر يا مولاي من الموحدين إعمال السيوف، والثبات في مواطن الهول والمخوف، فإنهم أبناء حروب، المفرجون للكروب».**[2]

وكتب ابن خطاب رسالة أخرى بعث بها السلطان الزياني إلى أبي فارس ردا على كتاب هذا الأخير واصفا فيها جيش الأمير وما جرى من أحداث، ولاسيما خروج جماعة من أعيان قسنطينة وفقهائها إلى أبي فارس يطلبون الصفح والأمان: « **وتوجهتم إلى قسنطينة في عسكركم اللهام، الضارب للهمام، المعروف بالصرامة والإقدام...وأنكم في أثناء مسيركم وصلت إليكم جماعة من وجوه أهل البلد وفقهائه يطلبون منكم الأمان، ويسألونكم الصفح عما كان، فبذلتم لهم من ذلك ما التمسوا...ولم تهملوا مع ذلك إنذار الشقي وقومه، لعله يظهر له من غده خلاف ما ظهر له في يومه...ثم ظهر لكم منهم أنهم على غيهم مصرون، ولأسباب الكيد والخديعة ممرون...فصممتم إليهم تصميم الملوك أولي الهمم العالية والنفوس الأبية، فسخر الله لكم اقداره المعينة، وأنفذ حكمه القسط باستخلاص قسنطينة».**[3]

ووصف هزيمة الأعداء بأنها شر هزيمة، مشبها موقف الأمير أبي فارس مع هؤلاء بموقف الصحابي الجليل سعد بن معاذ مع يهود بني قريضة الذين غدروا بعهدهم مع الرسول (صلى الله

[1] المصدر السابق، ص121، 122.
[2] المصدر نفسه، ص122.
[3] المصدر نفسه، ص124، 125.

عليه وسلم): «**وحقّت عليهم كلمة العذاب بما قدموا من معاصيهم، فأنفذتم فيهم حكم السيف أي إنفاذ، ورأيتم في قتلهم ما رآه في بني قريضة الغادرين سعد بن معاذ، فصوّب رسول الله ﷺ ما صدر عنه في ذلك من فتوى للمسلمين مقنعة للكفر مقمعة، وقال له: (لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع أرقعة)**».[1]

إن هذا النوع من الرسائل السياسية الذي يتضمن التهنئة بالفتح أو الانتصار في الحروب والمعارك لا يخلو –في الوقت نفسه– من ذكر البطولات والأمجاد وإظهار القوة والبسالة والإقدام في الحروب، فهو مزيج بين أغراض ثلاثة تختص بالشعر هي الوصف والمدح والهجاء، مع سرد للأحداث الواقعة قبل وأثناء النزال، وهذه الأغراض حين تقترن بالحروب والمعارك في الشعر تكون قريبة إلى غرض الحماسة الذي يتغنى فيه الشاعر بالبطولات والأمجاد والقوة العسكرية المتمثلة في العدة والعتاد، والافتخار بالانتصار وتعظيمه.

وهذا ما نستنتجه من مضامين الرسالتين السابقتين، فالكاتب يسرد الأحداث التي وقعت بين الفريقين، واصفا الطرف المنتصر بأحسن الصفات التي ترفع من شأنه وتعلي قدره، وتظهر قوته وشجاعته(عسكركم اللهام/ الضارب للهمام /أبناء حروب/ ضراغم...) وفي مقابل ذلك وصف الطرف المنهزم الذي تلقى هزيمة نكراء، مستخدما غرض الهجاء في الرد على الأعداء بذكر صفاتهم السيئة، وتجسد ذلك مثلا في الألفاظ الآتية: (الأشقياء– الغويّ– غصابها الخائنين– شيطانهم...)، وإبداء الفرح والسرور بهذا النصر المحقق، قبل أن يلج في غرض الرسالة وهو تهنئة المخاطب بفتح قسنطينة. فهذا النوع من الرسائل السياسية الذي يتناول أحداث تاريخية قد صبغ بصبغة أدبية تجلت في توظيف الأغراض الشعرية وتزيينها بالصور البلاغية.

ولا تقل رسائل التعريفات أهمية عن رسائل الفتوح، فهي الأخرى تكون في المواضيع المرتبطة بالحروب والمعارك حيث تتضمن أخبارا ومعلومات عن تحرك الجيش، والأحداث الواقعة أثناء ذلك، وبالرغم من قلة النصوص التي تندرج ضمن هذا اللون من الرسائل إلا أنه يتضح لنا أن سلاطين الدولة الزيانية كانوا يحرصون كل الحرص على تبادل المعلومات والأخبار مع ملوك الدولة الحفصية، وتزويد بعضهم بعضا بكل الأحداث التي تقع في المنطقة. فهي بالتالي عبارة عن مخاطبات إعلامية

[1] المغرب والأندلس في القرن السابع (أحمد عزاوي)، ص126.

تهدف بالأساس إلى تعزيز الثقة بين الطرفين وترسيخ أواصر التعاون، والرفع من مستوى التحالف، والعمل على تطوير العلاقات السياسية.[1]

ولا يختلف هذا النوع من الرسائل الديوانية – بالنظر إلى ما بين أيدينا من نصوص- كثيرا عن رسائل الفتوح من حيث المضمون فهو يتعلق بالحروب والمعارك وما يتصل بهما، وتحمل طابعا سياسيا بحتا ليس لأنها صادرة عن جهة سياسية، بل لكون مضامينها تدخل ضمن اهتمامات السلاطين نظرا لأهميتها.

ومن بين هذه الرسائل رسالة لأبي بكر بن خطاب عن عثمان بن يغمراسن إلى أبي فارس يجيبه عن رسالة أخبره فيها بتحرك أمير تونس الحفصي نحو البلاد الغربية، ويبدو أنها تسبق فتح قسنطينة المذكور سابقا، ومما جاء فيها: « **وعرّف –أيّده الله– بحثه السير وإغذاذه، وإمضاء عزمه الصادق وإنفاذه، على الوصول إلى البلاد الغربية – حماها الله –والحلول بها لتمشية مصالحها، وتنمية مناجحها، وتمهيد خلالها، وتسديد أحوالها**».[2] وتضمنت أيضا، الهدف من هذا التحرك ونتائجه على الإمارة الزيانية: « **ونبه المولى – أيّده الله – على ما في حلوله بها لعبيده من النفع العتيد، والخير المزيد، إنه ركن إليه يلجؤون، وبقوته في نحور عدوهم يدرأون، ومحلكم هو الحصن الحصين، والملجأ الذي يهين، من انضوى إليه ولا يستكين**».[3]

واضح أن هذه الرسالة جاءت جوابا عن رسالة تعريف بتحرك أبي فارس نحو البلاد الغربية التي تعرضت لتمرد أو هجوم من طرف الأعداء، وذلك لغرض فتحها واسترجاعها من يد غصابها، فكان الغرض من إخبار عثمان بن يغمراسن بهذا الحدث –فيما يبدو- هو خوف الأمير الحفصي من أي تمرد جديد قد يأتيه من أطراف أخرى، وهذا أمر طبيعي يرجع إلى كثرة الصراعات والانقلابات المتوالية التي عرفتها بلاد المغرب العربي في هذا العصر، مما قد يزيد من مشاكله ويعمل على إضعاف أركان دولته، فهذا التحرك هو بمثابة إظهار للقوة والعظمة لكل من تسوّل له نفسه

[1] ينظر: النثر الأدبي الأندلسي في القرن الخامس (علي بن مُحَّد)، ج1، ص226.
[2] المغرب والأندلس (أحمد عزازوي)، ص117.
[3] المصدر نفسه، ص 117، 118.

الخروج عن الطاعة والولاء، وفي الوقت نفسه هو تطمين له على أن هذا التحرك لا يراد به الوصول إلى تلمسان.

ونظير هذا اللون من الرسائل رسالة بعثها الأمير عثمان بن يغمراسن إلى والي بجاية الأمير الحفصي أبي فارس، يعرّفه فيها برغبة زعيم تجين*[1] في مراجعة الطاعة للحفصيين ولأمير تلمسان، وترجاه الكاتب على قبول طاعته حين أورد قصة ابن أبي سرح الذي ارتد وأمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتله، لكنه عفى عنه بطلب من عثمان بن عفان ﷺ ومما جاء فيها:« .. . **فإن العبد أصدر خطابه إلى بابكم الكريم يعرّفكم أن مُحَمَّد بن عبد القوي كتب إليه راغبا في مصالحته، معرفا بأنه خاطب الحضرة العلية –أيّدها الله– تائبا من زلته، راجيا بالقبول أن يفيق من علته، بعد أن خرج عن دعوتها الكريمة التي في خيرها نشأ وليدا، وببركتها كثر عديدا حين سبق الكتاب، وحاق العذاب... فقد ارتد ابن أبي سرح ثم أسلم بعد ارتداده، وصلحت حاله غب فسادهن وبعد أن أمر النبي (ﷺ) بقتله وإن وجد تحت أستار الكعبة، فرغبه عثمان في تأمينه، فسكت طويلا ثم أمنه فخلع لبوس الخشية والرهبة، وتعرف بركة تلك الرغبة، فإن قبلت الحضرة الكريمة توبته، ورضيت أوبته، فهي –أيّدها الله– بكل فضل مرتهنة، ولها في قصة رسول الله (ﷺ) من ابن أبي سرح حسنة**».[2]

وحين اطلع عثمان بن يغمراسن عليها أمر ابن خطاب بإعادة صياغة متنها، فجددها بعبارات تظهر أن أمير توجين رغب في الصلح بعد هزيمته من طرف جيش تلمسان، الأمر الذي لم يرد في نص الرسالة الأولى، ما يعني أنه أراد الافتخار بهذا النصر، والتأكيد للسلطان الحفصي أن مُحَمَّد بن عبد القوي لم يرد الصلح إلا بعد الهزيمة، وهو على الرغم من ذلك يستشيره في هذا الشأن؛ لأنه لا يستطيع أن يتخذ أي قرار دون استشارته، مما يؤكد تبعية الزيانيين للحفصيين كما أشرنا إلى ذلك سابقا: « ... **وذلكم أن مُحَمَّد بن عبد القوي لما فرغنا من هزيمته، ورجعنا من غنيمته،**

* بنو توجين من أعظم أحياء بني بادين وأكثرهم عددا، كانت أراضيهم تقع في منطقة التيطري وأراضي صنهاجة والونشريس وقلعة بني سلامة، وكانت هذه القبيلة من ألذ أعداء بني عبد الواد ومن أشد خصومهم مما جعل الدولة العبد وادية تجتاح أراضيهم من حين إلى آخر بخاصة في عهدي يغمراسن وابنه عثمان. ينظر: تاريخ ابن خلدون، ج7، ص 205 وما بعدها.

[1] المغرب والأندلس، (أحمد عزاوي)، ص112، 113.

[2] المغرب والأندلس، (أحمد عزاوي)، ص112، 113.

بعث إلينا إثر ذلكم لمصالحتنا طالبا، وفي مهادنتنا راغبا... فكان من كلامنا لهم أن قلنا إنما نحن عبيد مولانا الأمير أبي إسحاق وابنه مولانا الأمير أبي فارس – أيّدهم الله تعالى – وعاملون بحسب رأيهم، وواقفون عند أمرهم ونهيهم، لا نأخذ إلا ما أخذوه ولا نترك إلا ما تركوه، ولا نقبل إلا ما قبلوه».[1]

هناك اختلاف بيّن في مضمون الخطاب بين الرسالتين، فالأولى نلمس فيها تعاطفا ومساندة من صاحب تلمسان نحو مُحَمَّد بن عبد القوي، فقد أظهر الوقوف إلى جانبه والدفاع عنه، فقد استعان بقصة الرسول (ﷺ) مع أبي سرح لغرض التأثير في نفس المخاطب لقبول طلبه، بينما جاء مضمون الرسالة الأخرى مغايرا تماما لما سبق، حيث ذكر فيه النصر الذي حققه والهزيمة التي تلقاها الخارج عن الطاعة والولاء كإظهار لحسن الخدمة، ولم يقف مدافعا عنه بل أرجع النظر في أمره إلى السلطان الحفصي، ولعل السبب الذي دفعه إلى تغيير نصها هو ما في الأولى من إظهار للتعاطف نحو العدو قد يفهم منه تغير التوجه السياسي نحو الحفصيين، مما قد يشكل خطرا على الزيانيين، فأراد أن يثبت ولاءه للسلطان والعمل بأمره ونهيه.

وعلى العموم فإن الرسائل الإخبارية تدور مواضيعها حول الثورات والفتن والاضطرابات الداخلية، وتبرز لنا جسور التواصل القائمة بين الدولتين الزيانية والحفصية كلما كانت الفرصة سانحة لتبادل هذا النوع من الرسائل، لاسيما فيما يتعلق بالعلاقات السياسية وبخاصة الحربية منها، لتعزيز العلاقات والتعاون في المجال العسكري وتبادل المعلومات، فالرسالة الأولى هي جواب عن إخبار بتحرك أبي فارس نحو قسنطينة لغرض فتحها، ولعل الغرض من إخباره بذلك – زيادة على ما ذكرنا سابقا– هو تقديم المساعدة في حالة ما إذا احتاج إليها، أو لمعرفة رأيه حول هذا التحرك. بينما الرسالتان المتضمنتان طلب الصفح كشفتا لنا على أن صاحب تلمسان لم يكن يتخذ قرارات مستقلة لوحده خصوصا تلك التي تتعلق بالمواضيع العسكرية والحربية إلا بعد استشارة السلطان الحفصي وهذا أمر طبيعي لأنه يعلن ولاءه لصاحب تونس.

[1] المصدر السابق، ص114.

7.3 الظهائر الرسمية:

الظهائر ومفردها ظهير وهي مشتقة من الفعل ظهر، ووردت هذه الكلمة في المعاجم العربية بمعان متعددة إلا أن المعنى الذي يناسب مضمونها هو العون، وما يدل على ذلك ما جاء في لسان العرب في شرح هذه الكلمة: «فاستظهر به أي استعان، وظهرت عليه أعنته، وظهر علي أعانني»[1]، أما في مفهومها الاصطلاحي «فهي عبارة عن رخصة قانونية يظهر بها حاملها عند الحاجة، بل هو منشور أو مرسوم أو قرار يؤمر به المأمورون المكلفون بتنفيذ كل ما تضمن من تعليمات الخليفة أو الملك، واحترامها حرفيا»[2]، وعليه فإن الظهير هو المرسوم الذي يصدره السلطان أو من ينوب عنه، بما يتعلق من تعيينات إدارية في الدولة، من كتاب ووزراء وقضاة وولاة، ممن ظهرت فيهم الكفاية، وشرف الإخلاص للدولة، كما تشمل الظهائر الإقطاعات، أو الهبات التي يتكرم بها السلاطين لبعض الأفراد العاملين في الدولة أو غير ذلك ،كالقرارات التي تصدر في شأن الرعية أو المهاجرين والوافدين على الدولة.

وكان لسقوط مدينتي قرطبة وبلنسية في منتصف القرن السابع الهجري أثر كبير على الأندلسيين الذين فروا إلى الممالك الأندلسية الأخرى، وإلى حواضر المغرب العربي بعامة وتلمسان بخاصة، بسبب الحالة المزرية التي آلوا إليها بسبب تعرضهم للبطش والاضطهاد، الأمر الذي أثار عواطف السلاطين الدينية والأخوية والإنسانية، فأصدروا في شأنهم ظهائر تدور حول حقهم في السكن، والتملك للأراضي الزراعية[3]، كما أن المهاجرين الأندلسيين أسهموا بقسط وافر في صنع حياة فكرية مزدهرة إبان الدولة الزيانية، قوامها التبادل العلمي والتواصل الحضاري حيث استقر بتلمسان عدد كبير من العلماء لاسيما بعد نكبة الأندلس التي كانت سببا في هجرة الوفود الأندلسية في القرن التاسع الهجري هروبا من جحيم الإسبان، وأثرت على الجانب الثقافي في بلاد المغرب الأوسط وخاصة الجانب التعليمي بفضل طريقتهم الخاصة التي تقوم على تنويع المواد بدل

[1] لسان العرب (ابن منظور)، ج4، ص525.
[2] أدب الرسائل في المغرب العربي (طاهر توات)، ج1، ص261.
[3] ينظر: المرجع نفسه، ج1، ص262،261.

الاقتصار على حفظ القرآن والاجتهاد والمناظرة.[1] كلها عوامل تلخص سبب إصدار قرارات تكون في صالحهم تسهم في استقرارهم بهدف الاستفادة منهم في المجالات المختلفة التي برعوا فيها.

وهذا ما يثبته الظهير الذي صدر عن يغمراسن بن زيان لفائدة الأندلسيين اللاجئين إلى تلمسان بما نصه: « **هذا ظهير عناية مديد الظلال، وكرامة رحيبة المجال، وحماية لا يخشى على عقدها المبرم وعهدها المحكم من الانحلال والاختلال، أمر به فلان، –أيّد الله أمره، وأبد عصره– لجميع أهل الأندلس المستوطنين بحضرة تلمسان–حرسها الله– أحلّهم به من رعيه الجميل أكنافا، وبواهم من اهتمامه جنات ألفافا، ووطأ لهم جناب احترامه تأنيسا لقلوبهم المنحاشة إلى جنابه العلي استيلافا، وأشاد بما له فيهم من المقاصد الكرام، وأضفى عليهم من جنن حمايته ما يدفع عنهم طوارق الاضطهاد والاهتضام، حين اختبر خدمتهم فشكروا ما تولوا فيها من الجد والاجتهاد، واطّلع على أغراضهم السديدة في اختيارهم حضرته السعيدة للسكنى على سائر البلاد، فلحظ لهم هذه النية واعتبرها، وأظهر عليهم مزايا ما لهم من هذه المنجي الحميدة وآثارها، أذن – أيّده الله– لهم ولمن شاء من أهل تلمسان البلديين في كذا...**»[2]

ومن الواضح أن هذا الظهير يختلف في طريقة بنائه عن سائر الرسائل التي درسناها سابقا، إذ استفتح بذكر الطرف الذي صدرت عنه هذه القرارات و لمن خصها، حيث جاء خاليا من المقدمات الطويلة التي تحتوي على ذكر الألقاب المفخمة والمعظمة، وكذلك من حمد الله والصلاة على رسوله الكريم، فقد أشار مباشرة إلى العنايات التي اختص بها أهل الأندلس المقيمين بتلمسان، وأعطى السلطان يغمراسن بن زيان أهمية كبيرة لهم حيث خصهم برعايتة وحسن اهتمامه، وتكريمه لأعيانهم غاية الإكرام، وبما حضوا به من احترام ومن حماية كي يشعروا بالأمن والطمأنينة نتيجة ما حل بهم في وطنهم من ظلم وسلب لمتلكاتهم، وبين حقهم في السكن والتملك للأراضي المناسبة لنشاطهم المختلفة كل حسب مهنته وحرفته، ويشيد بحسن اختيارهم السكن بتلمسان على سائر البلدان الأخرى.

[1] ينظر: تاريخ الجزائر الثقافي (أبو القاسم سعد الله) دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، ج1، 1998م، ص 46-47.

[2] المغرب والأندلس في القرن السابع، (أحمد عزاوي)، ص159.

والغرض من إصدار هذا الظهير هو بث الراحة والهدوء في نفوسهم حتى لا يشعروا بالغربة عن أوطانهم، ولاستيفاء حق السلطان على رعيته ومواليه، ولأهمية أهل الأندلس الذين اشتغلوا في الصناعات والحرف والزراعة وغيرها من النشاطات الأخرى التي كان أهل تلمسان بحاجة ماسة إليها. والدافع إلى ذلك هو العامل الديني فباعتبارهم مسلمين فلهم كامل الحقوق والمزايا، فتلمسان قد عرفت بمد يد العون للأندلسيين المستضعفين، وبدافع المصلحة أيضا فهؤلاء كانوا بارعين في مجالات مختلفة، فكان من مصلحة صاحب تلمسان الإبقاء عليهم ومنحهم امتيازات وحقوقا تكفل لهم عيشهم واستقرارهم لغرض الاستفادة منهم.

كل هذه المضامين جاءت بلغة فيها من الرفق واللين ما يناسب الغرض الذي لأجله صدر هذا الظهير، وبأسلوب مباشر وموجز لا إطناب فيه، في مقدمته ومتنه، إلا أنه جاء مبتورا ناقصا من القرارات التي صدرت في حقهم.

8.3 رسائل التخدم:

يفهم من هذا النوع من الرسائل السياسية بحسب ما ورد في الرسائل التي تطرقنا إليها، أو من رسائل أخرى تندرج تحت هذا الموضوع، أنه يصدر من مقام أدنى إلى مقام أعلى، يكون الغرض منه هو طلب الخدمة أو المساعدة المادية في شأن معين، كطلب السماح بالوفود على الملك ومقابلته، أو السماح بالإقامة والمرور على بلد معين، أو طلب المعونات المالية والمادية.

ومن رسائل التخدم رسالة بعثها الأمير أبو سعيد إلى حضرة تونس طالبا منه خدمة أمه حين توجهت إلى الحجاز قاصدة بيت الله الحرام لأداء مناسك الحج حيث استهلها بأوصاف تليق بحضرة السلطان الحفصي، ثم توجه بطلبه إلى لسلطان بخدمة والدته حين مرورها بتونس لأداء مناسك الحج: « **الحضرة التي عمت بالعدل والإحسان، وتقلد الأنام في طاعتها المنجية فرضا على الأعيان، حضرة سيدنا ومولانا الأمير الأعلى أبي إسحاق أيّد الله كتائبها، وجعل السعد مظاهرها والنصر مصاحبها...وإلى هذا وصل الله تأييدكم فإن هذا الكتاب يتأدى إلى الباب الكريم–أيّده الله– من يده عبدته والة عبده تلاوماتن ابنة مجن–حفظها الله–توجهت إلى الحضرة الكريمة برسم أداء فرض الحج يسر الله مراما، ولما يلزم من حق الوالدة، ويرجى للابن من توفية برها من جزيل الفائدة، رأى العبد أن ينبه حضرتكم العلية عليها، ويستوهب من**

كريم رعيكم واحترامكم ما يقد الظفر ببغيتها إليها، ويسعى نورا إلى بيت الله الحرام بين يديها».[1]

وهو لا يكتفي بطلبه بل يؤكد له ولاءها وولاء أبنائها لحضرته الكريمة، متوسلا إياه بخدمتها، ومد يد العون لها في الذهاب والإياب، معللا ذلك ببعد المسافة، وضعفها وعدم قدرتها على تحمل مشقة السير: «... **فكيف ولها مع ذلكم في خذمتكم قدم سابقة، وجموع من أولادها متلاحقة، كلهم تربهم طاعتكم وتضمهم، وتشملهم نعمتكم وتعمهم، بخدمتكم تشرفوا ويتشرفون، وفي ما يرضي أمركم العزيز تصرفوا ويتصرفون، وحضرة مولاي أيّده الله بالفضل الذي طبعت من جوهره، وركبت من عنصره، تسمها من الاهتمام بميسم تتميز به في تلك الجموع، وتتعرف بركة أثره في الذهاب والرجوع، وتظلها بسحابة اعتنائها الغدقة، وتنظر إلى كبرها بعين الرحمة والشفقة، فالمسافة بعيدة وفي قطعها على أهل القوة والجلد من الرجال كلفة شديدة، فكيف بالنساء اللاتي يضعفن عن المسير، ويتأذين بالرواح والتهجير...».** [2]
وختم رسالته بشكر السلطان الحفصي والدعاء له: « **ولدى العبد بإزاء ما تنعم حضرة المولى من ذلكم شكر يتزيد، وخدمة تتأكدن والله يديم سعودكم، ويظفر جنودكم بمنه، والسلام».**[3]

إن هذا النص يتضمن غرض الخدمة لصالح والدة السلطان المتمثل في مساعدتها والعناية بها في طريق سفرها إلى بيت الله الحرام، ولأجل تحقيق هذه الغاية نرى أن كاتب الرسالة يلح في الطلب ويبالغ في تعليله، موظفا الألفاظ التي تؤثر على المشاعر والأحاسيس وتجعل من المخاطَب يلين ويرقّ قلبه اتجاه المُوصى به حتى يقبل طلبه من قبيل (الرحمة، الشفقة، يضعفن)، وإن لم يكن من داع إلى توظيفها؛ لأن أن أبا إسحاق لن يرفض طلبه ما دامت تلمسان تعلن تبعيتها وولاءها له، فهذه الألفاظ دليل على تعلق السلطان بوالدته، وحرصه على طاعتها، والإحسان إليها وخدمتها.

وبعث الأمير الزياني مُحَمَّد بن عامر بن يغمراسن رسالة أخرى –في الغرض نفسه– إلى الواثق الحفصي رغبة منه في مزيد من الإحسان الحفصي، وبعد أن استفتحها بما يليق من ألفاظ وعبارات

[1] المغرب والأندلس في القرن السابع ، (أحمد عزاوي)، ص157، 158.
[2] المصدر نفسه، ص158.
[3] المصدر نفسه، صفحة نفسها.

في مخاطبة الملوك من صفات جليلة، وأدعية سديدة، ثم حمد الله والصلاة على رسوله الكريم، أعلن ولائه وخدمته للسلطان الحفصي: «...**فإن العبد أصدر خدمته هذه إلى الباب الكريم مقررا للعبودية التي بها ارتفع من ارتفع، ومجددا للخدمة التي هي مفتاح الخيرات أجمع، ومؤكدا أسباب الانقطاع إليها ومن تمسك بها وفق فيما صنع، وانتظم من آماله وأمانيه ما تفرق وانصدع**».[1]

ثم خصص جزءا من خطابه لمدح السلطان ودولته، مستخدما عبارات وألفاظ بهدف التودد والتقرب إلى المرسل إليه ذاكرا فضله وإحسانه لغاية واحدة وهي تحقيق مآربه: «... **كيف لا وحضرة مولانا –أيّدها الله– قد خصها الله من الفضائل بأنواع، وأتاها من مزايا الجلال، ما كان ملء قلوب وعيون وأسماع، ودعا النفوس إلى طاعتها فأجابت، وتحققت أن دعوتها المباركة هي التي ذخرها الله عز وجل... راجيا مزيد إحسانها الذي ورد مشرعه عذبا منيرا، وحضرة مولانا أيّده الله أولى من أعطى وجاد، وضاعف لعبيده نعماءه وزاد**».[2]

ويبدو أن هذا الإنعام والكرم التي تجسد في الهدايا والهبات والعطايا التي تمنح من لدن السلاطين الحفصيين إلى الأمراء الزيانيين قد تكرر مرات عديدة مقابل الطاعة والانصياع للأوامر كما هو واضح في الرسالة التي بعثها الأمير الزياني عامر بن مُحَمَّد إلى الواثق الحفصي، في قوله:« **والعبد قد أرضعته نعمتكم حتى بلغ حد الخدمة، وتسامى أمله إلى مزيد النعمة، ليستعين به على ما يتولاه من خدمكم وينتحله، ويواليه من موجبات العبودية والطاعة ويصله، ولتبقى النعمة القديمة خالصة للإخوة الأصاغر عبيدكم، فإنما هي كفايتهم، وبها تتم كفالتهم ورعايتهم**».[3]

الملاحظ أن هذا النوع من الرسائل الديوانية التي تتضمن طلب الخدمة أنها اتخذت شكلا واحدا إذ تبدأ بذكر المرسل إليه بأبهى وأجمل الصفات التي تليق بمقامه، ثم الدعاء له، ومدحه لغرض التودد إليه، وإعلان الولاء والطاعة لجنابه، ثم تختم بالدعاء للمخاطب، وهذا بهدف تحقيق

[1] المغرب والأندلس في القرن السابع، (أحمد عزاوي)، ص154.

[2] المصدر نفسه، ص نفسها.

[3] المصدر نفسه، ص152.

مآرب مادية يرجوها المرسِل ويطمح إلى تحقيقها. وما يتضح من هذه الرسائل أيضا، تبعية سلاطين الدولة الزيانية كما هو مبين في رسائل البيعة التي أوردنا سابقا، لملوك الدولة الحفصية، مع الإعلان المطلق للولاء والدخول في خدمتهم ، وعدم مخالفة رأيهم، والانصياع لأوامرهم.

وإن لم يشر هؤلاء في الغالب إلى نوعية الخدمة وقيمتها إلا أن الراجح أنها مكافآت وإعانات مادية كانت تمنح لهم من قبل السلاطين الحفصيين، كان الهدف منها هو إبقاء الأمراء الزيانيين تحت سيطرتهم خوفا من الخروج عن طاعتهم. ومن المقاصد التي تندرج ضمن هذا النوع من الرسائل طلب القدوم على السلطان، ومن نماذجها الرسالة التي لم يَرد مُرسلها إلا أن الراجح أنه الأمير مُحَمَّد بن أبي علي عامر الزياني إلى السلطان الحفصي أبي إسحاق يستأذنه في القدوم عليه:«...**فأزمع القدوم على حضرتكم الكريمة– أيّدها الله– لتكميل هذا القصد الناجح، والعمل الحميد الراجح، لكن رأى ألا يشرع في الحركة إلا بعد أن يستأذن الباب الكريم في القدوم عليه، والوصول إليه**».[1]

وجاء الخطاب في هذا النوع من الرسائل المتضمنة طلب أداء خدمة من أرباب السلطة من ملوك وسلاطين مباشرا من المرسِل إلى المرسل إليه، إذ لم يتخذ أصحابها واسطة بينهم وبين من يرجون خدمتهم ومساعدتهم، وهذا راجع إلى كونهم ينتمون إلى الطبقة السياسية المرموقة في المجتمع، فجميع الرسائل التي أدرجناها لم يخرج فيها المرسل عن صفة الأمير، فلا يوجد من هم أعلى مكانة منهم يتوسلون بهم لقضاء حوائجهم. والغريب في الأمر أن هؤلاء بالرغم من مكانتهم المرموقة التي تبوؤوها في المجتمع وما يتمتعون به من سلطة وجاه إلا أنهم احتاجوا في فترة من الفترات إلى من يساعدهم ويمد لهم يد العون، ولعل هذا راجع إلى الظروف السياسية المتقلبة والمضطربة التي مرت بها بلاد المغرب العربي في هذا العهد، وربما رغب أصحاب هذه العنايات التي كانت تمنح للأمراء الزيانيين في إظهار قوتهم وسلطتهم على تلمسان في زمن التبعية للحفصيين.

وختاما لهذا الفصل نقول إنه بالنظر إلى ما سبق من تحليل للرسائل الديوانية الصادرة عن ديوان الإنشاء الزياني، وعلى الرغم من قلتها مقارنة بعمر هذه الدولة الذي دام طويلا وبعدد سلاطينها الذين تناوبوا على الحكم، إلا أن مواضيعها تعددت واختلفت بين المعاهدات والبيعات

[1] المغرب والأندلس في القرن السابع، (أحمد عزاوي)، ص155– 156.

وتأكيد الولاء والتهنئة وغيرها، وكشفت العديد من الجوانب السياسية لعل أهمها العلاقات الزيانية الخارجية، ولاسيما مع الحفصيين وملوك أراغونة الصليبيين.

وبالرغم من أن الدولة الزيانية في وقت متقدم كانت تتبع للحفصيين وتعلن الولاء لهم، إلا أن هذا لم يمنع سلاطينها من القيام بعملية البناء والتشييد تحسبا لأي طارئ قد يكون سببا في زوال دولتهم، كما لم تمنع الأزمات المتوالية والصراعات الداخلية والخارجية تلمسان من أن توجه أنظارها بعيدا إلى ما يخدم مصالحها، فجاءت الرسائل التي أرسلها الزيانيون إلى ملوك أراغون ودولة المماليك لتكون شاهدة على هذا التواصل الذي جاء لأجل تعزيز العلاقات الثنائية، ولتوطيد أواصر الأخوة، حيث لم يكن من مصلحة تلمسان أن تقيم علاقات عدائية مع أي طرف آخر فيكفيها شر المرينيين والحفصيين، في الوقت الذي نشهد غيابا تاما للمراسلات بين الزيانيين والمرينيين رغم قرب المسافة، ما يفسر حالة التوتر الشديد بين الدولتين الذي طغت عليه الحملات العسكرية المتوالية، وحتى إن وجدت فقد كانت تتم بطريقة غير مباشرة، مثل الرسالة[1] التي بعثها أبو القاسم العزفي إلى يغمراسن بن زيان بإشارة من السلطان يعقوب المريني والتي تتضمن حملة عسكرية مرينية على جهات إشبيلية.

وكشفت هذه الرسائل أيضا عن قوة السلاطين الزيانيين، وقدرتهم على التحكم في زمام دولتهم، ورغبتهم الملحة في الإبقاء على ديمومتها واستمرارها، والدفاع عنها وردّ الأعداد والماكرين المتربصين بها، وعن رغبتهم في بناء دولة قوية ليس بجيشها فقط، بل بثقافتها وحضارتها، كما سعوا جاهدين إلى تطوير دولتهم والحفاظ على مصالح رعيتهم، وبناء اقتصاد يعزز مكانة البلاد ويرفع من شأنها.

كما أن هذه الرسائل قد أثبتت مدى اهتمام الدولة بهذا الفن الأدبي النثري الذي أنشأت له ديوانا خاصا به يعنى بكتابة الرسائل الصادرة عن السلاطين الذين اعتنوا عناية بالغة بجلب أشهر الكتّاب وأفضلهم للعمل فيه، لأجل تحسين صورة ومكانة الدولة أمام الشعوب والمماليك الأخرى، فكانت الرسائل السياسية خير برهان على مكانتهم الأدبية، ومستواهم الثقافي الواسع

[1] ينظر: رسائل ديوانية من سبتة في العهد العزفي، (خلف الغافقي القبتوري)، تحقيق: مُحَمَّد الحبيب الهيلة، المطبعة الملكية، الرباط، 1979م، ج2، ص88- 95.

وتبحرهم في شتى العلوم والمعارف لاسيما ما يتعلق بالجانب الأدبي، إلا أنه ومن المؤسف حتما أن تضيع أغلب الرسائل الديوانية بخاصة التي كتبها ابن خميس وابن هدية ويحي بن خلدون عن ملوك بني زيان، والتي لو وجدت لعدت كنزا ثمينا بالنسبة إلى الباحثين والدارسين، ولتعمقنا أكثر في تاريخ هذه الدولة العريقة، وهنا يمكن أن نطرح مشكل الأرشيف الجزائري بقوة الذي تخلو خزائنه من هذه الوثائق المهمة التي يصعب الحصول عليها.

الفصل الثاني: الرسـائل الإخـوانية

- أشهر كتّاب الرسائل الإخوانية في العهد الزياني
- مواضيع الرسائل الإخوانية في العهد الزياني

تجدر الإشارة قبل البدء في دراسة الرسائل الإخوانية إلى أشهر كتّاب هذا النوع من الرسائل في العصر الزياني على غرار ابن خميس و ابن خطاب المرسي اللذين سبق التعريف بهما في فصل الرسائل الديوانية كونهما تقلدا منصب ديوان الإنشاء في البلاط الزياني، وهناك أدباء وكتّاب آخرون منهم من هو تلمساني المنشأ والدار، وهناك فئة أخرى ممن سكنوا عاصمة الزيانيين أو نزلوا بها فترة من الزمن لاشتغال منصب أو مرورا بها في ترحالهم أو طلبا للعلم والتدريس وغير ذلك من الأسباب، وهؤلاء يعدّون من أدباء الدولة الزيانية في مرحلة من مراحلها التاريخية الطويلة، حيث نرى أهمية في الإشارة إليهم ولو بترجمة بسيطة لهؤلاء الذين برعوا في فن الرسائل، لأن كثيرا من الأحداث والمواقف التي عاشوها، والمناصب التي شغلوها والعلاقات الاجتماعية التي جمعت بينهم ترتبط في بعض الأحيان بمضمون رسائلهم مما يساعدنا على فهم أعمق لها.

1- أشهر كتّاب الرسائل الإخوانية في العهد الزياني

1.1 مُحَمَّد بن مرزوق التلمساني:

هو مُحَمَّد بن أحمد بن مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن أبي بكر بن مرزوق العجيسي التلمساني، يكنى أبا عبد الله.[1] شمس الدين المشهور بالجد وبالخطيب، مولده سنة (711هـ) فقيه محدث، قرأ القرآن على الفقيه أبي زيد عبد الرحمن بن يعقوب بن علي، وله مشايخ جلة بالمشرق والمغرب.[2] نشأ بتلمسان وتعلم بها في مراحله الأولى فقرأ على مشايخها، كالخطيب أبي مُحَمَّد عبد الله بن عبد الواحد المجاصي، والفقيه أبي عمر ميمون بن سعيد السرغي، وقرأ كتاب الله على يد والده.[3] كما أخذ عن الشيخين ابني الإمام، وابن هدية، والشريف أبي علي حسن بن يوسف بن يحي الحسني وابن إسحاق الخياط.[4]

وظل ابن مرزوق يتنقل بين بلاد المغرب والمشرق يلتقي العلماء ويقرأ عنهم، ويشتغل في بلاد السلاطين معلما وخطيبا، وتزامن نبوغه مع التواجد المريني بتلمسان، فأدناه السلطان أبو

[1] نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب (أحمد المقري)، ج5، ص 391.
[2] ينظر: بغية الرواد (يحي بن خلدون)، ج1، ص153.
[3] ينظر: المناقب المرزوقية(مُحَمَّد بن مرزوق التلمساني) ، ص298، 300.
[4] نفح الطيب (أحمد المقري)، ج5، ص295.

الحسن من بلاطه وأصبح أثيرا لديه وأصبغ عليه نعمه، واتخذه معلما لأولاده وأودعه أمانة سر كتابه، وأوكل إليه خطابة مسجد العُبّاد وعيَّنه سفيرا إلى الأندلس.[1] ولم تجنّبه مكانته العلمية من الوقوع في كيد الحساد لأن انغماسه في شؤون السياسة وأغوار الحكم جلب عليه الكثير من الويلات، وأولى تلك المصائب كانت بعد المهمة التي كلّفه بها الأمير الزياني أبو سعيد عثمان وأخوه أبو ثابت، وهي إبرام اتفاقية صلح مع السلطان المريني أبي الحسن، لكن هذا الأخير سعى إلى نقضها فسجن إثر ذلك تسعة أشهر[2].

أما الأزمة الأخرى فكانت حين بعثه السلطان المريني أبو عنان سنة (754هـ) إلى تونس ليخطب له ابنة السلطان أبي يحيى، ففشل في هذه المهمة ووشي به لدى السلطان أنه كان سببا في ذلك الرفض فغضب وسجنه،[3] حيث ظل قابعا فيه حتى أطلق سراحه قبيل مقتل السلطان، وعمل بعد ذلك على مساعدة أبي سالم للاستيلاء على السلطة التي آلت إليه، وتبوّأ ابن مرزوق مكانة عالية في الدولة المرينية في عهده حيث تقلد منصب الوزارة، وجعل شؤون الدولة بين يديه، الأمر الذي أحيا قلوب الحاسدين والناقمين عليه من خاصة السلطان وحاشيته، الأمر الذي لم يدم طويلا حتى اغتيل السلطان، وحل مكانه أخوه أبو عمر تاشفين الذي قام بسجنه مرة أخرى مع نية قتله.[4]

وتتلمذ على يديه لسان الدين بن الخطيب، وكانت لهما صلات ودية وعلمية حيث يقول عن شيخه: « هذا الرجل من طرف دهره ظرفا وخصوصية ولطافة، مليح التوسل، حسن اللقاء، مبذول البشر، كثير التودد، نظيف البزة، لطيف التأني، خير البيت، طلق الوجه، خلوب اللسان، طيب الحديث، مقدر الألفاظ، عارف بالأبواب، درب على صحبة الملوك والأشراف...غاص المنزل بالطلبة، منقاد للدعوة، بارع الخط أنيقه، عذب التلاوة متسع الرّواية، مشارك في فنون من

[1] ينظر: التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا (عبد الرحمن بن خلدون)، دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، بيروت، 1979م، ص51.

[2] ينظر: المناقب المرزوقية، (مُحَمَّد بن مرزوق التلمساني) ، ص 307. التعريف بابن خلدون، ص53.

[3] ينظر: المصدر نفسه، ص309.

[4] ينظر: الاستقصا لدول المغرب الأقصى (أبو العباس أحمد بن خالد الناصري)، تحقيق: جعفر الناصري ومُحَمَّد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء،1997م، ج4، ص 37، 38.

أصول وفروع وتفسير، يكتب ويشعر ويقيد ويؤلف، فلا يعدو السداد في ذلك، فارس منبر غير جزوع ولا هياب».[1]

يُظهر هذا القول شخصية ابن مرزوق الخلقية والعلمية التي كانت عامل جذب لطلبة العلم في بلاد المغرب والأندلس، وهو الذي ترك آثارا علمية مهمة أشهرها (المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن) الذي يسرد فيه سيرة السلطان أبي الحسن المريني، وكتابه المناقب المرزوقية، إضافة إلى العديد من المؤلفات الأخرى التي لم تنشر بعد ولا زالت محفوظة على شكل مخطوطات في المكتبات نذكر منها (جنى الجنتين في فضل الليلتين ليلة القدر وليلة المولد النبوي) ألّفه بإيعاز من السلطان الحفصي أبي إسحاق خلال إقامته بتونس، حيث يعقد فيه المؤلف مقارنة بين ليلة القدر ولية المولد النبوي للمفاضلة بينهما[2]، وكتابه (تيسير المرام في شرح عمدة الأحكام)[3] و(الأحاديث الأربعون النبوية في مرويات الخلافة العلوية) و(خطب مرتبة على حروف المعجم)[4] و(بوح الخفاء في شرح الشفاء).[5]

2.1 عبد الرحمن بن خلدون:

هو عبد الرحمن بن مُحَمَّد بن خلدون، ولد في تونس عام (732هـ)، وفيها نشأ وتلقى معارفه الأولى لاسيما حفظ القرآن الكريم، ففي ذلك يقول عن نفسه: «أما نشأتي فإني ولدت بتونس في غرة رمضان سنة اثنتين وثلاثين وسبعة مائة، وربيت في حجر والدي رحمه الله إلى أن أيفعت وقرأت القرآن العظيم على الأستاذ المكتب أبي عبد الله مُحَمَّد بن سعد بن برال الأنصاري».[6] تولى ابن خلدون في بلاد المغرب العربي كغيره من الكتّاب كتابة الإنشاء في بلاط السلاطين بخاصة المرينيين منهم، ونتيجة شهرته وتفوّقه في هذا المجال واجهته محن كثيرة حيث لم يكن بمنأى عن تلك

[1] الإحاطة في أخبار غرناطة (لسان الدين بن الخطيب) ج3، 104.

[2] وهو مخطوط بالمكتبة العامة بالرباط، المناقب المرزوقية، ص80.

[3] المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن (مُحَمَّد بن مرزوق التلمساني)، تحقيق: ماريا خيسوس بيغيرا، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م، ص216.

[4] مخطوط بالخزانة العلوية وهو عبارة عن خطب ألقاها بغرناطة والحمراء. ينظر: المناقب المرزوقية، (ابن مرزوق)، ص83.

[5] المسند الصحيح الحسن (مُحَمَّد بن مرزوق التلمساني)، ص277.

[6] التعريف بابن خلدون، (ابن خلدون)، ص17.

النكبات التي كانت تصيب أهل السياسية، وأول تلك المحن حين اتهم بمساعدة الأمير مُحَمَّد صاحب بجاية باسترجاع ملكه، فسجنه السلطان أبو عنان سنة (758هـ) وترجاه أن يطلق سراحه فبعث إليه بقصيدة يستعطفه، يقول في مطلعها:

عَلَـــى أَيِّ حَـــالٍ لِلَّيـــالي أُعَاتـــبُ وأَيَّ صُـــــرُوفٍ لِلزَّمَـــــانِ أُغَالِـــــبُ
كَفَـــى حَـــزَنًا أَنِّي عَلَـــى القُـــرْبِ نَازِحٌ وأَنِّي عَلَـــى دَعْـــوَى شُـــهُودي غَائِـــبُ[1]

ووعده السلطان بإطلاق سراحه حين عودته من تلمسان إلى فاس لكنه توفي قبل أن يفي بوعده، وما لبث أن أُطلِق سراحه وعادت أحواله إلى ما كانت عليه سابقا، حيث تولى كتابة السر والإنشاء عن السلطان أبي سالم ثم خطة المظالم، لكنه وبالرغم من المكانة التي حظي بها لم يسلم من الحساد مثلما يكشف عنه في قوله: «ولم يزل ابن مرزوق آخذا في سعايته بي وبأمثالي من أهل الدولة، غيرة ومنافسة».[2]

وإثر ذلك طلب من سلطانه الإذن بالرحيل، لكنه رفض خشية التحاقه بأبي حمو أمير تلمسان، واستطاع أصدقاء ابن خلدون إقناعه، فخلى سبيله شرط العدول عن تلمسان، فاختار الارتحال إلى الأندلس وبالضبط إلى غرناطة حيث لقي الترحيب والاستقبال الذي يليق به من سلطانها، ويعود الفضل في ذلك إلى صديقه لسان الدين بن الخطيب الذي هيأ له المقام[3]، لكن استبداد هذا الأخير بالحكم وازدياد نفوده عكّر صفر ابن خلدون فشعر بانقباض منه وتنكره له، وخوفا منه على أن يقوم أهل السعايات بإفساد أواصر المودة التي تجمعه بصديقه، فكّر في حيلة يغادر بها غرناطة، وبينما هو كذلك جاءه كتاب من السلطان أبي عبد الله صاحب بجاية يدعوه إلى الالتحاق به، فلبى دعوته وأكرمه السلطان وولاّه الحجابة والخطابة والتدريس بجامع القصبة.[4]

ولعل الجانب الذي يهمنا من حياة ابن خلدون هو نزوله بتلمسان حيث ذكر في رحلته أنه أقام بها حين مشايعته لسلطانها أبي حمو موسى، ثم حين خروجه من الأندلس، يقول:« ...ونزلت بهنين، والجو بيني وبين السلطان أبي حمو مظلم... فأوعز بمقامي بهنين، ثم وفد علي مُحَمَّد بن عريف

[1] المصدر السابق، ص69.
[2] المصدر نفسه، ص79.
[3] ينظر: المصدر نفسه، ص82، 85.
[4] ينظر: المصدر نفسه، ص96، 97.

فعذله في شأني، فبعث عني إلى تلمسان، واستقررت بالعباد، ولحق بي أهلي وولدي من فاس، وأقاموا معي، وذلك في عيد الفطر سنة ست وسبعين».[1] كما أنه خدم دولة بني عبد الواد في عهد أبي حمو موسى الثاني الذي كان يطمح في الاستيلاء على بجاية، واستغل نفوذ ابن خلدون في الأوساط القبلية وطلب منه استنفارهم لمساعدته.[2]

3.1 لسان الدين بن الخطيب:

هو مُحَمَّد بن عبد الله بن سعيد بن عبد الله بن سعيد بن علي بن أحمد السلماني، قرطبي الأصل سكن أهله طليطلة ثم لوشة إلى أن استقر بهم المقام في غرناطة، يكنى أبا عبد الله ويلقب بلسان الدين[3]. ولد في الخامس والعشرين من رجب سنة (713هـ) [4]، ونشأ ابن الخطيب في بيئة مترفة بالمعارف والعلوم، حيث كانت غرناطة حاضرة علمية ازدهرت فيها الحياة الفكرية ازدهارا كبيرا، وكان القرآن الكريم أول شيء تعلمه[5]، يقول ابن خلدون عنه: «كان الوزير بن الخطيب آية من آيات الله في النظم والنثر، والمعارف والأدب، لا يساجل مداه، ولا يهتدى فيها بمثل هداه».[6]

وكانت بداياته السياسية في كنف ملوك بني الأحمر حيث اشتغل في ديوان الإنشاء في عهد السلطان أبي الحجاج مرؤوسا بشيخه أبي الحسن بن الحباب إلى أن توفي هذا الأخير ليرتقي إلى رئاسة الكتّاب سنة (749هـ)،[7] واستمر به المقام على هذه الحال حتى بعد وفاة أبي الحجاج عند ولده مُحَمَّد الخامس، إلى غاية سنة (760هـ) أين حلت الفتنة بسلطانه حيث قبض عليه، وصودرت أملاكه، وضيق على أهله، وظل أسيرا إلى حين جاءته شفاعة سلطان المغرب سنة (761هـ)

---

[1] التعريف بابن خلدون، (ابن خلدون)، ص 244، 245.

[2] حول دور ابن خلدون في البلاط الزياني والمهمات التي كلف بها، ينظر: عبد الرحمن بن خلدون والسلطة الزيانية، (بوبكر زاوي)، المجلة الجزائرية للبحوث والدراسات المتوسطية، ع3، جوان 2016، ص147.

[3] الإحاطة في أخبار غرناطة، (ابن الخطيب)،ج3، ص 439

[4] الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة (شهاب الدين أحمد بن حجر العسقلاني) ، دار إحياء التراث العربي، بيروت، دت، ج3، ص 469.

[5] ينظر: أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض،(أحمد المقري) ج1، ص187.

[6] تاريخ ابن خلدون، (ابن خلدون)،ج7، ص591.

[7] ينظر: نفح الطيب (أحمد المقري)، ج5، ص81.

بمساعدة ابن مرزوق فحلّ بها وأحسن وفادته[1] . ثم عاد إلى الأندلس بعد أن تمكن مُحَمَّد الخامس من استرجاع ملكه فاستبد بالسلطة فكانت مقاليد الحكم بين يديه، يقول ابن خلدون في ذلك: «وانفرد ابن الخطيب بالحل والعقد، وانصرفت إليه الوجوه، وعلقت به الآمال، وغشي بابه الخاصة والكافة».[2]

وبسبب هذا الاستبداد وتحكمه في مصير الدولة كثر حسّاده وأعداؤه الذين دبّروا له المكائد «وتفننوا في السعاية فيه»[3]، فلما استشعر ذلك وأحسّ بالخطر الذي قد يلحق به إذا ما بقي في السلطة كاتب السلطان عبد العزيز بن علي المريني، برغبته في الرحلة إليه. وترك الأندلس خلسة إلى جبل طارق، ومنه إلى سبتة فتلمسان سنة (773هـ) حيث أعجب بها وقال فيها: «تلمسان قاعدة الملك، وواسطة السلك، وقلادة النحر، حاضرة البر والبحر، ، أسندت إلى التل ظهرا، وأفصحت بالفخر جهرا...حسناء تسبي العقول بين التقنع والسفور، والأطماع والنفور، شمخت بأنف الحصانة والإباية، وتبججت بوفور العمارة».[4]

وحظي فيها ابن الخطيب بمكانة مرموقة لدى السلطان المريني حيث لبث بها إلى أن غادرها في السنة الموالية، وبالرغم من أن المقام لم يطل به كثيرا في عاصمة الزيانيين فإن هذه المدّة كانت كافية لينتج تراثا فكريا وأدبيا حيث ألف كتابه المشهور (الكتيبة الكامنة فيمن لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة) الذي يحتوي على تراجم لشعراء وأدباء وفقهاء الأندلس المعاصرين له، وألف أيضا كتابه (المباخر الطبيعية في المفاخر الخطيبية)، و(خلع الرسن في التعريف بأحوال ابن الحسن) والذي يعد طرفة أدبية نادرة.[5]

---

[1] ينظر: الإحاطة (ابن الخطيب)،ج4، ص443. تاريخ ابن خلدون،(ابن خلدون)، ج7، ص442. نفح الطيب،(أحمد المقري)، ج5، ص99..

[2] تاريخ ابن خلدون، ج7، ص444.

[3] نفح الطيب (أحمد المقري)، ج5، ص101.

[4] ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب (لسان الدين بن الخطيب)، تحقيق: مُحَمَّد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 1981م، ج1، ص220، 221.

[5] ينظر: لسان الدين بن الخطيب وتراثه الفكري في تلمسان (مُحَمَّد الشريف قاهر)، مجلة الأصالة، العدد 26، جويلية- أوت 1977م، ص231.

لكن فراره إلى بلاد المغرب لم يمنع حسّاده وعلى رأسهم قاضي الحضرة أبو الحسن النباهي وتلميذه عبد الله بن زمرك من ملاحقته بعد أن اتهموه بالزندقة متعللين بما ورد في كتابه روضة التعريف بالحب الشريف حيث قاموا بحرق كتبه، ولم يهنأ لهم بال حتى تمكنوا من الظفر به في عهد السلطان أبي العباس أحمد بن أبي سالم، حيث أرسل مُحَمَّد الخامس وفدا في طلبه فجرت محاكمته وسجن إلى أن قتل خنقا سنة (776هـ).[1]

هذه تراجم لأشهر كتّاب هذا العصر الذين كان لهم دور بارز في عهد الدولة الزيانية سواء أكانوا أولئك الذين خدموا سلاطينها أم الذين نزلوا بها هربا وخوفا على أنفسهم من بطش الأعداء، فقد كانت تلمسان قبلة لهم، إذ إن هذه المرحلة التاريخية لاسيما في بلاد المغرب العربي عُرف أدباؤها بالرحلة والتنقل بين حواضرها لأسباب مختلفة، إذ لم تكن هناك حدود جغرافية تميز بين هؤلاء، لذلك لا نرى حرجا في أن ننسبهم إلى هذه الدولة، لأن العصر عصر انقسامات بين دول متعددة ظل هؤلاء يتنقلون من دولة إلى أخرى، فابن خلدون على سبيل المثال إلى أي دولة يمكن أن ننسبه؟ فهو الذي طاف بين حواضر المغرب العربي وبلاد الأندلس، لكن بما أنه قد نزل بتلمسان مدة من الزمن فهو يعدّ من أعلامها. لكن بالرغم من ذلك لم نتطرق إلى جل رسائلهم حيث انصب تركيزنا في دراستنا لرسائلهم على تلك التي كانت بينهم أو كان لها علاقة بالسلطة الزيانية، حتى لا نحيد عن الرقعة الجغرافية والزمنية التي نحن بصدد دراستها.

2-مواضيع الرسائل الإخوانية في العهد الزياني:

بالعودة إلى الرسائل الإخوانية يمكن القول إن ما عثرنا عليه من نصوص من حيث الكمية لا يعكس حقيقة هذا العصر الذي شهد ازدهارا فكريا وأدبيا، ونبوغ أعلام بارزة في العديد من المجالات، فبعد اطلاعنا على أهم المصادر والمصنفات التاريخية وجدنا أنها تزخر بالعديد من العلماء والأدباء والفقهاء الذين ارتبط اسمهم بتلمسان، عكس الرسائل التي لا نكاد نجد لها أثرا بين مؤلفاتهم والكتب التي ترجمت لهم، وهذا نعزوه إلى العديد من الأسباب أهمها أنها ضاعت للأسباب نفسها التي أدت إلى ضياع الرسائل الديوانية، أو أن أصحابها لم يهتموا بتسجيلها وحفظها في

[1] ينظر: جذوة الاقتباس في ذكر من حل من العلماء مدينة فاس (أحمد بن القاضي المكناسي)، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1973م، ج1، ص311. ونفح الطيب (المقري)، ج5، ص 153.

كتبهم كما هو الحال مثلا مع لسان الدين بن الخطيب، لكن قلة الرسائل لا ينقص من قيمة وأهمية هذه المرحلة التاريخية شيئا من الناحية الأدبية.

ونشير هنا إلى نقطة مهمة تخص مواضيع الرسائل الإخوانية فهي تحمل مشاعر وانفعالات متعددة حسب الغرض الذي تكتب لأجله وتكون بين الأصدقاء، إلا أنها تندرج ضمن مجالين اثنين فمنها الرسائل الإخوانية الذاتية التي تحمل طابعا اجتماعيا خالصا كتلك التي تدور بين الأصدقاء في مضمون التهنئة بالولد أو الشوق وغيرهما، والنوع الآخر الرسائل شبه الرسمية التي تدور في الأغراض السابقة عينها، فهي لا تخرج عن كونها ذات طابع اجتماعي، إلا أن الاختلاف بينهما يكمن في كونها تدور بين خليفة أو أمير أو وزير مع من دونه في المنزلة في أمور خاصة.[1] وهناك نوع من الرسائل الإخوانية قد يخرج عن كونه يتناول مواضيع اجتماعية إلى مواضيع سياسية كالتهنئة بالولاية أو الوزارة وغير ذلك.

1.2 رسائل الثناء والشكر:

مما لا شك فيه أن الناس في حاجة ماسة ودائمة إلى بعضهم بعضا لأجل قضاء حوائجهم ومآربهم، ومدّ يد المساعدة إن احتاجوا إليها، وكم هم كثر أولئك الذين يسعون إلى فعل الخير وبذل المعروف ممن يتصفون بالكرم لا يبغون به جزاء أو مقابلا، فلمّا وجد هؤلاء كان من واجب المتفضَّل عليهم شكرهم وتقدير المعروف، والثناء عليهم كمكافأة معنوية لهم تحفّزهم على بدل المزيد من النعم والعطايا، والباعث الذي يدفع كلا الطرفين إلى ذلك هو السجايا الحميدة والأخلاق الرفيعة التي يتصفون بها، والروابط الاجتماعية المختلفة التي تجمع بين الناس. وكل واحد يعبّر عن هذا الامتنان بطريقته الخاصة، ولما كان الأدباء من المتفضَّل عليهم اختاروا طريقتهم التي اعتادوا أن يعبّروا بها عما يختلج في صدورهم بواسطة إبداعهم، فأتاحت قرائحهم نصوصا شعرية ونثرية راقية في غرض المدح، وكانت الرسائل النثرية من بين تلك النصوص التي حفلت بهذا الغرض.

وقبل الولوج في مضامين الرسائل التي احتوت على هذا الغرض وجب الوقوف عند تحديد المفهوم اللغوي للكلمتين، فبعد إحالتهما على المعاجم اللغوية يتبين أن اللفظتين لا تختلفان من حيث المعنى، فكلاهما تفضيان إلى المدح، ومن تم فإن الألفاظ الثلاثة مترادفة فيما بينها تستخدم

[1] ينظر: أدب الرسائل في الأندلس (فايز عبد النبي فلاح القيسي)، ص 100.

للغرض نفسه، فالثناء «ما تصف به الإنسان من مدح أو ذم وخص بعضهم به المدح»[1]، و «الشكر هو عرفان الإحسان ونشره... ومقابلة النعمة بالقول والفعل والنية، فيثني على المنعم بلسانه ويذيب نفسه في طاعته ويعتقد أنه موليها»[2]، و« المدح نقيض الهجاء وهو حسن الثناء».[3]

لكن الاستخدام الشائع لهذه الألفاظ الثلاثة في الأدب اقتصر على المدح الذي تطور عبر مراحل متعددة، بل وارتبط به ارتباطا وثيقا كغرض راسخ منذ القدم في الأدب العربي بخاصة في الشعر، ومما يشتمل عليه من معاني ذكر الصفات الحميدة التي يتصف بها الممدوح، سواء أكانت خُلقية أم خَلقية أم علمية وغيرها مما يستوجب الإشادة به والرفع من شأنه، وله اتجاهان الاتجاه الأول يقوم على مدح الملوك والأمراء والوزراء ومن يوازونهم في المرتبة والمكانة بغرض التكسّب وهو الغالب والشائع، أما الاتجاه الآخر فهو مدح الأصدقاء، والاتجاهان المذكوران نجدهما في فن الرسائل في العصر الزياني، إذ إن هناك صنفا موجها إلى ذوي الشأن الرفيع وصنفا آخر موجها إلى الخلان.

وبالنظر إلى ما بين أيدينا من رسائل إخوانية نجد أن جلها غلب عليها طابع المديح والثناء الموجه إلى المخاطب على اختلاف منزلته الاجتماعية والسياسية، ولم يرد هذا النوع مستقلا بذاته عن المواضيع الأخرى، واستفتح به الكتّاب أغلب رسائلهم قبل الولوج في المضامين التي من أجلها صاغوا كتبهم إذ «ندر أن خلت رسالة إخوانية من عنصر المديح»[4]، وهذا تعبيرا منهم عن محبتهم وامتنانهم لأولي الفضل والكرم. ومما يشترط في الكاتب تضمينه في هذه الرسائل إبراز معاني الاعتراف بالقدرة على العطاء والهبة بكل حرية، وأن يكون عارفا ومدركا كيف يغري المخاطب على فعلها والقيام بها أحسن قيام بإثارة وتحريك الهمم فيه، ومدح خصلة الكرم التي يتصف بها، مستعينا في ذلك بلغة المشاعر والعواطف حتى يشعر المعطي أنه كوفئ عما تفضل به.[5]

---

[1] لسان العرب (ابن منظور)، مج14، ص124.

[2] المصدر نفسه، مج 4، ص423، 424.

[3] المصدر نفسه، مج2، ص 589.

[4] عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي (محمود رزق سليم)، المطبعة النموذجية، القاهرة، 1955م، ج6، ص 517.

[5] ينظر: صبح الأعشى (القلقشندي)، ج9، ص 183.

ومن الرسائل التي امتزج فيها الثناء بالشكر رسالة بن الخطيب إلى ابن مرزوق، إذ لما حلّت الفتنة بسلطان غرناطة الغني بالله إثر انقلاب أدى إلى خلعه وتولية أخيه إسماعيل السلطة، لم يسلم وزيره لسان الدين منها، حيث سجن وعزل من منصبه، وفقد أملاكه التي نهبت وصودرت، فلما علم بذلك سلطان المغرب أبو سالم وبتحريض من الفقيه ابن مرزوق أرسل سفيرا إلى الأندلس لعقد اتفاق بينهما مضمونه السماح للسلطان بالانتقال إلى المغرب وإطلاق سراح لسان الدين[1]، الذي ردّ الجميل لصديقه، قال :« ... **فبأي لسان أو بأي بنان، ولا أثر بعد عيان، تقابل نعمة تداركت الرمق وقد أشفى، وأبقت الذماء والشروع في استئصالها لا يخفى، فيا لك من فرد هزم ألفا، ووعد نصر لم يعرف خلفا...وأيقنت أن الله عز وجل كان بي لطيفا، إذ هيّأ لي من رحمة ذلك المقام المولوي على يدكم نصرا عزيزا، وبوّأني من جاهه حرزا حريزا، وقد استأسدت الأعداء، وأعضل الداء، وأعمل الاعتداء، وعز الفداء، فانفرج الضيق وتيسرت للخير الطريق، وساغ الريق، ونجا الغريق**».[2]

إن معاني الثناء والشكر لتعبّر عن موقف الرضا والامتنان لشيخه الذي أسدى له معروفا أسهم في تغيّر أحواله وزوال كربته، وله أيضا رسالة أخرى في الغرض نفسه شكره فيها على فضله وأثنى عليه، لأنه كان سببا في نجاته، قال: « **سيدي بل مالكي بل شافعي، ومنتشلي من الهفوة ورافعي، وعاصمي عند تجويد حروف الصنائع ونافعي، الذي بجاهه أجزلت المنازل قراي، وفضلت أولاي والمنة لله تعالى أخراي... فحيا الله تعالى سيدي فلكم من فضل أفاد، وأنس أحياه وقد باد، وحفظ منه على الأيام الذخر والعتاد**».[3]

وله أيضا في الغرض نفسه، قوله: « **من علم، أعلى الله قدرك، أن المجد جواد أنت شياته، لا بل الملك بدر أنت آياته، لا بل الإسلام جسم أنت حياته، دعامتك بالبقاء لمجد يروق منك جبينه، وملك تنيره وتزينه، ولدين تعامل الله بإعزازه وتدينه**».[4]

---

[1] ينظر أزهار الرياض (أحمد المقري)، ج1، ص 193. الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، (أحمد بن خالد الناصري)، ص8، 9.

[2] ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب (لسان الدين بن الخطيب)، ج2، ص 115، 116. نفح الطيب، ج5، ص405، 406.

[3] أزهار الرياض (أحمد المقري)، ج 1، ص 286، 287. نفح الطيب، ج6، ص204، 205.

[4] ريحانة الكتاب (ابن الخطيب)، ج2، ص119.

وهذه الرسالة خصصها لسان الدين لتعديد فضائل ابن مرزوق فهي كلها مدح وثناء:« **فيا عز دولة بك، يا جملة الكمال قد استظهرت، وعذبت المعاند وقهرت، وبإعمال آرائك اشتهرت، فراقت الفضائل منها وبهرت، جزالة كما شق الجوّ جارح، ولطافة كما طارح نغم التأليف متطارح، وفكر في الغيب سارح، ودين لغوامض العدل والعلم شارح....ما فازت بمثلك الدول، ولا ظفرت بشبهك الملوك الأواخر والأول، ولو تقدمت لم يضرب إلا بك المثل**».[1] وختمها بالدعاء الذي يمثل خاصية من خصائص غرض الرسائل، ويعدّ مكافأة وردّا للجميل:« **فنسل الله أن يمتع منك إيثار الملوك، ووسطى السلوك، وسلالات أرباب المقامات والسلوك، ويبقيك، وصحة الصحة وافرة، وعزة العز سافرة، عاد السعادة غير نافرة، وكتيبة الأمل في مقامك السعيد غانمة ظافرة، ما زحفت للصباح شهب المواكب، وتفتحت بشط نهر المجرة لأزهار الكواكب والسلام**».[2]

وهذا ابن خلدون هو الآخر لما حل بحضرة غرناطة سنة (764هـ) بعث إلى صديقه لسان الدين ابن الخطيب كتابا يشكره فيه على حسن استقباله وإيوائه له، ويثني على سجاياه الحميدة وخصاله الرفيعة في قوله:« **سيدي وذخري ومالك أزمة أمري، أبقاك الله مأوى الغريب، وسرور الكئيب، وملجأ الآمال عند ازدحام الأهوال والخطوب، ولازال جنابك محط رحال الوفود، ومطمح الأمل البعيد، ما عسى أثني على كريم سجاياك، أو أشكر عظيم مزاياك، وهي صادرة عن الذات، التي لها الفضل بالذات، والبعد الذي له المجد من بعض الصفات، والكرم الذي لا يتخصص بالأشخاص والأوقات، ولا يغفل المتات إليه بالبضاعة من الود والمزجاة، فلم يبق إلا الاعتراف بالقصور، والعجز عن توفية حق المشكور**».[3] ويعترف ابن خلدون بالجميل الذي أدّاه له عند ملك غرناطة حتى إنه يعجز عن شكر تلك النعم السلطانية كتابة أو مشافهة لعظمتها وعدم مجاراتها:« **وأما يا سيدي شكر النعم المولوية السلطانية فو الله لا أطيق القيام بها**

[1] المصدر السابق، ج2، ص120، 121.

[2] المصدر نفسه، ج2، ص121.

[3] نفاضة الجراب في علالة الاغتراب (لسان الدين بن الخطيب)، تحقيق: السعدية فاغية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1989م، ج3، ص 209، 210.

كتابا، ولا والله خطابا لقصوري وجلالها»[1]. وهذا تعبير صادق خال من الرياء والمزايدة، ففضل السلطان وإكرامه سبق شكره ومدحه، مما يدل على أخلاق ابن خلدون الحميدة الذي يدرك فضل الناس عليه و ليس ممن يجحدون النعم.

ومما وصل إلينا من الرسائل الإخوانية في هذا الجانب ما كتبه لسان الدين ليحيى بن خلدون حين تولي الكتابة في ديوان الإنشاء الزياني، حيث كتب إليه يريد بذلك الرفع من مكانته لدى السلطان، قال:« **نخص الحبيب الذي هو في الاستظهار به أخ، وفي الشفقة عليه ولد، والولي الذي ما بعده قرب مثله أمل، ولا بعده جلد، والفاضل الذي لا يخالف في فضله ساكن ولا بلد.**»[2] ثم يبرز له مكانته الأدبية بوصفه لرسالته التي بعثها إليه لغرض مدحه والثناء عليه، وإظهار محاسنه ومناقبه، يقول: «**وقد وصل كتابكم الذي فاتح بالريحان والروح، وحل من مرسوم الحيا محل البسمة من اللوح، وأذن لنوافح السفا بالفوح، يشهد عدله بأن البيان يا آل خلدون سكن مثواكم دار خلود وقدح زندا غير صلود، ... ونصيله غير الجرب ولا المهنو من الخطاب السلطاني سفينة تسوح إن لم نقل سفينة نوح... فلله من قلم راعى نسب الغنى فوصل الرحم، وأنجد الوشيج الملتحم، وساق بعصاه من البيان الذود المزدحم...**»[3]

ولو انتقلنا إلى المدح الموجه إلى ذوي الشأن لوجدنا أن الكاتب يجعله في مستهل رسائله دون إسهاب، وهذا شرط من الشروط الواجب توفرها في المكاتبات الموجهة من الأتباع إلى الرؤساء؛ إذ يجب عدم الإطالة في الثناء والشكر؛ لأن الإفراط فيه يعد تملقا وتذللا، وإنما كان يشترط على الكتّاب في هذا الباب الاختصار في الألفاظ وانتقاء الجامعة منها لمعاني الشكر.[4] وهذا الغرض يشكّل بنية أساسية لا يمكن الاستغناء عنها، وهذه عادة الكتّاب حين يوجهون رسائلهم إلى السلاطين يثنون عليهم، ومن ذلك ما خاطب به ابن خطاب المرسي أبا الوفاء، قال: « **الفقيه الأجل أبو الوفاء أبقاه الله، ومكانه عال، وزمانه لمحاسنه حال، ولا زال وعلياه تغيظ العدا، ويمناه تفيض بالندا، ولهاه تغدو وتروح على من راح إليه وغدا، مستلزم توقيره وتعظيمه**

[1] المصدر السابق، ج3، ص210.
[2] ريحانة الكتاب، (ابن الخطيب)، ج2، ص140
[3] المصدر نفسه، ج2، ص 141، 142. نفح الطيب، ج6، ص 397.
[4] ينظر: صبح الأعشى (القلقشندي) ج9، ص183.

غيبا وشهادة، المؤدي من حقوق جلاله ما لا يعدم مؤديه نماء في خيره، وزيادة المثابر على شكر معاليه المتألقة النجوم، المتدفقة الغيوم إعلانا به وإشادة».[1] على أن هذا النوع من المدح مختلف عن الذي سبق، فلا تحركه العواطف الجياشة، والمحبة الصادقة لذا لا نرى من الأساليب أو من المعاني ما يوحي لنا بذلك؛ إذ المقام الذي يوجّهُ إليه الخطاب يقتضي الإشادة والمدح، فنجده يثني على مكانته المرموقة الذي تغيض الأعداء، وما يتصف به من كرم، وهما صفتان يُمتدح بها كل ذي سلطان.

والإنسان بطبعه حين يشعر بالخطر المحذق به أو تغيّر أحوال شخص من جهته، يكون قادرا على إلحاق الأذى به يميل إلى استعطافه واسترضائه إن كان يتوسّم فيه الخير ويرى فيه إمكانية العطف عليه، وهذا حتى يجنّب نفسه المصائب والأدية، والفئة من المستعطفين والمتودد إليهم لا يمكن أن تكون إلا من الفئات النافذة في المجتمع التي تتحكم بزمام السلطة ممن يتمتعون بالمهابة من أمراء ووزراء وغيرهم، فيلجؤون إلى التودد إليهم والتقرب منهم مستعينين بغرض المدح، لأن غرض «الاستعطاف لا يخرج في معناه عن معاني المدح والثناء».[2] فهو المناسب لكسب ودّ وتعاطف الآخرين واستمالة قلوبهم وتحريك مشاعر العطف والرأفة فيهم.

ومما يندرج تحت هذا الفن الأدبي الذي يغلب عليه هو الآخر المدح والثناء رسائل الاستعطاف والاسترضاء، ومن أمثلة ذلك الرسالة التي بعثها لسان الدين بن الخطيب إلى سلطان تلمسان أبي حمو موسى الثاني، حين أحس بتغير سلطانه عليه، فالغرض من ذلك كسب وده وتحقيق مآربه، فالكاتب يعدّ من أصحاب المناصب السامية في الدولة التي قد تجلب له النكبات والمصائب بسبب كثرة الأعداء والحساد، وهذا ما تعرض له هو وغيره ممن شغلوا وظائف مرموقة، وخوفا على نفسه لجأ إلى استعطافه. وبصفته أديبا بارعا كانت الوسيلة إلى ذلك بمخاطبته شعرا ونثرا، إذ استفتحها بقصيدة سينية طويلة يقول في مطلعها:

---

[1] Edicion y Oestudio del Fasl al jitab de Abu bakr ibn jattab al-mursi , (Hassan El –Ghailani), Universidad Complutense De madrid , Facuttad de filologia, Departamento de estudios arabes e islamicos,1994 ,p 299.

[2] النثر الأدبي الأندلسي في القرن الخامس مضامينه وأشكاله (علي بن مُحَمَّد)، دار الغرب الإسلامي، لبنان، ط1، 1990م، ج1، ص 274.

أَطْلَعْــنَ فِي سُــدَفِ الفُــرُوعِ شُمُوسًــا ضَــحِكَ الظَّــلاَمُ لَهَــا وَكَــانَ عَبُوسَــا
وَعَطَفْــنَ قُضَــبًا للقُــدُودِ نَواعِمًــا بُــوِّئْنَ أَدْوَاحَ النَّعِــيمِ غُرُوسَــا
وَعَــدَلْنَ عَــنْ جَهْــرِ السَّــلاَمِ مَخَافَــةَ وَاشِــي فَجِــئْنَ بِلَفْظِــهِ مَهْمُوسَــا[1]

وأتبعها بثر اشتمل على مدح السلطان والإشادة بنسبه وخصاله الحميدة، ومما جاء فيه قوله: « ... **وذاتكم اليوم والله تعالى يبقيها... ياقوتة اختارها واعتبرها... وسبيكة خلّصها سَجَرها...فأنتم مالك دار هجرته المحسوبة، وأصمعي شعوبه المنسوبة، إلى ما حزتم من أشتات الكمال، المُرْبية على الآمال، فالبيت علوي المنتسب، والملك بين الموروث والمكتسب، والجود يعترف به الجود، والدين يشهد به الركوع والسجود، والبأس تعرفه التهائم والنجود، والخلق يحسده الروض المجود، والشعر يغترف من عذب نمير، ويصدق ما قال: بدئ بأمير وختم بأمير**».[2]

ويحاول بعد ذلك تبرير عدم التحاقه ببلاط السلطان دون أن يشير إلى سبب معين حال دون هذا القصد، بل ألقى اللوم على الدهر، وتعذر الطريق :«**وإن مملوككم حوّم من بابكم على العذب البرود، فعاقه الدهر عن الورود، واستقبل أفقه ليحقق الرصد، ولكنه أخطأ القصد، ومن أخطأ الغرض أعاد، ورجا من الزمان الإسعاد، فربما خبئ نصيب، أو كان مع الخواطئ سهم مصيب... فتارة يتعذر من المرسى الصرف، وتارة تقطع المسافة البعيدة قبل أن يرتد الطرف**».[3]

ثم ينتقل إلى التودد للمخاطب بغية استعطافه وذلك بمدحه والثناء عليه والتأكيد له أن لقاءه أمر يوليه أهمية كبيرة:« **ولقد علم الله ﷻ أن لقاء ذلك المقام الكريم عند المملوك تمام المطلوب، ممن يجبر كسر القلوب، فإنه مما انعقد على كماله الإجماع، وصح في عوالي معاليه السماع، وارتفعت في وجود مثاله الأطماع، أخلاقا هذبها الكرم الوضاح، وسجية كلف بها الكمال الفضاح، وحرصا على الذكر الجميل وما يتنافس فيه إلا من سمت همته، وكرمت**

[1] ديوان لسان الدين بن الخطيب السلماني (لسان الدين بن الخطيب)، تحقيق: مُحَمَّد مفتاح، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، ط1، 1989م، مج2، ص722. أزهار الرياض، ج1، ص250، نفح الطيب، ج6، ص195.
[2] أزهار الرياض، (أحمد المقري)، ج1، ص258، 259.
[3] المصدر نفسه، ج1، ص259.

ذممه».[1] فلسان الدين يضع صوب عينه تقديم الولاء والتشيع لجناب السلطان في قالب من الثناء والمدح، فنراه يتصيّد في كل مرة الفرصة ليبن له مدى عظمته وجلاله، فوجد في إعلان رغبته في لقائه فرصة سانحة لكي يهزّ عواطفه ويستميل قلبه، فأشبعه ذكرا حسنا وقولا جلالا.

ويظهر جليا أن لسان الدين خبير في مخاطبة أمير تلمسان، فهو ذو دراية واسعة بالملوك وما يحيط بهم بحكم تجربته السياسة فهدف إلى استعطافه، ويبدو أن الباعث على هذا الخطاب هو الوفاء لصاحب الفضل والنعمة، لاسيما وأن أبا حمو عرف عنه مساعدته للأندلسيين في محنهم. وهذا النوع من الرسائل الموجه إلى ذوي الشأن الرفيع من ملوك ووزراء وغيرهم يراعِي فيه الكاتب جودة الصياغة بتوظيف معان وألفاظ توحي بالبراءة، و يتجنب الدفاع عن نفسه بإيراد الحجج التي تبرئه مما اتهم به، لأن في ذلك استعلاء وتكبرا على الملوك الذين يفضلون الاعتراف بالتقصير في حقهم ممن هم دونهم في المنزلة[2]، وهو النهج نفسه الذي سلكه الكاتب في هذه الرقعة حيث تخير لذلك أعذب الألفاظ وأرقها، وشحنها بمعاني الإجلال والتعظيم حتى يستميل قلب المخاطب من أجل الوصول إلى مبتغاه.

ونشير أيضا، إلى أن هذه القطعة النثرية استوفت حقها من حيث الغرض فلم تبتعد كثيرا عما اعتاد عليه الشعراء في مدح الملوك من أجل التكسب، فهي تفيض بعبارات التملق والتزلف، ومنه فإن الاختلاف بين هذه الرسالة والرسائل الموجه إلى الأصدقاء التي احتوت على غرض الثناء، هو أن هذه الأخيرة عبّرت بصدق عن مشاعر وأحاسيس الكتّاب لا لغرض سوى الروابط الاجتماعية التي تجمع بين الأصدقاء، والمحبة النابعة عن إخلاص ومودة، بينما تلك التي جاءت لغرض استعطاف أصحاب السلطة والنفوذ، فهدفت إلى تصفية الأجواء بين المرسِل والمرسَل إليه طمعا في الحماية و رغبة في مزيد من الإنعام، وخوفا على أنفسهم من بطش الملوك والسلاطين .

إذن يمكن القول إن الرسائل الإخوانية المتبادلة بين الأدباء مهما كان الغرض الذي لأجله كتبت لم تخل من عنصر الثناء حتى صار سمة بارزة فيها، ووظف الأدباء هذا الغرض في معظم كتبهم لأهداف متعددة إماما تملقا وطمعا في قضاء حوائجهم، لاسيما في الرسائل الموجهة إلى

[1] المصدر السابق، ج1، ص259، 260.

[2] ينظر: صبح الأعشى (القلقشندي)، ج 9، ص 165.

الملوك، أو في قضاء حوائج غيرهم في رسائل الشفاعات ، أو اعترافا منهم بمنزلة الممدوح لديهم وتقديرا لمنزلته كأن يكون عالما أو أديبا محبة وامتنانا أو تعبيرا صادقا عن إخلاصهم، ودواما للوصال والألفة واجتنابا للفرقة والخصام. ومعاني الثناء شملت الصفات الخلقية الحميدة من كرم ووجاهة ومد يد العون وغيرها، والصفات العلمية التي تجلت في الأدب والمكانة العلمية.

2.2 رسائل التهاني والتعازي:

وجب قبل التطرق إلى مضمون رسائل التهاني والتعازي الإشارة إلى مفهوم اللفظتين لغة، حيث اشتقت كلمة التهنئة من الفعل هنأ بمعنى «ما أتاك بلا مشقة، والتهنئة خلاف التعزية. يقال هنأه بالأمر والولاية هنأً وهنَّأه تهنئةً وتهنيأً إذا قلت له ليُهْنِئْك».[1]

وانطلاقا من هذا المفهوم اللغوي يمكن القول إن التهنئة مشاركة الشخص أخاه أو صديقه كمظهر من مظاهر الفرح والسرور بسبب مناسبة سعيدة، فهي تعبير عن حالة نفسية شعورية متبادلة بين طرفين تكشف عن الروابط الاجتماعية التي تسود بين الأفراد كالتآزر والتآلف.

وأما في الاصطلاح فقد ذكر القلقشندي أن «رسائل التهاني من الرسائل التي تظهر فيها مقادير أفهام الكتّاب، ومنازلهم من الصناعة، ومواقعهم من البلاغة، وهي من ضروب الكتابة الجليلة النفيسة، لما في التهنئة البليغة من الإفصاح بقدر النعمة، والإبابة عن موقع الموهبة، وتضاعف السرور بالعطية، أغراضها ومعانيها متشعبة لا تقف عند حد»[2]، فهي بذلك رسائل أدبية ذات طابع اجتماعي يعبّر فيها صاحبها عن مدى فرحه وابتهاجه بالخبر السار، ويعتمد فيها على ضروب البلاغة حتى تكون معانيها أبلغ وأكثر تأثيرا في القلوب، أما ضروبها فمتعددة منها التهنئة بالولايات وبالقدوم من السفر، وبالزواج، وبالأولاد ، والإبلال من المرض وبقرب المزار ...[3]

أما كلمة العزاء فهي الأخرى تعبير شعوري متبادل بين شخصين أو أكثر بسبب حادثة مؤلمة غالبا ما تكون في الوفاة، الغرض منها مواساة المصاب والتخفيف من حدة حزنه، حيث وردت هذه اللفظة في لسان العرب بمعنى الصبر، فهي « الصبر على كل ما فقدت، وعزيت فلانا

[1] لسان العرب (ابن منظور)، مج1، ص184، 185.
[2] صبح الأعشى، ج9، ص 05.
[3] ينظر: المصدر نفسه،ج9، ص 6.

أعزيه تعزية أي أَسَّيْتُهُ وضربت له الأسى، وأمرته بالعزاء فتعزى تعزيا أي تصبر تصبرا».[1] وبما أن الموت قدر لا مفر منه، ومصيبة يحزن لها القلب وتدمع لها العين، فما على المؤمن إلا أن يصبر ويحتسب مصداقا لقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴾[2].

ولابد على المعزِّي من مشاركة المصاب أشجانه وحمله على الصبر الذي فيه مفتاح الفرج، ومن هنا جاءت رسائل التعزية متضمنة معنى التسليم بقضاء الله وقدره، والصبر على المصيبة التي حلت بالمعزى، وتسليته ومشاركته الحزن والأسى، ووعده بحسن العوض، وأضربها متعددة هي الأخرى كالتعزية بالابن أو البنت أو الأم أو الأب أو الأخ...[3]، ونجد لهذا النوع من الرسائل مقابلا في الشعر ألا وهو الرثاء الذي يقوم على تعداد خصال الميت ومناقبه الحميدة والتفجع عليه، ووصف الحال بعد فقدانه، وإذا ما عقدنا مقارنة بسيطة بين الجنسين الأدبيين من حيث المضمون لا نكاد نجد اختلافا كبيرا بينهما.

إذًا فالتهنئة مثل التعزية، من المظاهر الاجتماعية التي تسود بين الناس في المناسبات المختلفة، فتكشفان بذلك عن الروابط الاجتماعية التي تجمع بينهم، ومدى حاجة الإنسان إلى أخيه الإنسان في شتى الظروف والأحوال، فهذه المواقف تعمل على تقوية العلاقات ونشر المحبة والتآلف والطمأنينة بين الناس. والغرضان كل واحد منهما يكشف عن المشاعر والعواطف التي تختلج القلب بسبب الأحداث التي تطرأ على حياة الإنسان حلوها ومرها، وإن كان الأول يعبّر عن السرور الذي يشارك فيه الشخص صديقه أو قريبه في حدث يستدعي ذلك كالزواج أو ميلاد طفل أو نجاح وغيرها من المناسبات التي توجب ذلك، إلا أن الغرض الآخر يعبّر عن عواطف الحزن والأسى بسبب الوفاة، ويبدو أن هذا الأخير هو الأكثر تأثيرا في النفس خلاف التهنئة، لأن الإنسان يكون في حاجة ماسة إلى المواساة في حالة الحزن أكثر من حالة الفرح، وها هنا تشتد حاجة المصاب بالكآبة واليأس إلى التكافل والتضامن الاجتماعي من طرف الإخوان والخلان.

---

[1] لسان العرب (ابن منظور)، مج15، ص 52.

[2] سورة البقرة، الآية: (156).

[3] ينظر: صبح الأعشى، (القلقشندي)، ج9، ص80

ونشير في هذا السياق إلى أنه في كثير من الأحيان قد تكون هناك مناسبات وأحداث اجتماعية قد تمتزج فيها حالة الحزن بالفرح، ومن أمثلة ذلك وفاة ملك واعتلاء ولي عرشه سدة الحكم، أو وفاة أحد أقارب السلطان مع نصر تم تحقيقه وهكذا، فحينئذ يكون لزاما تقديم العزاء والتهنئة معا لوقوعهما في آن واحد. أما فيما يتعلق بالرسائل فهذا النوع غالبا ما يكون موجها إلى الملوك، أما الأخرى فتضمنت التهنئة المتعلقة بالولاية والانتصار في الحروب، والتهنئة باعتلاء العرش، والتهنئة بالخلاص من الشدة والكرب، والتهنئة بالقدوم من السفر وبالولد والإبلال من المرض، أما غرض التعزية فيندرج ضمن التعزية بوفاة الوالد، ووفاة الأخ.

ومن الرسائل الموجهة إلى الملوك التي اشتملت على غرضي التعزية والتهنئة، تلك التي بعثها ابن خطاب إلى أبناء أبي القاسم العزفي* يعزيهم في وفاة الوالد ويهنئهم بالرياسة والظهور على أسطول الكفرة، وجاء في أحدها مخاطبا أبا طالب** بعد أن وصل الخبر المحزن وهو وفاة الوالد أبي القاسم العزفي، قوله: «**وقد وصل النبأ الذي طاشت له الأحلام، وتعثرت به الطروس الأقلام، وهو وفاة علم الأعلام، وعالم الإسلام، لسان السنة وسناها، الطاعن لمنابذها القوة والمنة الناهض بأعبائها الباهظة، المتنزل في صورتها البديعة منزلة القوة الحافظة، والدكم رحمه الله، ورضي عنه، فيا له رزءا أفاق الأرزاء، وعاق العزاء، وساق ما شاء مما ساء، وأنّس الأموات، وأوحش الأحياء، فإنا لله، وإنا إليه راجعون.**»[1]

نجد في هذه التعزية عناية بالغة بوصف مآثر الفقيد وخصاله، وذكر قيمته العظيمة على دأب الشعراء في غرض الرثاء كما يتضح في العبارات الآتية: (علم الأعلام/ عالم الإسلام/ لسان السنة)، ووصف الحالة النفسية للمعزّي إثر سماعه الخبر المحزن حيث يزيد تأثره بالمصيبة كلما كان

* هو مُحَمَّد بن أحمد بن مُحَمَّد بن الحسين المعروف بأبي القاسم، ولد سنة (607هـ)، وتولى حكم سبتة سنة (647هـ) ، كان عالما وأديبا فاضلا ، توفي سنة (677هـ).ينظر ترجمته في: أزهار الرياض، ج2، ص 374. الإحاطة، ج3، ص11. أعلام المغرب والأندلس-نثير الجمان في شعر من نظمني وإياه الزمان- (إسماعيل بن الأحمر)، تحقيق: مُحَمَّد رضوان الداية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 1987م، ص 120.

** أبو طالب عبد الله من أبناء أبي القاسم العزفي تولى إمارة سبتة بعد خلع أخيه أبي حاتم سنة (678هـ) دامت دولته سبعا وعشرين سنة، توفي بفاس مخلوعا سنة (713هـ). أزهار الرياض (أحمد المقري)، ج2، ص 377.

[1]Edición y estudio del Fasl al jitab,(Hassan El –Ghailani) , p297.

المفقود أقرب إليه ناهيك إذا كان المتوفّى ذو شأن كبير وله مكانة مرموقة، وهو ما توحي به العبارات الآتية: (يا له رزءا أفاق الأرزاء/ عاق العزاء/ أوحش الأحياء).

ثم ينتقل إلى تهنئتهم بالولاية والنصر على الكفار، حيث يجعل من هاتين البشارتين تخفيفا لما أصابهم من حزن على فقد والدهم، قال:« ...**لقد عزّ الله عنه الإسلام وأهله، وخفف وطء رزيه وثقله بما تلاه من البشارتين العظيمتين: أحدهما، إبقاء الإيالة في بيتكم الذي خيّمت به بعدما سافر في البيوت، ثم ألقت عما تسيارها منه موضع الثبوت، وحلّت فيه كما تحل الزهرة في الحوت. والثانية، ما هيّأ الله لكم من الخضراء من فتح صيّر الكفر للإيمان فيئا، وأربى على الفتوح السالفة خلافا لمن قال ما ترك الأول للآخر شيئا**».[1]

إن الانتقال من غرض التعزية إلى التهنئة في رسالة واحدة يجد فيه الكاتب متنفسا يريح به القلوب المفجوعة، فبقاء السلطة بين أيدي أبناء العزفي، وانتصارهم على الكفار مناسبتان تحملان حالة شعورية تتسمان بالفرح والسرور والابتهاج، وهذه الازدواجية بين الغرضين التي تشكلت أثناء الانتقال من حالة نفسية متأثرة حزينة على فقد الوالد إلى حالة شعورية تهدّئ من روع المصاب وتطمئنه وتنسيه فيما هو فيه، وكأن الغرض من الجمع بين هاتين الحالتين مقصود حتى لا يخيّم الحزن على الخطاب كله، فترتيب الغرضين يدل على ذلك فالتهنئة تأتي بعد تقديم العزاء، حتى لا يختمها بالبكاء والعويل، فالقارئ لها ينتقل من حالة شعورية تتسم بالكآبة إلى حالة أخرى معاكسة تجعل من النفس البشرية تنسى مصابها وتخفف من آلامها، فقد أحسن الكاتب حين قدّم التعزية على التهنئة، كما أصاب في اختيار الألفاظ المناسبة لكل غرض.

ومن نماذج هذا النوع الذي تختلط فيه أجواء الحزن والفرح أيضا، الرسالة التي كتبها ابن خطاب لعثمان بن يغمراسن معزيا في وفاة والده يغمراسن بن زيان إذ استهلها بالدعاء للميت، وتبيان هول الفاجعة والمصيبة، قال: «... **وقد كان في وفاة مولانا السلطان أبي يحيى والدكم قدّس الله ثراه، وجعل الجنة مثواه، ما جرى به القدر، وأشاب لأجله صفو الحياة الكدر، وملأ القلوب حزنا فيا له رزءا فادحا، وثكلا جرى بنا في ميدان الأسى جامحا**».[2]

---

[1]Ibid, P297.

[2]Ibid, P305.

ثم ينتقل إلى مواساته بمصيبته مذكرا إياه بأن الموت قدر محتوم، فعمر الإنسان مهما طال لابد من أجل يغيبه عن الدنيا التي هي دار فناء لا تدوم لأحد، لذلك لا سبيل للمفجوع في شيء ينسيه أحزانه إلا الصبر، يقول: « **تسليما لأقداره التي لا تدفع، ولا تصد، ورضى بحكمته في أرواحنا التي هي عواري تسترجع لومتها، وتسترد، وقد علم مولانا –أيّده الله– أن هذه الدار للفناء مخلوقة، وأن النفوس مصحبة لا محالة بمناياها أو مطروقة**».[1] وإن كنا لا نلمس في هذا الخطاب ما يوحي لنا بتأثر الكاتب بهذه الوفاة، ولا أدل على ذلك الألفاظ والعبارات التي لا تكشف بصدق عن هذه الحالة، أضف إلى ذلك أنه من واجبه تقديم التعزية حتى يعلن طاعته وولاءه لولي العرش حفاظا على منصبه، فمنصبه وقربه من السلطان حتّما عليه القيام بواجب العزاء فجاءت الرسالة بعيدة كل البعد عن الصدق الفني.

و يتحول الخطاب بعد ذلك إلى حالة شعورية مختلفة تماما عن الأولى ، إذ يتوافق نبأ الوفاة مع اعتلاء عثمان بن يغمراسن العرش خلفا لوالده، فيجد في ذلك ابن خطاب فرصة سانحة ليجعل من هذا الحدث مناسبة سعيدة تنسي المفجوع في مصيبته، وتصبره على فقدان الوالد، يقول :« **وإن كان فقد مولانا خطبا عسيرا، وثكله عظيما، لا نجد له نظيرا، فقد أدال الله من جزعه صبرا، وجعل مع عسره يسرا، وهو ما يسر من الاتفاق على سعتكم السعيدة، وحلولكم في مرتبة الملك المشيدة، وهنيئا لها، فإليكم كان ميلها، وبصبح ولايتكم انجلى عنها ليلها**».[2]

واضح أن هذا النوع من الرسائل الموجة إلى الملوك لا يتضمن أي قدر من الحزن على فقد السلطان، إذ لا نجد في الألفاظ أو المعاني ما يوحي بصدق حالة المعزِّي، ولعلّ الكاتب استخدم هذين الغرضين في التقرب من الملوك رغبة في قضاء مآربه، فوظّف لذلك أسلوبا هادئا يلبس فيه لباس الصبر والأناة، إذ يرى في الموت شيئا طبيعيا مقدّرا على كل إنسان. وفي حين أن هذا الخطاب خلا من كل أثر لعاطفة الحزن الصادقة، لم ينطو على شيء من الفرح والسرور بشأن تولي العرش، وإنما هو باب من المجاملة التي دعت إليها الظروف استطاع ابن خطاب بمهارة أدبية أن

[1] Edición y estudio del Fasl al jitab,(Hassan El –Ghailani), P 305, 306

[2] Ibid, P306.

يجمع بين غرضي التعزية والتهنئة في رسالة واحدة مستخدما الألفاظ المناسبة التي تظهر لكل غرض موضعه فيها.

على أن هناك أسلوبا مغايرا تماما لما سبق، وهو الذي يتخذ فيه الكاتب من الجزع والانفعال والتألم مطية يركبها ليعبّر عن حزنه، كما فعل ابن خطاب معزيا أحد أصدقائه في وفاة أخيه قائلا: «**وقد بلغني ما جرى به القدر من وفاة أخيكم (فلان)، عين الأعيان، وزين الإخوان، جدّد الله عليه رحمته ورضوانه، لقد صدع مصابه كبدي، ونغّص عرى صبري وجلدي، وأطال مدى حزني وكمدي، وفقدت به عمدتي وعددي، فنموي نافر، ودمعي هامر، فيا له قيدا ذهب الحمام منه بجمال أجمال، ولو قُبل فيه الفداء فديته بما لديّ من نفس ومال، فإنا لله وإنا إليه راجعون، تسليما لما قضاه، ورضى بما أمضاه، والله تعالى يحسن عزاءكم في فقده، ويختم أرزاءكم به، فلا يطرقكم رزء بعده، ويجزل ثوابكم، ويصل بأسباب السلامة والعافية أسبابكم بمنه**».[1]

فنلمس أسلوبا مختلفا عن الأسلوب الأول من خلال الألفاظ والمعاني التي اتّكأ عليها في رسالته، فمظاهر التأثر العميق بالوفاة التي تجلّت في فقدان الصبر والقوة ودوام الحزن حتى وصل به الحال إلى عدم القدرة على النوم، وكثرة البكاء لدليل واضح على صدق المشاعر، مما يزيد من التأكيد على ذلك، ذكره للفداء الذي لا يكون إلا لمن تعلّق به القلب وخشي فقدانه، فنجده مستعدا لكي يضحي بالنفس التي هي أغلى ما يملك الإنسان ولا يستطيع التفريط فيها إلا لأمر هو أعظم منها، وليضحي بالمال الذي زُيّن للناس في النفوس، الأمر الذي يدل على قيمة المفقود والمكانة التي تبوّأها في نفس المعزِّي.

ويعزي في رسالة أخرى في وفاة شخص يبدو من الرسالة أنه من أصحاب الشأن، إذ وصفه بالشجاعة والإقدام وحسن القيادة والانتصار في المعارك، ولمّح إلى سبب الوفاة الذي قد يكون نتيجة نزال أو معركة، يقول: «**لقد مضى من الحمام بشهاب ثاقب، وحسام ضارب، فارس الهيجاء، وحارس العلياء، بعيد الهمم، مبيد في الحرب للقسم، يسد الخلة، ويسود الأكابر الجلة، فمن للكتائب يقودها؟ فتقرن بالظفر بنودها، أم من للمعالي يرفع مبانيها،**

[1] Ibid, P307.

ويجمع معانيها، ويعمر مغانيها؟ والله يعلم أني أصبت من فقده بأعظم مصاب، وأخذه الدهر من يدي أخذ اغتصاب، فلولا أن أملي في مجدكم قوي، وسنني في الاعتداد بكم سوي، لقلت أني دون أمل بقيت... ولولا أنه يجل عن الفداء لفديته بالنفس، وحللت بدلا منه في ذلك الرمس، وأن في سلامة ذاتكم العلية ما يخفف من الرزية، ويعين على تحمل البلية».[1] حيث أبدى تحسره العميق على فقدانه مستعينا بالاستفهام، و استعداده للفداء –لو كان ممكنا– بروحه والحلول مكانه، وليس له من أمل بعده إلا المخاطب الذي يبدو أنه هو أيضا يتقلد منصبا مرموقا.

أما فيما يتعلق بالرسائل التي تضمنت غرض التهنئة المستقل عن التعزية، فنجد التهنئة بالخلاص من المحن، فالمناصب التي تقلّدها ذوو الشأن من علماء وأدباء في بلاط الملوك كانت غالبا ما تجلب لهم النكبات فكانوا دائما عرضة لتقلبات الدهر، لأن حياة النعمة والرفاهية التي عاشوها كثيرا ما تحولت إلى بؤس وشقاء، وإذا ما وقع ذلك ونجوا من محنتهم اعتبر الأصدقاء والمقربون ذلك حدثا يدعو إلى الابتهاج والسرور، فسارعوا إلى تهنئتهم، ومن ذلك ما خاطب به لسان الدين صديقه ابن خلدون حين خلاصه من الشدة، قال :« **سيّدي الذي له الفضائل الذاتية، والمزايا الحسية والمعنوية، ودرجة السبق في المكارم دون مثنوية صورة مكملة، وذاتا مقلدة بالخصال الشريفة محملة، وبيتة موصلة، ومجادة مجملة ومفصلة، كتبت أهنّئ سيادتك، بنعمة الخلاص من الشدة، واستيعاف سعادة النصبة، وطول المدة، والسلامة من التحول، العائدة بسوء التقول، وذهاب التموّل، فأنت اليوم غير مثلوم الوفا، ولا متكدر الصفا، قرير الجفن بالإغفا، مجموع الشمل باليقين، والله يجمعه بالرفا».**[2]

لقد جعل الكاتب من الثناء والمدح مستهلا لخطابه حيث أشاد بخصال ابن خلدون وفضائله الحسية والمعنوية التي يشتمل عليها، وإن كان هذا الأسلوب شائعا في الرسائل المتبادلة بينهما فأغلبها قد تضمن غرض المدح نظرا للعلاقة التي جمعت بينهما، والتي تجاوزت علاقة الصديق بصديقه، إلا أننا نرى أن هذا النوع من المدح الذي يسبق التهنئة بالخلاص من الشدة لا يهدف به صاحبه إلى مجاملة صديقه وفقط، بل يتعدى ذلك إلى كونه تمهيدا مقصودا يهدف به

[1] Edición y estudio del Fasl al jitab,(Hassan El –Ghailani), P308.

[2] ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب (لسان الدين بن الخطيب) ، ج2، ص 184، 185.

الكاتب إلى تبرئته مما اتهم به، فيعلن له مسبقا أنه ليس أهلا للمصائب لما يتّصف به من مكارم الأخلاق التي تحصّنه من كل مكروب، فما تعرّض له من أذى لفظي، وقلة في المال إنما هو مدبّر ومقصود من الحاقدين والناقمين عليه، وما هو إلا حدث عارض لا ينقص من قدره ولا يحطّ من قيمته.

وكان ممن حلّت عليه النكبات ابن مرزوق الخطيب -كما أشرنا سابقا في سياق ترجمته- فحين زالت محنته كتب إليه لسان الدين يهنئه بذلك، ويعلن فرحه وسروره بهذا الخبر: «...**أطلقك الله من أسر الكون، كما أطلقك من أسر بعضه، وزهدك في سمائه العاتية وأرضه، وحقر الحظ في عين بصيرتك بما يحملك على رفضه، اتصل بي الخبر السار من تركك لشأنك، وأجنا الله إياه ثمرة إحسانك وانجياب ظلام الشدة الحالك، عن أفق جلالك، فكبرت ارتياحا لانتشاق رضا الله الطيب الأرج، واستعبرت لتضاؤل الشدة بين يدي الفرج**».[1]

ومن المناسبات الاجتماعية الموجبة للتهنئة ازدياد الولد، إذ يعدّ خبرا يثلج الصدور ويفرح القلوب ويحل البهجة على الوجوه ويستدعي السرور في النفوس، والمباركة والتهنئة واجبة، فقد تجلّت هذه المعاني في تهنئة لسان الدين لابن خلدون حين زاد عنده ولد: « **وقد كنت تعرفت أن سيدي، زاد عنده مولود مبارك، فبادرت بما يصله، فإن كان الخبر حقا لم يكن مني إغفال ، وإن كان منتظرا فهو فأل والسلام.**

هَنِيئًـــا أَبَا الفَضْـــلِ وَالرِّضَـــا وَأَبَا زَيْـــدٍ وَأَمَّنْـــتَ مِـــنْ بَغْـــيٍ يُخَـــافُ وَمِـــنْ كَيْـــدِ
بِطَـــالِعِ يُمْـــنٍ طَـــالَ فِي السَّـــعْدِ شَـــأْوُهُ فَمَـــا هُـــوَّ مِـــنْ عُمْـــرُ الرِّجَـــالِ وَلاَ زَيْـــدِ
وَقيّـــدْ بِشُـــكْرِ الله أَنْعُمَـــهُ الـــتِّي أَوَابِـــدُهَا تَأْبَى سِـــوَى الشُّـــكْرِ مِـــنْ قَيْـــدِ

أهلا بدري الكاتب وصدري المراقب، وعتبي الزمان العاتب، وفكر المشترى والكاتب. ومرحبا بالطالع في أسعد المطالع، والثاقب في أعلى المراتب، وسهلا بغني البشير، وعزّة الأهل والعشير، وتاج الفخر الذي يقصر عنه كسرى وأزدشير».[2]

[1] المصدر السابق، ج2، ص430.

[2] المصدر نفسه، ج2، ص 177. تاريخ ابن خلدون، ج7، ص628.

ومن ضروب التهنئة أيضا، التهنئة بالقدوم من السفر لما فيه من مشقة يتكبّدها المسافر وأخطار وصعاب يواجهها ويتحملها، فوصوله إلى المحلّ الذي يصبو إليه يريح القلب ويسعد المترقب، كيف لا، ولاسيما إن كان الواصل صديقا عزيزا، فالحال يقتضي الترحيب به ومؤانسته في غربته والتخفيف من وحشته، وسلامته فوق كل اعتبار. ومن ذلك ما خاطب به لسان الدين صديقه ابن خلدون حين حلّ بحضرة غرناطة إذ اشتملت رسالته على الترحيب بقدومه، وإعلان الفرح والسرور، وتأكيد المودة التي يكنها له، واستهلها بأبيات شعرية، يقول:

حَلَلْتَ حُلُولَ الغَيْثِ بِالبَلَدِ المِحْلِ عَلَى الطَّائِرِ المَيْمُونِ وَالرَّحْبِ والسَّهْلِ
يَمِينًا بِمَنْ تَعْنُو الوُجُوهُ لِوَجْهِهِ مِنَ الشَّيْخِ وَالطِّفْلِ المعَصِّبِ وَالكَهْلِ
لَقَدْ نَشَأَتْ عِنْدِي لِلُقْيَاكَ غِبْطَةٌ تُنَسِّي اغْتِبَاطِي بِالشَّبِيبَةِ وَالأَهْلِ
وَوِدِّي لاَ يُخْتَاجُ فِيهِ لِشَاهِدٍ وَتَقْرِيرِي المعْلُومِ ضَرْبٌ مِنَ الجَهْلِ[1]

وأتبعه بنثر مما جاء فيه قوله:«...**لو خيرت أيها الحبيب الذي زيارته الأمنية السنية، والعارفة الوارفة، واللطيفة المطيفة، بين رجع الشباب يقطر ماء، ويرف نماء...وبين قدومك خليع الرسن، ممتعا –والحمد لله– باليقظة والوسن، محكما من نسك الجنيد أو فتك الحسن... لما اخترت الشباب وإن شاقني زمنه، وأعياني ثمنه، وأجرت سحاب دمعي دمنه. فالحمد لله الذي رقى جنون اغترابي، وملكني أزمة آرابي، وغبطني بمائي وترابي، ومألف أترابي...**»[2]

عبّر لسان الدين في هذا النص عن غبطته وسروره لزيارة ابن خلدون له، حتى أنه بالغ في هذا التعبير حين ذكر أنه لو خير بين عودة أيامه شبابه، وبين وصول صديقه سالما من أي مكروه لاختار سلامته، وفي هذا دليل على صدق المحبة التي جمعت بينهما.

وكتب ابن مرزوق إلى لسان الدين بن الخطيب لما حلّ بمدينة فاس سفيرا عن سلطان غرناطة الغني بالله إلى السلطان المريني أبي عنان لطلب المساعدة والاستنجاد به خوفا من الأعداء[3]،

[1] ديوان لسان الدين بن الخطيب، مج1، ص 506، 507.

[2] التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا (ابن خلدون)، ص 86، 87. نفح الطيب، ج6، ص173، 174. ونفاضة الجراب، ص 209. وريحانة الكتاب، ج2، ص 185، 186.

[3] ينظر: نفح الطيب، ج5، ص98.

يرحب به ويبشره، ويهنئه بقدومه، ويهيأ له مكانة عند السلطان، ويبرز له المكانة التي يحظى بها عنده، واستهلها بقصيدة مدح فيها أبا عنان:

يَا قَادِمًـــــا وَافَى بِكُـــــلِّ نَجَـــــاحِ أَبْشِـــرْ بِمَـــا تَلْقَـــاهُ مِـــنْ أَفْـــرَاحِ
هَـــذِي ذُرَى مَلِـــكِ المُلُـــوكِ فَلُـــذْ بِهَـــا تَنَـــلْ المُـــنَى وَتَفُـــزْ بِكُـــلِّ سَمَـــاحِ

... فطالما كان معظم سيدي لأسى في خبال، وللأسف بين اشتغال بال، واشتعال بلبال*، ولقدومكم على هذا المقام المولوي في ارتقاب، ولمواعيدكم بذلك في تحقق وقوعه من غير شك ولا ارتياب، فها أنت تجتلي من هذا المقام العلي بتشيعك وجوه المسرات صباحا، وتتلقى أحاديث مكارمه ومواهبه مسندة صحاحا».[1]

فالرسالتان المتضمنتان التهنئة بالقدوم من السفر تكشفان عن مدى العلاقة التي جمعت بين الكتّاب في هذا العصر، فابن مرزوق لا ينتظر حتى يصل ابن الخطيب ليهنئه، بل يخاطبه وهو في طريق السفر، وهذا من باب التحضير النفسي حتى لا يشعر الواصل أنه غير مرحب به، فيبادر بتهيئة المقام له وتشييعه لدى السلطان حتى يجد حفاوة الاستقبال بما يليق بمكانته، ويظل باله معلقا بأحواله، وفكره منشغلا به خوفا عليه، ويترقب قدومه بشوق وفرح.

ويعدّ الإبلال من المرض حدثا هو الآخر يستدعي التهنئة لما فيه من انتقال المصاب من حالة ألم وشدة وقلّة نوم يتكبّده أثناء سقمه إلى حالة فرج وشفاء بعد طول انتظار، فكما وجبت المواساة والزيارة في الحالة الأولى كان من الواجب التهنئة حين تزول العلة وتنكشف الغمة. ومن الرسائل الإخوانية التي احتوت على هذا الغرض ما كتبه لسان الدين لشيخه ابن مرزوق حين استقلّ من مرض كان قد أصابه، قال: «**فلقد ألمت نفوس المسلمين لآلامك، ووجم الإسلام لتوقع إسقامك، وخفقت الأعلام لتأخر إطرافك بمصالح الملك وإعلامك، فإنما أنامل الدنيا متشبثة بأذيال أيامك**».[2] فهو هاهنا يُعظِّم مرض الشيخ لأن هذا الحدث يزداد أثره كلما كان المصاب ذا قدر وشأن رفيع في المجتمع، فالعالم الذي يُنتفع بعلمه ترجى دائما سلامته، وهذا حال

* البلبال: شدة الهم والوسواس في الصدور وحديث النفس. مقاييس اللغة (ابن فارس)، ج1، ص190.

[1] نفح الطيب (أحمد المقري)، ج6، ص 64، 65.

[2] ريحانة الكتاب (ابن الخطيب)، ج2، ص119، 120

ابن مرزوق الخطيب القائم بشؤون الدولة، لذا فإن ما حل به تألمت له نفوس المسلمين، واضطرب الناس بسبب تخلفه عن أداء مهامه، لما له من مكانة ورفعة. وفي هذه الرقعة لا يكتفي بتهنئته بل يثني عليه ويعدد فضائله، حيث جعل ابن الخطيب من هذا الحدث مناسبة لمدح شيخه.

ويمكن القول إن غرض التهنئة في مجمله اشتمل على المناسبات الإخوانية والسياسية، فشارك الكتّاب أصدقاءهم وإخوانهم وولاة أمورهم في حالة سرورهم وابتهاجهم، وقاسموهم أسباب سعادتهم في حالة تولي المناصب السياسية، وازدياد ولد، والنجاة من المحن والكروب التي حلت بهم، وبالنصر والتفوق على الأعداء، واستغلوا هذه المناسبات وجعلوا منها مطية لمدح المخاطب وسببا للتغني بفضائله الحميدة. وخطاب التعزية هو الآخر شمل أصنافا عديدة من الناس إضافة إلى الأصدقاء هناك الملوك والسلاطين، حيث استغل الكتّاب مقدرتهم الأدبية في تقديم واجب العزاء مواساة منهم لمن ذاقوا مرارة الفقد، جاعلين من الصبر مفتاحا للتخفيف من وطأتهم، مع التركيز على الإشادة بخصال ومآثر الفقيد.

3.2 رسائل الشّوق والحنين:

حين نحيل هاتين اللفظتين على المعاجم اللغوية نجد أنهما تحملان المعنى نفسه، فالشوق «نزاع النفس إلى الشيء، والجمع أشواق، شاق إليه شوقا وتشوق واشتاق اشتياقا، والشَّوْق حركة الهوى، والشُّوق: العشَّاق»[1]، والحنين «هو الشوق وتوقان النفس».[2] فكلتا اللفظتين شعور صادق ينشأ في نفس الإنسان بسبب فراق الأحباب والبعد عنهم، فيتمنى لقائهم ويشكو بعده واغترابه عنهم، ويتحسر على ماضيه وما يحمله من ذكريات جميلة جمعته بهم، ولم يبق هذا الإحساس مضمرا بل عكسه الأدباء والشعراء في نثرهم ونظمهم حتى جاءت نصوصهم في نطاق وجداني خالص تنبع منه المشاعر والعواطف العذبة الرقيقة.

فلو بحثنا في تاريخ هذا الغرض – مثله مثل الأغراض الأخرى– لوجدنا أن البدايات الأولى كانت مند العصر الجاهلي، حيث نرى أن الحنين إلى الماضي في الشعر الجاهلي تشكل في المقدمات الطللية التي تحمل ذكريات الشاعر الراسخة في الذهن مع مرور الوقت سواء أكانت بقايا

[1] لسان العرب (ابن منظور)، مج10، ص 192.
[2] المصدر نفسه، مج 13، ص129

ديار مقفرة أو أماكن جرت بها أحداث كمعركة أو صيد أو مغامرة، منطلقا للأدباء من بعدهم فساروا على منوالهم موظفين الغرض نفسه وإن اختلف المتشوَّق إليه كل حسب طبيعة عصره، ففي عصر ليس ببعيد نجد شعراء صدر الإسلام يبدعون في هذا المجال بسبب الفتوح الإسلامية التي حتّمت عليهم البعد عن الوطن والأهل، فلوعة الشوق والحنين إلى المرابع الأولى التي ترعرع فيها هؤلاء حرّكت عواطفهم، فأبدعت قرائحهم قصائد تنبض بالعواطف الجياشة، ولم يكن النثر بمنأى عن هذا الغرض، لأن أغلب الأغراض الشعرية انعكست على فن الرسائل، لكونه جنسا أدبيا استطاع الكتّاب والأدباء أن ينقلوا تلك الأغراض إليه فجسدوها في قالب نثري خالص.

وهذا النوع من الرسائل الذي يحتوي على غرض الحنين تتجلى فيه براعة الكاتب في اختيار ألفاظه وعباراته التي تغلب عليها اللطافة والرقة والعذوبة، والتي تعكس المحبة الخالصة بين الطرفين نتيجة التئام القلوب ببعضها بعضا.[1] وموضوعا الشوق والحنين في الرسائل التي بين أيدينا لم نجدهما مستقلين عن غيرهما من المواضيع الأخرى، فأغلب النصوص ينتقل فيها الكاتب من موضوع إلى آخر على دأب شعراء العصر الجاهلي في قصائدهم التي تعددت أغراضها من وصف ونسيب ومدح وافتخار وغير ذلك، أما بالنسبة للرسائل المتضمنة غرض الشوق فقد عالجت مواضيع أخرى بخاصة ذكر الأخبار المتعلقة بالمرسل أو بلده، أو وصف قصيدته أو رسالته وغير ذلك، الأمر الذي يشكل صعوبة في تحديد الغرض الأساس الذي انطوت عليه هذه الرسائل.

وهذا لا يقتصر فقط على رسائل العهد الزياني، فقد ذكر الباحث طاهر توات أن هذا الأمر ينطبق كذلك على جل الرسائل في بلاد الأندلس والمغرب العربي في الفترة التي نحن بصدد دراستها، وأرجع سبب شيوع هذين الموضوعين إلى كونهما كانا متبادلين بين أصدقاء يمتهنون المهنة نفسها كالكتابة والقضاء، ويشتركون في الرتبة العلمية والمكانة الاجتماعية المرموقة، ما أدى إلى هذه العلاقة المتينة والصداقة الحميمية.[2]

وبحكم هذه الروابط الأخوية التي جمعت بينهم شاع هذا النوع من الرسائل بين أدباء المغرب العربي والأندلس نتيجة الظروف التي حتمت عليهم في كثير من الأحيان الرحلة والانتقال من

[1] ينظر: صبح الأعشى (القلقشندي)، ج9، ص 142.

[2] ينظر: أدب الرسائل في المغرب والأندلس (طاهر توات)، ج2، ص 11.

مدينة إلى أخرى إما لطلب العلم أو للانتقال إلى بلاط السلاطين من أجل اعتلاء منصب القضاء أو الكتابة أو الحجابة أو الوزارة، وإما هربا من بطش السلاطين وخوفا من الأعداء وغير ذلك، ما ولّد في نفوسهم حنينا إلى الديار والأحبة، فراحوا يدبجون رسائل يعبّرون فيها عن أشواقهم.

ومن هؤلاء الذين عبّروا عن هذه المشاعر ابن خطاب في رسالته إلى الحكيم أبي الرضا التي استفتحها بأبيات شعرية قائلا:

تَخُصُّـــكم مـــنِّي تحِيَّـــةُ شَـــيِّقٍ إِلَى نَفَحَـــاتِ الوَصْـــلِ مِـــنْكُم تَعَرَّضَـــا
فَلَـــوْ قَـــالَ لِي سَـــلْ مَـــا تَشَـــاءُ المُـــنَى زَمَـــانِي وَمَـــا يُرْضِـــيكَ قُلْـــت أَبَا الرِّضَـــا
وَلَـــوْ لَقِيّـــت مِنْـــهُ أُتِيحَـــتْ لِمَـــا غَـــدَا عَلَـــى مَضَـــضِ الأَقْـــذَاءِ جَفْـــنِي مُغْمَضَـــا

كتبته، كتب الله لكم عزة عريضة، وسعادة لا تزال فريضة، من تلمسان والشوق إليكم لا يهدأ، والإجلال لإخائكم صدر في الأعمال التي لا تنسى ولا تنسأ...وقد وصل الله عزكم كتابكم الكريم، والنفس لقصص أنبائه متطلعة... فجلى من الوحشة ظلما، ونشر على دررا نفيسة تسمى كلما بخعت الضراء، ولبست السراء».[1]

فالشوق هاهنا هو تعبير صادق عن مشاعر المحبة التي يكنها ابن خطاب لصديقه فالنص لا يخلو من الألفاظ والمعاني الدالة على مدى حنينه وتطلعه إلى لقائه، فلا شيء يتحكم فيه ولا شيء يدفعه إلى ذلك غير عواطفه التي تفيض شوقا وحنينا بسبب البعاد وألم الفراق الذي أملته الظروف القاهرة، وها هو يجد في رسالة صديقه متنفسا يخفف من وحشته.

ومن علاقات المحبة التي نشأت بين الأدباء تلك العلاقة التي نستشفها في الرسائل المتبادلة بين لسان الدين بن الخطيب وصديقه عبد الرحمن بن خلدون، ففي إحداها يعلن لسان الدين اشتياقه الذي بلغ سعته سعة البحر حتى نفذ صبره إلى لقاء صديقه :« **أما الشوق فحدث عن البحر ولا حرج ، وأما الصبر فسل به أي درج، بعد أن تجاوز اللوى والمنعرج ، لكن الشدة تعشق الفرج، والمؤمن ينشق من روح الله تعالى الأرج، وأنّى بالصبر على إبر الدّبر، لا بل**

[1] Edición y estudio del Fasl al jitab,(Hassan El –Ghailani), p226.

الضرب الهبر، ومطاولة اليوم والشهر، حتى حكم القهر، وهل للعين أن تسلو سلوّ المقصر، عن إنسانها المبصر... وإذا كان الفراق هو الحمام الأول، فعلام المعوّل ».[1]

فلوعة الفراق بادية في خطابه بسبب البعد مما زاد من عذابه وكثرة همومه وقلة نومه، ففي هذا النص ألفاظ دالة على هذه المعاناة وهي: (الصبر/الشدة/ الفرج/ القهر/ الفراق/ الحمام)، ولم يجد مؤنسا غير تذكر الماضي والحنين إلى زمن الوصل، ومعللا النفس بزيارة المعاهد الخالية، ومساءلة كل ما يذكّره بصديقه للتخفيف من معاناته لاسيما بعد الذي كان بينهما، حيث إن ابن خلدون قرر مغادرة الأندلس وترك صديقه إبقاء للمودة خوفا من أن تنقلب إلى عداوة لكثرة الحسّاد، ففي ذلك يقول ابن خلدون:« ثم لم يلبث الأعداء وأهل السعايات أن حملوا الوزير ابن الخطيب من ملابستي للسلطان، واشتماله علي وحركوا له جواد الغيرة فتنكر، وشممت منه رائحة الانقباض مع استبداده بالدولة، وتحكمه في سائر أحوالها»[2].

ويبدو أن قرار ابن خلدون مغادرة الأندلس أقلق ابن الخطيب الذي لم تكن بيده حيلة تحول دون رحيله: « فارتمض لذلك، ولم يسعه إلا الإسعاف فودع وزود»[3]، وضاقت نفسه ولم يعد قادرا على الصبر والتحمل لشدة تأثره:

تَرَكْتُمُـــوِنِي بَعْـــدَ تَشَـــيِيعِكُم أُوسِـــعُ أَمْـــرَ الصَّـــبْرِ عِصْـــيَانَا

أَقْـــرَعُ سِـــنِّي نَـــدَمًا تَارَةً وَأَسْـــتَمِيحُ الـــدَّمْعَ أَحْيَـــانَا

وربما تعللت بغشيان المعاهد البالية، وجددت رسوم الأسى بمباركة الرسوم البالية، أسأل نون النوى عن أهليه، وميم الموقد المهجور عن مُصطليه، وثاء الأثافي المثلثة عن منازل الموحدين، وأحار بين تلك الأطلال حيرة الملحدين، لقد ظللت إذا وما أنا من المهتدين، كَلِفت لعمر الله بِسَالٍ عن جفوني المؤرقة، ونائم عن همومي المتجمعة المتفرقة».[4]

---

[1] ريحانة الكتاب (ابن الخطيب)، ج2، ص 134، 135.التعريف بابن خلدون، ص 113، نفح الطيب، ج6، ص 390.

[2] تاريخ ابن خلدون (ابن خلدون)، ج7، ص555.

[3] المصدر نفسه، ج7، ص 555.

[4] ريحانة الكتاب (ابن الخطيب)، ج2، ص 135. التعريف بابن خلدون (ابن خلدون)، ص114.

لم يستسغ لسان الدين بسهولة مفارقة ابن خلدون له، فكان أمرا هال في نفسه أسى وحسرة، ولم يجد من دواء لذلك ينسيه فيما هو فيه غير العودة إلى الماضي الجميل الذي يذكره بما كان بينهما من مودّة ومحبة، وبث حنينه بعبارات وألفاظ تفيض رقة وعذوبة، تنعكس فيها مشاعر الأخوة ومرارة الفراق، فجرى هذا الخطاب مجرى الغزل في الشعر، فحال الشاعر المتغزل كلها إظهار للشوق والشكوى من الفراق، وكثيرا ما تعلل بأيامه الخوالي التي تذكره بمحبوبته.

لقد أجاد لسان الدين في التعبير عن عاطفته الصادقة الإحساس النابعة من القلب، فلا نرى مصلحة أو غرضا يصبو إليه من وراء ذلك غير التطلع للقاء صديقه، مما يجعل خطابه خطاب محب مولع ومتشوق أوحت به الألفاظ والمعاني التي جاء بها، متخذا من نهج الشاعر العذري الذي ظل يعبّر عن حزنه وألمه لفراق محبوبته سبيلا إلى التعبير هو الآخر عن هذه المشاعر التي تفيض حزنا وأسى بسبب بعده عن صديقه: « **فها أنا أبكي عليه بدم أساله، وأنهل فيه أسى له، وأعلل بذكراه قلبا صدعه، وأودعه من الوجد ما أودعه، لما خدعه، ثم قلاه وودعه، وأنشق رياه أنف ارتياح قد جدعه، وأستدعي به على ظلم ابتدعه:**

خَلِيلَـــيَّ هَـــلْ أَبْصَـــرْتُمَا أَوْ سَمِعْتُمَـــا قَتِـيلاً بَكَـى مِـنْ حُـبِّ قَاتِلِـهِ قَبْلِـي»[1]

إن الكاتب في هذا النص يكثّف من توظيف الألفاظ التي توحي بمشاعره وعواطفه التي تفيض حزنا وألما مثل: (البكاء/ دم/ أسى/ صدع/ الوجد) وكأنه بهذه الألفاظ يجسد تلك الحالة الشعورية ويرسمها في لوحة فنية حتى تكون أكثر وقعا وتأثيرا في قلب المتلقي، وفي الوقت نفسه حتى يلقي اللوم على ابن خلدون الذي كان سببا في هذه الحالة التي آل إليها، وهذا يدل على مقدرة ابن الخطيب الأدبية في توظيف الألفاظ المناسبة للتعبير عن معانيه.

والمتصفح لهذه الرسالة يجد أن الكاتب ضمّنها أبياتا شعرية تارة من نظمه وتارة أخرى من نظم غيره بما يتناسب والمعنى الذي يريد بلوغه، فمثلا في هذا المقتطف يوظّف بيت جميل بثينة الذي اقتبسه من قصيدة له في غرض الغزل يشير فيه إلى العذاب الذي حلّ به حين تخلّت محبوبته عنه حتى صار كالميت، فالغرض من استحضار هذا البيت هو علاقة المشابهة بين الحالتين الشعوريتين، فابن خلدون كان هو الآخر سببا في ما آلت إليه مشاعر صديقه من ألم وحسرة

[1] ريحانة الكتاب (ابن الخطيب)، ج2، ص 136.

بسبب البعد وطول الغياب. والملاحظ أيضا أن الخطاب تفوح منه نبرة العتاب لابن خلدون لأنه كان سببا في هذا الشوق بعدما ترك صاحبه بعد مشايعته له، وفضّل الإقامة في بسكرة عند رئيسها أبي العباس بن مزنى، ورغم ذلك يجد عذرا لصاحبه الذي اختار المكان المناسب للإقامة، ومن هنا ينتقل من غرض الشوق إلى مدح بني مزنى. وهذه الرسالة آية في الجمال والإبداع، بما تزخر به من حسن صياغة، فقد علّق المقري عليها قائلا:« هذه الرسالة الرافلة في حلل البلاغة لم أر مثلها ولم أقف عليه».[1]

ولعل هذا التوظيف المكثف لمعاني الشوق المختلط بالعتاب التي وردت في خطابه تفسر اعتقاد ابن الخطيب الخاطئ بانقطاع المودّة مع صديقه وحصول الجفاء بينهما، لأنه كان قد أرسل رسالة قبل هذه لكن تأخّر وصولها، الأمر الذي جعل الوساوس والشكوك تخالج نفسه، فعدم تلقّيه الرد لاسيما أنه طلب منه أن يوافيه بأخباره، زاد من شدّة شوقه وتحسره وخوفه من أن يكون ابن خلدون تعمّد ألاّ يرد عليه، ومما جاء فيها قوله :« **يا سيدي إجلالا واعتداد، وأخي وُدا واعتقادا، ومحل ولدي شفقة سكنت مني فؤادا، طال علي انقطاع أنبائك، واختفاء أخبارك، فرجوت أن تبلغ النية هذا المكتوب إليك، وتخترق به الموانع دونك، وإن كنت في مُباثَّتك كالعاطش الذي لا يروى، والآكل الذي لايشبع، شأن من تجاوز الحدود الطبيعية، والعوائد المألوفة، فأنا الآن بعد انتهاء التحية المطلولة الروض بماء الدموع، وتقرير الشوق اللزيم، وشكوى البعاد الأليم، وسؤال إناحة القرب قبل الفوت من الله ميسر العسير، ومقرب البعيد، أسأل عن أحوالك سؤال أبعد الناس مجالا في مجال الخلوص لك، وأشدهم حرصا على اتصال سعادتك**».[2]

لا يكاد يخلو هذا النص من الألفاظ والعبارات الدالة على معنى الشوق، فالكاتب يعبّر عن المحبة التي تجمع بينهما، ويذكر الفراق الذي دام طويلا حتى انقطعت الأخبار بينهما، ثم ينتقل إلى التعبير عن مدى تحسره لفقدانه مشبها حاجته إلى صديقه بحاجة العطشان إلى الماء وبالآكل الذي لا يشبع، سائلا في الأخير الله أن يجمع بينهما، ومتمنيا له دوام السعادة. هذه المعاني لا

[1] نفح الطيب (أحمد المقري)، ج6، ص 395.

[2] التعريف بابن خلدون (ابن خلدون)، ص 124، 125.

تصدر عبثا أو طمعا في شيء ما، وإنما هي تعبير شعوري يكشف عن محبة صادقة نابعة من القلب. ولم يقتصر في هذه الرسالة على تشوقه إلى صديقه بل أردفها بذكر الأخبار التي تتعلق ببلاد الأندلس كافتتاح حصن آشر والانتصار على الكفار في العديد من المواقف، وما يدور في بلاد النصارى من خلافات بين ملوكها، وأخبره عن تصنيف كتاب (روضة النسرين بالحب الشريف) معارضة لكتاب (ديوان الصبابة) من تصنيف ابن أبي حجلة التلمساني.

وأجابه ابن خلدون معلنا هو الآخر محبته التي يبادلها إياه، جاعلا له مكانة في نفسه تعادل مكانة والده، ويقاسمه الشعور نفسه فهو في حالة حنين وشوق إليه منذ مغادرته للأندلس، يتطلع دائما إلى سماع أخباره ومعرفة أحواله، فما إن تحقق ذلك حتى خفّت آلامه وأحزانه، وأثلج صدره وزرع في نفسه الأمل للقائه مرة أخرى:« **سيدي مجدا وعلوان وواحدي ذخرا مرجوا، ومحل والدي برا وحنوا، مازال الشوق– مذ نأت بي وبك الدار، واستحكم بيننا البعاد– يرعي سمعي أنباءك، ويخيل إلي من أيدي الرياح تناول رسائلك، حتى ورد كتابك العزيز على استطلاع، وعهد غير مضاع، وود في أجناس وأنواع، فنشر بقلبي ميت السلو، وحشر أنواع المسرات، وقدح للقائك زناد الأمل، ومن الله أسأل الإمتاع بك قبل الفوت على ما يرضيك، ويسني أماني وأمانيك**».[1]

وهذا ابن خطاب المرسي يتشوق إلى صديقه القاضي أبي أمية الدلامي* حين حالت بينهما الظروف الطارئة ومصائب الدهر، ويعلل النفس بذكريات الماضي الجميل التي جمعت بينهما، ويبدي تحسره على ما هو فيه، ويتمنى زوال هذا الشعور ويتطلع إلى لقائه وسماع أخباره المفرحة التي تنسيه بعض وحشته، يقول :« ...**وإذا عاقت عن الاجتماع عوائق الزمن، وطوارق الفتن، فحسبي التعلل بذكراكم، والتوكل على النوم في مسراكم، على أن الرقاد لا ينم بجفني أو يراكم، فهل من وجه في حل هذا الدور؟ والتعالي عن هذا الطور؟...وإني لسائل عن**

[1] المصدر السابق، ص 130، 131.

* هو من قضاة فاس سنة (679هـ) في عهد السلطان أبو يوسف بن عبد الحق المريني. ينظر: الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، (مؤلف مجهول)، تحقيق: مُحَمَّد بن أبي شنب، مطبعة جول كربونل، 1920م، ص 188. روضة النسرين في دولة بني مرين (إسماعيل بن الأحمر) المطبعة الملكية، الرباط، 1962م، ص 19.

أحوالكم الكريمة، متشوف إليها تشوف المجد إلى الديمة، فإن تفضلتم بالإعلام بها، جمعتم من مسراتي مشتته، وأحييتم نفسا بالوحشة ميته».[1]

لقد عبّر الأدباء في رسائل الشوق عن مشاعرهم الجياشة التواقة إلى اللقاء ورؤية الأحباب الذين فرّق بينهم الدهر، وأفرغوها في قالب نثري وجداني صادق، إذ لا نكاد نجد موضوعا يعبّر فيه الكتّاب عن عواطفهم أكثر صدقا من هذا الغرض لأنه نابع من القلب لا يرجون من ورائه شيئا غير اللقاء الذي يريح النفس وينسيهم حسرتهم وألمهم، فهم غير مجبرين عليه كالعزاء مثلا أو التهنئة لأنها أحداث عارضة تستدعي ذلك، لكن فراق الأصدقاء الذي يطول أمده، والغربة عمن تجمعهم ذكريات جميلة هي التي دفعتهم دفعا إلى التعبير عن هذ التجربة الشعورية على عكس الأغراض الأخرى التي نلمس فيها أهدافا ومكاسب ترجى من ورائها.

ونجمل القول على أن رسائل الشوق التي تبادلها الكتّاب فيما بينهم في العصر الزياني، قد عبّروا فيها عن شوقهم وحنينهم إلى أصدقائهم بسبب البعد الذي تعدّدت واختلفت أسبابه، وعكسوا فيها مشاعرهم الصادقة التي اتسمت بالحزن والأسى والحسرة لطول الغياب وعبّروا فيها عن أملهم في اللقاء الذي يجمعهم مرة أخرى وينسيهم ما هم في من ألم وعذاب نفسي موظفين ألفاظا دالة على ذلك مثل: (البكاء، الشوق، العاطش، أسى، الوجد، تعشق، الفرج...)، وبالغوا في التأنق في صياغة الألفاظ والتراكيب وانتقائها، والاعتناء ببناء الجمل، والصيغ كالاستفهام والتعجب وغيرهما من التعابير التي تكشف عن تجربتهم الشعورية، وضمنوها من رقيق الشعر وعذبه ما يناسب ظرف الرسالة وغرضها.

4.2 رسائل الشفاعات والعنايات:

الشفاعة في اللغة اسم اشتق من الفعل شفع وهي بمعنى الطلب والإعانة، حيث جاء في لسان العرب «شفع إليه أي طلب إليه، والشافع الطالب لغيره يتشفع به إلى المطلوب»[2]، ووردت في مقاييس اللغة بمعنى الإعانة، «شفع فلان لفلان إذا جاء ثانيه ملتمسا مطلبه ومعينا له».[3] أما

[1] Edición y estudio del Fasl al jitab, (Hassan El –Ghailani), p182.

[2] لسان العرب (ابن منظور)، مج8، ص 184.

[3] معجم مقاييس اللغة (ابن فارس)، ج3، ص 201.

العنايات فمفردها عناية وهي مشتقة من الفعل عنى فالقول «عناه الأمر يعنيه ويعنوه عناية وعناية، وعُنِيًّا بمعنى أهمه، واعتنى به أهمه».[1]

ومنه يفهم أن رسائل الشفاعات هي طلب موجه إلى من يملك القدرة على تقديم يد المساعدة وقضاء الحوائج لإعانة شخص أو جماعة على أمر يهمهم ويشغل بالهم، كأن يتوجه الكاتب بخطاب إلى السلطان يطلب منه الصفح والغفران لصديقه الذي حلّت به مكربة ما. ويشترط في ذلك أن يكون المتخاطبان أقرب منزلة إلى بعضهما البعض أو تجمعهما مودة وصداقة حتى يتحقق المراد من الطلب، ويحتاج الكاتب في هذا الغرض إلى تنميق خطابه بعبارات ومعاني التلطف والتودد للمخاطب حتى يكسب عطفه ورأفته، وحتى لا يثقُل الطلب على الشافع، وبذلك يبلغ المشفوع غرضه ومراده الذي يصبو إليه.

ويغلب على هذا النوع من الرسائل التي تعرف أيضا برسائل الاستمناح طابع المدح التي يأتي فيه الكاتب على ذكر الصفات الحميدة للمرسل إليه وتعظيمه «فالمدح هو القالب العام الذي تصب فيه المعاني الأخرى التي يتوسط بها الكاتب لبلوغ أهدافه المنشودة سواء كانت من قبيل الاستعطاف أو الشفاعة أو التكسب أو الاستجداء».[2] لذا نلاحظ أنها استهلت بالثناء على المخاطب ومدحه وذكر خصاله الحميدة، والدعاء له.

أما الأسباب التي دعت إلى الكتابة في هذا الغرض في العصر الزياني، فتتعلق في الغالب بالظروف السياسية والاجتماعية المضطربة التي عرفتها بلاد المغرب العربي بخاصة المغرب الأوسط، وما يترتب عنها من رغبة في التنقل والاستقرار بحثا عن حياة رغيدة. ويمكن تقسيم هذه الرسائل بحسب المشفوع إليه إلى صنفين، صنف موجه إلى الملوك ومن يوازيهم في المرتبة، وصنف آخر موجه إلى طائفة أعيان الدولة، ووجهاء المجتمع كالوزراء والقضاة والعلماء وغيرهم.

[1] قاموس المحيط (الفيروز آبادي)، ص 1316.

[2] النثر الأدبي الأندلسي في القرن الخامس (علي بن مُحَمَّد)، ج1، ص 274.

ومما يلحق بالرسائل الموجهة إلى الملوك في هذا الشأن، الرسالة التي بعثها أبو بكر بن خطاب إلى يغمراسن بن زيان حين وصل إلى هنين* قادما من بلاد الأندلس راغبا في أن يعينه على خدمة الإمارة، وهي تبدأ بما تبدأ به كل رسالة موجهة إلى ملك من مدح ودعاء، يمهد بهما لنفسه لأجل الانتقال إلى غرضه حول طلب العناية على هذا النحو: « **فإن العبد أصدر هذه الخدمة...لائذا بحرمتكم قاصدا أن يتشرف بخدمتكم، فإن الله تعالى قد شرف بالانحياش إليكم ناسا، وجعل خدمتكم لكل خير وبركة أصلا وأساسا، وكسا من ارتسم في ديوانها من العزة والحظوة لباسا**».[1]

هذا طلب إعانة من كاتب وأديب مشهور نتيجة الظروف غير الملائمة التي أجبرته على الهجرة إلى تلمسان عند ملك اشتهر بحسن الاهتمام بهذه الفئة من النخبة، وذلك للتفريج عن همه وبؤسه، وليعوّض ما تركه وراءه من منصب ومال ومكانة مرموقة تليق به، حيث لم يتخذ ابن خطاب واسطة بينه وبين السلطان حتى يشفع له قبول طلبه، بل استغل مكانته العلمية وشهرته الأدبية، وخبرته ككاتب للرسائل ليخاطبه بصفة مباشرة حتى يعرض عليه طلبه وهو تبوّؤ منصب ديوان الإنشاء.

ويكشف هذا الخطاب أيضا، المكانة التي حظي بها ابن خطاب لدى السلاطين حتى أغنته عن اتخاذ واسطة تمكنه من تحقيق مآربه، فلم يكن بحاجة إلى من يعينه على ذلك غير حظوته ومقدرته الأدبية. وبالطريقة نفسها خاطب أحد أرباب الدولة بتونس يطلب منه إعانة تيسّر له شؤون حياته:« **وما القصد من جلالكم إلا فضل عناية استقبل بها عصر شبيبة جديدة، وأتفرغ لعلم أدرسه وأدارسه ولا شغل لي مند سنين عديدة، وها أنا أرتقب لطف الله سبحانه، حتى يلوح لي بارقه، ويطلع من أفقكم شارقه**».[2]

* هنين: مدينة تطل على البحر تقع شمال تلمسان وهي بقرب ندرومة. الروض المعطار في خير الأقطار (مُحَمَّد عبد المنعم الحميري) تحقيق: إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، ط2، 1984م، ص597.

[1] Edición y estudio del Fasl al jitab,(Hassan El –Ghailani), p166.

[2] Ibid, P233.

ولو انتقلنا إلى الرسائل الموجهة إلى الأعيان والكبراء لوجدنا منها ما كتبه لسان الدين لابن مرزوق شافعا في أحدهم، يقول:« **أنهي إلى مقامكم أن الشيخ كذا أبا فلان مع كونه مستحق التجلية بهجرة إلى أبوابكم الكريمة قدمت، ووسائل من أصالة وحشمة كرمت، وفضل ووقار، وتنويه للولاية أن كان ذا احتقار، وسن اقتضى الفضل بره، وأدب شكر الاختبار عليه وسره، له بمعرفة سلفكم الأرضى وسيلة مرعية، وفي الاعتراف بنعمتكم مقامات مرضية، وتوجه إلى بابكم ، والتمسك بأسبابكم ، والمؤمل من سيدي ستره بجناح رعيه في حالة الكبرة، ولحظه بطرف المبرة، إما في استعمال يليق بذوي الاحتشام، أو سكون تحت رعي واهتمام ، وإعانة على عمل صالح يكون مسكه ختام**».[1]

تبدأ هذه الشفاعة بوصف الكاتب لأحوال المشفوع له وما يشتمل عليه من صفات خُلقية كالحشمة والوقار، ثم ذكر استحقاقه للمساعدة المرجوة بسبب الإهمال والتهميش الذي طاله ولكبر سنه، ويتوسل إليه بتقديم يد العون لأجل توظيفه في منصب يليق به، أو رعايته والاهتمام به.

وله رقعة أخرى إلى ابن مرزوق في الغرض نفسه حيث بدأها بالمدح والثناء الذي يليق بمقام المخاطب، مشيرا إلى خصال ومآثر المشفوع له، ومشايعته للسلطان ليصل إلى طلب الشفاعة فيقول:« **وليعلم سيدي أن هذا القطر على شهرته، وتألق مشتريه وزهرته، إذا انتحل كرامه، وعهد الفضل لم يبق إلا انصرامه، فهو لبابه المتخير، وزلاله الذي لا يتغير، أصالة معروفة، وهمة إلى الإيثار مصروفة... وهو انتماؤه إلى جناب سيدي حديثا وقديما، واعترافه بنعمه مديرا ومديما، والله يوفي من إيثار سيدي حظه، ويجدد لديه رعيه ولحظه، حتى يعود خافقا علم إقباله معلما برد اهتباله، مسرورا ببلوغ آماله، فلعمري إن محل ولايته لكفي، وإن عهد أمانته لوفي، وإن عامل جده لظاهر وخفي**».[2]

[1] ريحانة الكتاب (ابن الخطيب)، ج2، ص 125، 126.

[2] نفح الطيب (أحمد المقري)، ج6، ص388، 389.

ومن أمثلة التشفع لدى أعيان الدولة التي تكون للتخفيف عن المشفوع له حين تضيق به السبل ويصيبه البؤس والشقاء ما كتبه أبو القاسم البرجي* إلى لسان الدين شافعا لبعض قرابته حيث يذكر له إلحاح المتشفع عليه في التوسط له، يقول:« ... **وموقفها بين يديكم فلان، يطالبني مطالبة الغريم، وأروم مطاله فلا يبرح ولا يريم، والانقياد في زمام طاعته مما توجبه المروة بعدما أوجبه الشارع إذ جعل له حظا في الأبوة، وقد أعلقته من ذمام علائكم بالحبل المتين، وأنزلته من حماكم بربوة ذات قرار ومعين، فإن أعرتموه من لحظكم الجميل طرف اهتبال ، وأبقلتموه من اعتنائكم الجزيل وجه إقبال ، فقد عاد دهره بعد النفار مواتيا، ونزل على أهل المهلب شاتيا، ومجدكم كفيل بتبليغ أمله، وتوسيع جذله**».[1]

ويعتبر وصف حال المشفوع له وذكر استحقاقه للمساعدة الجزء الأهم في هذه الرسائل، فهذا ابن خطاب يطرح معضلة المتوسل بكل بإيجاز ووضوح، يقول: « ...**وأن الأيام رمته من العيلة بعابثة في حالة عائثة، وأن الثمانين وبلغتها، قيدت خطاه، وقوست مطاه، فلا يستقل عند القيام إلا برجل ثالثة، وهذه الحالة لا بد لها من عامل من أفعالكم المتصرف بالخير يعمل فيها، وطيب من آرائكم المباركة يدبر اختلالها واعتلالها، ويشفيها، مع أنه قد أضعفت الكبرة قواه، وأودى غض شيبته التي أضواه، فنعمكم لديه تحفظ لسالفها الذمم، ويفي بحقوقها قلبه ولسانه إذا حالت القدم**».[2] هذه هي حال المشفوع له الذي انقلب الدهر ضده، وضعف بعد كبر سنه ولم يعد قادرا على تدبر أموره، عرضها الكاتب بإيجاز وبوضوح على أن الهدف المرجو من وراء ذلك كان هو الآخر دقيقا واضحا، فلم يجد من مغيث سوى المخاطب الذي لم يذكره الكاتب في رسالته، ولكن أشار إلى ما يتصف به من خير ومساعدة للناس.

* هو مُحَمَّد بن علي الغساني البرجي ويكنى أبا القاسم أصله من برجة بالأندلس ولد سنة (715هـ)، نزل تلمسان بعد أن تملك أبو الحسن المريني بجاية، وعينه أبو عنان كاتبا له في السر والإنشاء. قال عنه لسان الدين: « فاضل مجمع على فضله، صالح الأبوة، طاهر النشأة بادي الصيانة طرف في الخير والحشمة، صدر في الأدب جم المشاركة ثاقب الذهن جميل العشرة ممتع المجلس، حسن الخط والشعر والكتابة» وتولى القضاء بفاس. توفي سنة (786هـ) . ينظر ترجمته في: الإحاطة، ج2، ص 394. و نيل الابتهاج، ص449، 450. وشجرة النور الزكية في طبقات المالكية (مُحَمَّد بن قاسم مخلوف)، تحقيق: عبد المجيد خيالي، منشورات علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2003م، ج1، ص342.

[1] نفح الطيب (أحمد المقري)، ج6، ص 68.

[2] Edición y estudio del Fasl al jitab, (Hassan El –Ghailani), p161.

ومن الرسائل التي نرى أنها لم تكن للتفريج عن المكروبين الذين ضاقت بهم السبل حيث إنه لم يشر إلى ما يدل على معاناته وإنما الغرض هو الاهتمام والرعاية بالمشفوع له ، ما كتبه ابن خطاب المرسي إلى أبي أمية الدلائي شافعا لأحدهم، يقول:« **وموصله إليكم فلان، وبيني وبينه من البلدية ما لا يثبط عن رعيه مثبط، ولا يضيع حرمته إلا مفرط، فإن تداركه من التفاتتكم واهتمامكم ما يجد في سكونه وحركتة بركة أثره، وأثر بركته، فتلكم بيدكم المألوفة وشيمتكم المعروفة**».[1] حيث بدأها بمجاملة اشتملت على إبداء الشوق والتطلع إلى لقائه، على خلاف الرسائل الأخرى التي بدأها أصحابها بالمدح، ونحن نرى –وإن لم يكن ذلك متعمدا– أن الشوق تعبير عن المشاعر الصادقة خلاف المدح الذي قد تكون فيه المشاعر مزيفة ومزخرفة بالأكاذيب، فمن ناحية يكون أكثر تأثيرا في نفس المخاطب ومن ناحية أخرى يدل على علاقة الصداقة والمحبة المتينة التي تجمع بينهما والتي لا يُرفض لها طلب، فهذا الاستهلال في هذا النوع من الرسائل لاسيما إلى الأصدقاء يحقق الكاتب منه ما يصبو إليه من إعانة.

وكتب رسالة أخرى إلى أحد المؤذنين إلى الشيخ أبي القاسم بن الشيخ راغبا في خدمة الجامع، حيث أشار في مقدمتها إلى ما يتصف به المخاطب من كرم، وأشاد بمواضبته على مساعدة الناس وإعانتهم على قضاء حوائجهم، وداعيا له بطول البقاء والسمو والارتقاء، قال: «... **وملتمسا معونتكم على خدمة هذا الجامع الأعظم ومناره، ومراقبة أوقات الصلوات به في ليله ونهاره، فقد جعلكم الله للعون على الأعمال الصالحة أهلا، وسلك بكم إلى كل مكرمة جليلة طريقا سهلا**».[2]

ونشير هنا إلى أن رسائل الشفاعات التي أوردناها – على عكس الأنواع الأخرى – لم تتضمن موقف الردّ عليها بالاستجابة والقبول أو الامتناع والرفض، مما يوحي لنا أن أغلبها وجدت آذانا صاغية فاستجاب أصحابها، ولو كان العكس لوردت إجابات يعلل فيها أصحابها موقفهم من الرفض. ولعل ذلك يعود إلى كونها تضمنت طلبات معقولة فلا يوجد سبب لردها، والمعنيون بتلك المطالب سواء أكانت مادية أم معنوية هم أهل لها وقادرون على تحقيقها، فأغلبهم من الوزراء والقضاة وممن يتبوؤون مناصب مرموقة لا يجدون حرجا أو مانعا في رفضها، أضف إلى ذلك

[1]Ibid, P182.

[2]Ibid, P180.

علاقة المودة والصداقة التي جمعت بين أصحاب الرسائل والمتشفعين الذين ترجى شفاعتهم، وحاجتهم إلى بعضهم بعضا في قضاء حوائجهم لاسيما عند الملوك والسلاطين.

وما يؤكد هذا الطرح الذي ذهبنا إليه، الرسالة التي وردت جوابا عن عناية كتبها ابن خطاب، وقد تضمنت قبول الطلب المتمثل في الاهتمام بولي صالح ورعايته، قال: «**ونبّه مجدكم على خديمه فلان حفظه الله لنعتني به اعتلاء ينهضه على ما وصل لتخليصه من مآربكم، وهذا الولي المبارك ممن نعرفه عينا واسما... ولو كان عندنا نكرة لأثبتناه في المعارف، وجعلنا عليه من الإيثار أسبغ المطارف لحظا، لانتمائه إلى خدمتكم وانضوائه إلى كنف حرمتكم، وما زال اهتمامنا به مذ وصل إلى هنا يطيف بجوانبه، وإنهاضنا له يسهل من مرامه ما ليس يدان به، فما ينفصل من هنا إلا مقضي الأوطار على اختياركم واختياره، مصاحبا بالرعي الأشمل في مقامه وتسياره، إن شاء الله، وهكذا نصنع مع كل من نعلم أنه يمت إليكم ولو بأدنى الوسائل**»[1]

يبدو جليا من هذا الجواب عن رسالة عناية أن هناك علاقة مودّة وصداقة متينة بين المشفوع إليه وبين الشافع الذي لم يرد ذكر اسمه، لكن فيما يبدو أنه هو الآخر من ذوي الشأن ممن لهم صلة مباشرة ببلاط السلاطين، ولقد تجلت هذه الروابط في معاني الثناء والمدح التي استهل بها ابن خطاب خطابه، فهي التي كانت سببا في قبول الطلب الموجه إليه حيث أعلن له اهتمامه بالمشفوع له ورعايته مع تحقيق جميع طلباته، ومصاحبته أثناء إقامته وأثناء رحيله، وذكر أن صنيعه هذا المتمثل في مد يد العون ومساعدة الآخرين لا ينطبق فقط على هذا الولي الصالح بل على جميع من له صلة بالشافع. وفي هذا دليل على أن رسائل الشفاعات قوبلت بالاستجابة للعلاقة التي جمعت بين الشافع والمشفوع إليه. وفي اعتقادنا أيضا، أن هذه الرسائل لم تكتب من طرف أصحابها إلا عن معرفة ودراية منهم أن طلباتهم ستجد آذانا صاغية، وأياد سابغة تحقق لهم مقاصدهم ومآربهم، ومما لا شك فيه أيضا أن هذه الرسائل كانت متبادلة بين الكتّاب الذين يتبوؤون مناصب مرموقة لقدرتهم على المساعدة وللحاجة الدائمة إلى بعضهم بعضا.

[1] Edición y estudio del Fasl al jitab, (Hassan El –Ghailani), p153.

كما يلاحظ على هذه الرسائل خلوها من الإشارة إلى الأسباب الحقيقية التي دفعت المتشفعين إلى طلب المساعدة، لكن أغلبها تضمن رغبة هؤلاء في الهجرة والتنقل ما يوحي لنا أن الدافع إليها هو النكبات والمضايقات التي تعرضوا لها، فوجدوا أنفسهم عاجزين حتى على مخاطبة من يتوسمون فيهم القدرة على تفريج كربهم وهمومهم، إما لعجزهم وعدم تمكنهم من الأدب، أو مراعاة لمكانتهم الاجتماعية التي هي أدنى ممن يشفعون فيهم، ما اضطرهم إلى الاستعانة بمن يشتملون على سمعة طيبة وقرابة تجمعهم بالمشفوع إليهم، فوجد الأدباء والكتّاب فرصة سانحة استغلوا فيها بلاغتهم الأدبية وقدرتهم الإنشائية فذبحوا بها رسائل في التوسل إلى الملوك والأعيان، لمن هم أهل للشفاعة والعناية من الأصدقاء وذوي الشأن، حيث جسّدوا فيها أسمى آيات التضامن والتآزر الاجتماعي. وقد تميزت بجمال الأداء ودقة الصياغة، وحسن التلطف في الخطاب، طلبا للغاية المنشودة وهي التأثير في نفس المستشفع به، كما اتسمت بالإيجاز.

5.2 رسائل العتاب الاعتذار والشكوى:

العتاب لغة هو «مخاطبة الإدلال وكلام المدلين أخلاءهم طالبين حسن مراجعتهم، ومذكرة بعضهم بعضا»[1]، وهو بذلك ملازم للمودة والمحبة التي تنشأ بين الأصدقاء حين يعكرّ صفوها عارض ما، فمثلا حين يشعر المرؤ ببرود عاطفي و فتور في علاقته بمن يكنّ له المودة يسارع إلى تنبيهه واستنكار ذلك، ليس هجاء له، وإنما حبا له ورغبة في دوام أواصر المحبة التي تجمع بينهما، فهذا النوع من الرسائل يكون موجها في الغالب إلى الأصدقاء المقربين حين يستشعر منهم ابتعاد وانقطاع للأخبار.

أما الاعتذار فيعد خصلة حميدة لا يرقى إليها إلا صاحب خلق رفيع، وأدب قويم، ولا يكون ذلك إلا ممن بدر منه تقصير أو خطأ في حق غيره، أو اقترف ذنبا أو جرما يلام عليه، فيحاول بذلك تلطيف الأجواء وإعادة المياه إلى مجاريها ولا يكون ذلك إلا بالثناء عليه ومدحه بأجمل الصفات، وعلى هذا النهج استهلت المكاتبات بين الأصدقاء، وكان ذلك بسبب تأخر الرد على الرسائل، أو عدم إيفاد رسول، أو انقطاع الأخبار، أو لكلام سيّئ بدر من أحد الطرفين.

[1] لسان العرب (ابن منظور)، مج1، ص 577.

والشكوى التي اشتقت من الفعل شكا هي «إخبار شخص عن سوء فعله بك، ومنها الشكاية وهي إظهار ما يصفك به غيرك من المكروه، ومنها الاشتكاء وهو إظهار ما بك من مكروه أو مرض ونحوه».[1] ومنه يفهم أن الشكوى تكون في الأمور المذمومة التي تقع للإنسان من ظلم أو سلب أو مرض أو فراق محبوب، أو التعرض لكلام جارح وغير ذلك فتحدث له أثرا بالغا وجرحا عميقا في النفس، فيبحث عما يشفي غليله، فيلجأ إلى مخاطبة من كان سببا في ذلك أو من هو أعز الناس إليه يبثه أحزانه وآلامه لأنه يرى نفسه ليس أهلا لما أصابه.

ومن الرسائل التي تضمنت غرض العتاب رسالة ابن الخطيب لابن خلدون حين ازداد عنده ولد ولم يخبره بذلك، فهو يرى أنه أولى الناس بإخباره، قال: «**غير أنني والله يغفر لسيدي، بيد أني راكع في سبيل الشكر وساجد، وأنا عاتب وواجد، إذ كان ظني أن البريد إليّ بهذا الخبر يعمل، وأن إتحافي به لا يهمل، فانعكست القضية، ورأيت الحال المرضية، وفضلته الأمور الذاتية لا العرضية، والحكم جازم، وأحد الأمرين لازم... وإذا لم يبشر مثلي بمنيحة الله قبل تلك الذات السرية، الخليقة بالنعم الحرية، فمن الذي يبشر، أو على من تعرض برها وينشر، وهي التي ولصلت التفقد وبهرجت المعاملة وأبت أن تنقد، وأنست الغربة**».[2]

وإذا كان هذا العتاب موجها إلى الأصدقاء فإن هناك نوعا آخر يكون بين المرء ونفسه حين يشعر الإنسان أنه أخطأ القصد فيلقي باللائمة على نفسه، فهذا ابن خطاب يشبّه ابتعاده ومفارقته لشيخه بالراعي الذي يرعى في أرض قاحلة لا نبات فيها كإشارة منه إلى غزارة علم شيخه وتفوقه في العلم، قال: « **فكنت ألوم نفسي على الإقامة في محل جذب والمرعى الخصب أمامي، والغمام الصيب يعدني وميضه بنفع أوامي، فأقمت على حد الأسل، وعدت عواد دفعت في صدر الأمل**».[3]

والرسائل الواردة جوابا على هذا الغرض هي الأخرى لا تكاد تختلف عنه في مضامينها لأن الشعور نفسه يكون متبادلا بين المتخاطبين فهي «لا تخلو من الإجابة بالإعتاب والإصرار على

[1] المصدر السابق، مج14، ص 439.

[2] ريحانة الكتاب (ابن الخطيب)، ج2، ص 179.

[3] Edición y estudio del Fasl al jitab, (Hassan El –Ghailani), p234, 235.

العتاب»[1]، وتأتي متضمنة ردّ التهم والتنصل من الأسباب التي كانت وراء لومهم وغضبهم، أو تبرير الأخطاء التي وقعوا فيها. ومن ذلك جواب ابن خطاب عن رسالة عتب واصفا ما جاء فيها، قال: « **إيه أيتها العقيلة المزورة، والخميلة المفترة، نفشت بخفي أسرارك، وحدّثت عن ذكي أزهارك فوهبت جسيما جليلا، وهببت نسيما بليلا، ثم انقلبت إعصارا والتهبت نارا، فتلونت كالحرباء، وتكونت بين الاستكانة والإباء، ... مثلك لا يزرى بغيره، ولا يسبق وإن تمهل في سيره، فاقصري بين خطاك، وانظري بعين رضاك، وعددي بلحظ الحسنى، وجودي بالحظ الأسنى، وكفّي عتابك، ووفّي إعتابك، وحفّي إحفافك، واخفضي جناح الرحمة، واعرضي أسجاحك نعمة، واقبضي جماحك عصمة**».[2]

واضح أن الرسالة التي أرسلت إلى ابن خطاب في شأن العتاب استهلها صاحبها بمدحه ثم انتقل بعد ذلك إلى عتابه ولومه، وهذا ما يتبين في هذا النص، وفيما يبدو أن لغة الخطاب كانت قوية وأثرت في نفسه تأثيرا بالغا حيث شبّهها بالإعصار الذي يخلّف وراءه دمارا هائلا وبالنار التي تحرق كل شيء، ونراه يترجاه أن يكف عن عتابه ولومه، وألا يبالغ في ذلك، وأن ينظر إليه بعين الرحمة والشفقة، لاسيما وأنه قد أرسل إليه كتابا يبين قصده ونيته راغبا في إحياء المودة بينهما، قال :« **غير أني أنكرت من مرسلك تقصيرا، فوهبت لأول ما عرفت منه أخيرا، وخاطبته فيما مضى بكتاب نبهته فيه على ما في نفسي يخفي الايعاض، لا على جهة الارتماض، وجاريته في مضمار الخلوص شرفا، وجاذبته من حلو العتاب طرفا، أردت بذلك إبداء القصد الأحفى، وإحياء الود الذي أشفى، فهل أنا في ذا يا لهمدان ظالم، وهذا كتابي بيده، فيسعد لله نظرا، ولتفقد هل أنغصته كما قال حجرا؟ والله يعلم أني ما قلت إلا حقا لا يسع إنكاره ولا يتقنع نهاره، وقد أقر بما أتى بعدما أصر وعشا، وتشبه بالمعتدر، وتمثل بما قال سبحانه في قصة موسى والخضر، ووعد أنه ينبأ بالتأويل، ويحرر حجته على مقتضى مقدمات التحليل، وما كفاه أن سقاني بكأس تأنيبه الفظيعة، حتى ختم إلي كتابه بسلام القطيعة**».[3]

[1] صبح الأعشى (القلقشندي)، ج9، ص199.

[2] Edición y estudio del Fasl al jitab, p209 ,210.

[3] Ibid, p211.

لقد وقف ابن خطاب في هذا النص موقف المدافع عن نفسه لأنه يعتقد أنه لم يرتكب أي خطئ أو ذنب يستحق العتاب واللوم، ولم يرد أن يقحم نفسه في سجال قد يطول أمده، ويكون سببا في جفاء المودة بينهما، وهو لا يضاعف من حدّة الخطاب ولا يزيد من شدته كما تكشف عنه الألفاظ والمعاني التي وظفها، بل يحاول في كل مرة تجنب الرد عليه بالمثل، ويتلهف لعودة المياه إلى مجاريها وإلى سابق عهدها كما كانت عليه أول مرة، لذلك نجده في آخر الرسالة يذكّره بالذكريات الجميلة التي جمعتهما، ويتشوف إلى جواب منه ينهي به هذا اللوم.

وكتب ابن خلدون يجيب لسان الدين عن رسالة كتبها* وهو بتلمسان بعد خروجه من الأندلس خوفا من بطش السلطان فرد عليه قائلا:« **فأنا أحاشيكم من استشعار نبوة، أو إحقاق ظن، ولو تعلق بقلب ساق حرّ ذرءٌ وذرءٌ ، فحاش أن يقدح في الخلوص لكم، أو يرجح سوابقكم، إنما هو خبيئة الفؤاد إلى الحشر أو اللقاء**»[1] أشرنا سابقا أن سبب خروج ابن خلدون من الأندلس هو شعور بتغير حال صديقه اتجاهه، وها هو نراه ينزّهه من إضمار الجفوة، ويدعوه إلى عدم تصديق ظنونه حتى لا تتحول إلى حقيقة راسخة في ذهنه.

وبرّر له عدم اللحاق به إلى الأندلس بالقدر الذي حال بين ذلك، إذ كان عازما على الانتقال لولا أسره، قال :«**وقد علم – أبو عبد الله الشقوري– ما كان مني حين مفارقة صاحب تلمسان، واضمحلال أمره، من إجماع الرحلة إليكم والخفوف إلى حاضرة البحر للإجازة إلى عدوتكم، تعرضت فيها للتهم ووقفت بمجال الظنون، حتى تورطت في الهلكة**[**] **... كل ذلك شوقا إلي لقائكم، وتمثلا لأنسكم فلا تظنوا بي الظنون، ولا تصدقوا في التوهمات فلا تظنوا بي الظنون، ولا تصدقوا في التوهمات... ولأمر ما تأخر كتابي من تلمسان فإني كنت استشعر ممن استضافني ريبا بخطاب سواه خصوصا جهتكم**».[2]

---

* هذه الرسالة كتبها لسان الدين إلى صديقه عبد الرحمن بن خلدون حين كان ببسكرة يلومه فيها على كلام بدر منه وعلى عدم مراسلته، ولم نعثر على هذه الرسالة بين المصادر التاريخية والأغلب أنها ضاعت.

[1] التعريف بابن خلدون (ابن خلدون)، ص 151.

** يشير هنا ابن خلدون إلى المهمة التي كلفه بها سلطان تلمسان أبو حمو موسى الزياني سفيرا إلى الأندلس حاملا رسالة إلى ابن الأحمر والتي فشل في الوصول إليها بعد أن علم السلطان المريني عبد العزيز بخبره، فأرسل من يعترض طريقه وقام بسجنه. ينظر: التعريف بابن خلدون، ص143، 144.

[2] المصدر نفسه، ص151، 152.

إن هذا النوع من العتاب الذي تضمنته هذه الرسائل لم يكن بسبب أخطاء فادحة ارتكبها هؤلاء بل جاء في أغلبه حين انقطع التواصل بين الأدباء والكتّاب، فبادروا إلى لوم أصدقائهم ظنا منهم أنهم تعمدوا هذه القطيعة أوحين شعروا بألم الفراق شوقا إليهم، ولم يكن لومهم نابعا من نفس حقودة تكن الضغينة والكراهية لمثل هذه الأسباب، بل إن في هذا اللوم محبة مضمرة تكشف عن الروابط المتينة التي جمعت بين الأدباء في هذا العصر.

أما فيما يتعلق برسائل الشكوى والاعتذار فقد كتب لسان الدين في هاذين الغرضين رسالة بعث بها إلى عبد الرحمن بن خلدون يعتذر إليه لعدم تمكّنه من إرسال رسول إليه، قال: « ...**لو كان مستقركم بحيث يتأتى لي إليه ترديد رسول، أو إيفاد متطلع، أو توجيه نائب، لرجعت على نفسي باللائمة في إغفال حكم، ولكن العذر ما علمتم**».[1] فهذا النوع من الاعتذار كان شائعا بين الأدباء والعلماء الذين جمعتهم ببعضهم بعضا علاقات أخوية وكانوا كثيرا ما يتراسلون فيما بينهم، فكلما كان هناك عائق حال دون التواصل سواء أكان من لدن شخص واحد أم من كلا الطرفين إلا ووجد الاعتذار مبثوثا في رسائلهم ليس كغرض قائم بذاته وإنما سيق في مضمون نصوصهم يراد به تبرير هذا الانقطاع عن التواصل، وهذا ما فعله لسان الدين في هذا المقتطف، وجرت العادة أن يتبادل هؤلاء الأخبار فيما بينهم المتعلقة بالكاتب وأحواله، فلم يتوانى في هذه الرسالة يشكو تغيّر مزاجه وأسقاما مستعصية أصابته، قال:« **فاعلموا أني قد بلغ بي الماء الزبى، واستولى علي سوء المزاج المنحرف، وتوالت الأمراض، واعوزّ العلاج، لبقاء السبب، والعجز عن دفعه، وهي هذه المداخلة جعل الله العاقبة فيها إلى خير، ولم أترك وجها من وجوه الحيلة إلا بذلته، فما أغنى ذلك عني شيئا**».[2]

وخاطب في مثل ذلك ابن خطاب صديقه القاضي أبي أمية الدلائي فبعد أن أثنى عليه، ها هو يشكو ما تعرّض له من مكروه وأحوال غير مناسبة، ومرض حل به وأقعده الفراش، قال: «... **وسدّت علي طرق الحيل، من شكايات ملازمة، وأحوال غير ملائمة، وحوادث قنعت بغير المقنع، وأرضت سعدا وقد خلفت آخر الأربع، وإني منذ تسعة أشهر نضو الفراش صنو**

[1] التعريف بابن خلدون، ص 137.

[2] المصدر نفسه، ص 138.

الفراش... ومع ما أنا فيه من مكابدة المتاعب، ومجاهدة النوائب، فلساني رطب بشكر الله تعالى على صنائعه الجميلة، وعوارفه الجزيلة».[1]

وله أيضا في مثل ذلك، ولكن هذه المرة يشكو ما أصابه أثناء سفره من مشقة وتعب:«... **على أني لقيت من سفري هذا نصبا، وقضيت من السلامة فيها عجبا، وكابدت مشاق لم أجد منها إلا إليها هربا رحيل وحلول، وصعود ونزول، وبرد وريح، ومهامه فيح، وشوامخ ما العقل لرقيها مبيح، سالكها من الذعر نزيف، وموحشها يسمع للجن به عريف.»**[2]

وما يلحق بكتب الاعتذار كتب الإجابات عليها، حيث كتب ابن خطاب إلى أبي بكر بن أبي جمرة يجيبه عن كتاب اعتذر فيه إليه عن كلام بلغه عنه، قال:« **وتضمن الكتاب التنصل من أمور اقتضتها الفتنة، ولحقت فيها غير المتهم الظنة، وقد انصرمت تلك الأمور، وتطهرت من دنس أضغانها الصدور، فأنا أرى ألا نرجع إليها القهقري، وأن نلقى ما قيل كان الصادق من الحديث أو المفترى. فلا تخطروها بخواطركم، ولا تتكلفوا في الباءة منها ما تكلفتم من معاذركم بجانبكم».**[3] بالرغم من أن المعتذر يعدّ من تلاميذ ابن خطاب كان قد تعرض لشيخه يتهمه بأمور لا أساس لها من الصحة كما هو مبين في نص الرسالة، ها هو شيخه وأستاذه يجيبه مشيرا إلى قبول اعتذاره راجيا منه نسيان ما جرى، وعدم العودة إلى تلك الجفوة التي حصلت بينهما كونها صارت من الماضي، فنفس الشيخ لا تُكنّ له أي حقد أو ضغينة فقد صفا قلبه من ذلك، داعيا إياه ألا يحمل همّها وثقلها في نفسه، وهذا الردّ الذي تضمنه هذا الخطاب يكشف عن نفس طيبة متسامحة، إذ لم يتردد في قبول اعتذاره وهذا من شيمة الأصفياء.

ويفهم من هاذين الغرضين سواء أكان الاعتذار الذي يدل على خصلة حميدة في النفس أم الشكوى أنهما يثبتان علاقة المودة والمحبة التي جمعت بين الكتّاب في هذا العصر، فالإنسان لا يعتذر إلا لمن يملك معزّة ومكانة في قلبه، ولا يشكو سوء أحواله إلا لصاحب القرابة الروحية تخفيفا عن النفس، لأنه يجد فيه آذانا صاغية فيواسيه في علته ويدعو له بالشفاء وطول البقاء ودوام

[1] Edición y estudio del Fasl al jitab, (Hassan El –Ghailani), p234, 235.
[2] Ibid, p208.
[3] Ibid, p188.

الصحة. وما يلاحظ أيضا على هذه الشكاوى أنها كانت بسبب علة ذاتية لا اجتماعية فكثيرا ما يتعرض الإنسان إلى مرارة الفقد والظلم والبعد والمرض وغير ذلك من المصائب التي تكسبه مرارة ووجعا نفسيا، وهي تتعلق بذات الكاتب دون غيره أدّت به إلى عدم الاستقرار النفسي ونوع من التعاسة والخوف.

ومن رسائل الشكوى التي أخذت نمطا مغايرا تماما لما سبق رسالة ابن مرزوق التي بعثها بعد وفاة السلطان أبي سالم ودخوله السجن مع نية قتله، فلم يجد سبيلا إلى النجاة غير توجيه خطاب إلى السلطان يشكو فيها ما حل به، حيث اعتمد فيها الأسلوب المباشر الذي يقوم على الإقناع والتأثير وذلك بإبراز مكانته العلمية بخاصة إسناد الأحاديث النبوية الصحيحة، واعتلاءه المنابر مدة طويلة، وفضله على دولة بني مرين التي خدمها مدة طويلة، ونصها: «**الحمد لله على كل حال ، أخرج الطبراني في منسكه، وأبو حفص الملائي في سيرته عن عبد الله بن عمر بن الخطاب، وعبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ، أنهما قالا: وقف رسول الله ﷺ على الثنية التي بأعلى مكة، وليس بها يومئذ مقبور، فقال: يبعث الله من ها هنا سبعين ألفا يدخلون الجنة بغير حساب، يشفع كل واحد منهم في سبعين ألفا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عقاب، ووجوههم كالقمر ليلة البدر، فقال أبوبكر: من هم يا رسول الله؟ فقال: هم الغرباء من أمتي الذين يدفنون ها هنا. ففي هذا الموضع دفن والدي رحمه الله، وبعد سماعه هذا الحديث بسبعة أيام دفن فيه، أفتراه لا يشفع فيمن أقال عثرة والده، أفما يشترى هذا بأموال الأرض، أفلا يراعى لي ثمانية وأربعين منبرا في الإسلام شرقا وغربا وأندلسا، أفلا يراعى لي أنه ليس يوجد من يسند الأحاديث الصحاح سماعا من باب الإسكندرية إلى البربر والأندلس غيري، وقراءة عن نحو من مائتين وخمسين شيخا، والله ما أعلمه، لكن حرمني الله منه، فنبذت الاشتغال به وآثرت اتباع الهوى والدنيا، فهويت، اللهم غفرانك، أفلا يراعى لي مجاورة نحو اثني عشر عاما، وختم القرآن في داخل الكعبة، والإحياء في محراب النبي (ﷺ) والإقراء بمكة، والله أعلم من له هذه الوسيلة غيري، أفلا يراعي لي الصلاة بمكة ستا وعشرين سنة، وغربتي بينكم، ومحنتي في بلادي على محبتكم وخدمتكم، من ذا الذي خدمكم من الناس يخرج على هذا الوجه،**

أستغفر الله، أستغفر الله، أستغفر الله من ذنوبي، ذنوبي أعظم، وربي أعلم، وربي أرحم والسلام».[1]

لقد جاء ابن مرزوق بأسلوب مغاير تماما لما رأيناه سابقا، إذ استهل نص خطابه بحديث نبوي شريف أراد أن يثبت فيه أحقّيته بالرعاية والاهتمام، فهو -بحسب نص الحديث- ممن تحل فيهم الشفاعة في الآخرة، وعدّد بعد ذلك كفاءاته التي حفل بها طيلة سنوات عديدة فهو الذي اعتلى ثمانية وأربعين منبرا خطيبا، ومعرفته بأسانيد الأحاديث النبوية الشريفة وقراءته عن نحو مائتين وخمسين شيخا، أضف إلى ذلك تفضيله الهجرة إلى فاس وخدمته للبلاط المريني لسنوات عديدة، كل تلك الصفات والفضائل التي اشتهر بها لم تشفع له بين يدي السلطان، ولم تكن كافية ليُنظر إليه بعين الشفقة والرأفة وليعامل معاملة العلماء، كل ذلك جاء باستخدام الاستفهام التعجبي الذي يكشف عن مدى حسرته وألمه، فكأني به يتوسل مخاطبه للعفو والصفح عنه.

وتتجلى معاناة ابن مرزوق داخل السجن وما تعرض له من ظلم فهو يرى أن مقامه السياسي الذي تبوّأه ومكانته العلمية وخدمته للمرينيين سنوات طويلة لا يجب أن تكافأ بمثل هذه الطريقة التي تجشم قسوتها ومراراتها، فقد بث شكواه وحسرته بأسلوب مباشر صريح لا تنميق ولا تزويق فيه، بل اعتمد على لغة الإقناع والبرهان حتى يثبت أنه ليس أهلا لأن يسجن ويعامل معاملة المجرمين، وقد تجلت في هذه الرسالة قوة الخطاب فبالرغم من كونه موجها إلى السلطان لم يذكره ابن مرزوق ولم يشر إليه البتة، ولم يعتمد على مدحه ومجاملته، ولم يتملق إليه كما جرت عليه عادة الكتّاب في مخاطبة ذوي الشأن الرفيع حين يريدون قضاء مآربهم وكسب ود ودعم الملوك لهم، بل وقف مدافعا عن نفسه أمام هذا الظلم الذي تعرض له استنادا إلى مكانته الاجتماعية ورصيده العلمي.

[1] نيل الابتهاج بتطريز الديباج (أحمد بابا التنبكتي) إشراف وتقديم: عبد الحميد عبد الله الهرامة، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس- ليبيا، ط1، 1989م، ص453، 454. نفح الطيب (أحمد المقري)، ج5، ص415.

6.2 الرسائل الوصفية:

لم يكن من السهل أن نتناول في هذه الدراسة الأغراض التي تضمنتها الرسائل الإخوانية في العصر الزياني دون أن نتطرق إلى غرض الوصف الذي يعد فنا بارزا من فنون الأدب العربي الراسخ منذ القدم في شتى الأجناس الأدبية الأخرى الشعرية والنثرية، حيث طغى على جميع الأغراض الشعرية القديمة من مدح وهجاء ورثاء وغزل وغيرها من الأغراض، فشكل هذا الفن محورا رئيسا في إبداع الأدباء فكان بمثابة القالب الذي يفرغون فيه طاقتهم الإبداعية، وذلك يكون عن طريق «نقل صورة العالم الخارجي أو الداخلي من خلال الألفاظ، والعبارات، والتشابيه، والاستعارات التي تقوم لدى الأديب مقام الألوان لدى الرسام، والنغم لدى الموسيقي، وهو تعبير عفوي عن المشاعر التي يحس بها الأديب أمام الأحداث، والمشاهد المحيطة به، أو العوامل الفاعلة في وعيه، وفي لا وعيه».[1]

ولم يقتصر هذا الغرض على الشعر لوحده، بل حين بدأ النثر الفني يتشكل ويتوسع شيئا فشيئا مع تطور الكتابة الفنية زاحمه في شتى الأغراض والمواضيع، فقد أَلف الكتّاب –كما رأينا آنفا– الكتابة في بعض المواضيع التي اختص بها الشعر، ونقلوا إلى النثر محاسنه، وصار أقدر على الوصف لخلوه من القيود الشعرية من وزن وتقفية[2]، فراح المترسلون في أغلب العصور الأدبية على غرار العهد الزياني ينهجون النهج نفسه فأبدعوا في هذا الميدان اعتمادا على تصوير المشاهد والصور الحسية والمعنوية.

وأول ما يستوقفنا عند دراسة هذا اللون من الرسائل الأدبية في العهد الزياني – بالنظر إلى ما بين أيدينا من رسائل– هو عدم استقلال غرض الوصف بذاته عن المواضيع الأخرى بل نجده مبثوثا بين ثنايا الرسائل المتبادلة بين الأصدقاء، وغالبا ما كانوا يستهلون به رسائلهم، فبعد تصفحنا لمضامينه وجدناه على النحو الآتي:

[1] المعجم الأدبي(جبور عبد النور)، دار العلم للملايين، بيروت، ط2، 1984م، ص 293.

[2] ينظر النثر الفني في القرن الرابع (زكي مبارك)، ص 107.

1.6.2 وصف الرسائل والكتب المتبادلة:

أبدى الكتّاب في هذا العهد إعجابهم وانبهارهم بالكتب المرسلة إليهم من طرف الأصدقاء، وكثيرا ما أسبغوا عليها من أرق النعوت وأجمل الأوصاف التي تليق بأدبيتها وبلاغتها وفصاحتها، ومما يلاحظ على هذا اللون من الوصف اشتراك كثير من الأدباء في إضفاء معاني السرور والفرح بورود الرسائل عليهم بخاصة في غرضي الشوق والمجاملات، وهذا الشعور يفسر المحبة المتبادلة بينهم والعلاقات المتينة التي جمعتهم، ومن أمثلة ذلك ما ورد في رسالة ابن الحاج النميري* يصف رسالة ابن الخطيب، يقول: «**إيه يا سيدي ما هذه الكلمات السحرية والأنفاس النفيسة الشجية، والألفاظ التي أنالت المرغوب، وخالطت بشاشتها القلوب، والنزعات الرائقة، والأساليب الفائقة، والفصاحة التي سلبت العقول، والبلاغة التي أوجبت الذهول، والبيان الذي لا يضيق صحيفه، ولا يبلغ أحد مده ونصيفه، يمينا بما احتوى من المحاسن، واللطائف التي لم يكن ماؤها بالآسن، وقسما ببراعتك التي هي بالواسي المطاع، وطرسك الذي أبهجت به الأبصار والأسماع، لقد عاد لي بكتابك عيد الشوق، وجاد لي بخطابك جد التوق**».[1]

لقد بالغ الكاتب في وصف هذه الرسالة حين نعتها أنها ساحرة، تدخل البهجة على القلوب، وأساليبها فائقة، وفصاحتها تسلب العقول، وبلاغتها توجب الدهشة، وبيانها يتعذر على الأدباء، فأحدث أثرا عميقا في نفس المتلقي بأن أحيت فيه الحنين والشوق إلى صديقه. فهذا النص الوصفي يكشف لنا عن سمو منزلة ابن الخطيب بين أدباء عصره، وقدرته الفائقة على جلب الألفاظ والمعاني وحسن صياغتها، وتزينها بروائع البيان والبلاغة.

---

* هو إبراهيم بن عبد الله بن إبراهيم النميري أبو القاسم المعروف بابن الحاج (713هـ – 786هـ) شاعر من شعراء العصر الأندلسي ومن كبار الكتّاب. ولد بغرناطة، وارتسم في كتاب الإنشاء سنة (734هـ) ثم رحل إلى المشرق فحج وعاد إلى تونس فخدم بعض ملوكها ببجاية وخدم سلطان المغرب الأقصى، وانتهى بالقفول إلى الأندلس فاستعمل في السفارة إلى الملوك وولي القضاء بالإقليم بقرب الحضرة. نزل بتلمسان خلال رحلته، وله شعر جيد ومؤلفات منها "المساهلة والمسامحة في تبيين طرق المداعبة والممازحة" و"تنعيم الأشباح في محادثة الأرواح" ورحلة سماها "فيض العباب وإجالة قداح الآداب في الحركة إلى قسنطينة والزاب." ينظر ترجمته في: الإحاطة في أخبار غرناطة، ج1، ص 242 وما بعدها، الكتيبة الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة (لسان الدين بن الخطيب) تحقيق: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1983م، ص260.

[1] الإحاطة في أخبار غرناطة (ابن الخطيب)، ج1، ص356.

وهذه شهادة أخرى من ابن خلدون حين وصف رسالة ابن الخطيب التي تزخر بالعلوم والآداب، قال: «**وصلني كتابك الكريم، بل فضلك الباهر العميم، بل تشريفك الأسنى العظيم، بل منشورك الذي له في مقام الحمد التقديم، فطالعت ما شئت من علوم تفجر يمنها، وآداب تفتح في تلك الخمائل زهرها**».[1]

ومن الرسائل الوصفية التي انصبت على هذا اللون من التصوير الفني، ما ورد في جواب ابن خطاب عن رسالة اعتذار بعثها إليه أبو بكر بن أبي جمرة، حيث أضفى عليها وصفا حسيا مشبها إياها بالزهرة التي أحيت فيه شبابه وأذهبت وحشته، وذكرته بالماضي الجميل: «**وقد وصل – وصل الله عزكم– كتابكم الكريم، زهرة جاد بها زمن الربيع، وجلل في صفحاتها رواء الحسن البديع، أنشقتني ريح الشباب، وعطفت على عنان أنس، كان مزمعا للذهاب، فاهتزت لوارده اشتياقا، وذكرني بعهد جرت دموعي بذكره سباقا**».[2]

ولم يكن هذا الوصف شكليا فقط على مستوى الألفاظ والأساليب والبلاغة، بل انعكست مشاعر الكتّاب عليه: «**مرحبا بغريبتك السالبة للألباب، الجالبة للإعجاب، المنسكب طبع براعتها وبراءة طبعها كالرباب عذبتني ببعادها أحقابا، وأتعبتني استبطاء لقربها وارتقابا، وأكثبت متبرقعة بالصباحة، متبرعة بالإباحة، فبعثت لبرها وسبرها فخبرت بخبرها وسبرها، وقبلت بساطها، وتقبلت استنباطها، وحبتها بالعذيب وبارق شبت، واستطبت صبا لبستان أدبها عبقت وهبت، اشتبكت انساب تربتي وتربتها، فأشرب قلبي حبها، واشرأب برهة لخطبتها**».[3] فهذا ابن خطاب يجيب صديقه الفقيه أبا عمرو بن المرابط واصفا رسالته بأنها ساحرة تأخذ العقول وتجلب الإعجاب، كما جسدها في صوّر محسوسة فتارة يشبهها بالسحاب الأبيض وتارة بالبستان.

---

[1] أدب الرسائل في المغرب العربي (طاهر توات)، ج2، ص188، نقلا عن كتاب الإحاطة في أخبار غرناطة –نصوص جديدة لم تنشر– (لسان الدين بن الخطيب) تحقيق: عبد السلام شقور، مؤسسة الطباعة والنشر والتوزيع، طنجة، 1988م، ص193، 194.

[2] Edición y estudio del Fasl al jitab, p188.

[3] Ibid, p194.

يكشف لنا غرض وصف الرسائل والكتب المتبادلة بين الأدباء على اهتمامهم بها وإعجابهم بفصاحتها وبلاغتها، حيث لم يغفلوا البث فيها، ولم يتجاوزوها إلى الأغراض التي لأجلها دبجوا رسائلهم، بل وقفوا عندها وأنزلوها المكانة التي تليق بها عن طريق وصف قيمتها الأدبية، وما أحدثته في نفوسهم من فرح وسرور، نثرا كانت هذه الرسائل أو شعرا أو كليهما معا بما انطوت عليه من براعة في الصياغة وجودة في التركيب ودقة في الأساليب.

2.6.2 وصف ذكريات الماضي ومظاهر الطبيعة:

ومن الأمور والمشاهدات التي تناولها الكتّاب ووقفوا عندها وبرعوا في تصويرها ما ظل مختزنا في مخيلتهم من ذكريات الماضي الجميل التي جمعتهم بأصدقائهم، ومزجها مع مختلف المظاهر الطبيعية الحية والجامدة التي شاهدوها، وغالبا ما ارتبط هذا اللون من الوصف بغرضين اثنين هما الشّوق أو العتاب، فهذا ابن خطاب يتشوّق إلى أحد أصدقائه، ويذكره بالأيام الجميلة التي قضاها معه: « **هاتي الحديث عن أيام قطعناها قصارا، وليال كلها كانت أسحارا، تنسي حبيبا أيامه بالعقيق، وتلهي الحسن عن شرب الرحيق، يا لها لذات خوالي، وطيبات لو اشتريت بأفلاذ الأكباد، لما كانت عوالي، لله تلك المنارة وظرفها، والعشايا ودنفها، والشمس قد أدبرت شاحبة اللون، والثريا قد أقبلت راكبة الجون، وأرسلت علينا حجاب الكتمان والصون، وأمنت أنسا ما أنذرت من تغيير حركة الكون، حيث النسيم في ملاعبة الغصون مذهب، وللبدر على صفحة النهر الصقيلة علم مذهب، وكف الظلام تطوي برداء الأصيل، ورهف المدام يروي ذكاء الغليل**».[1]

فقد وصف الكاتب ذكريات الماضي الجميل من الأيام القصيرة والليالي الطويلة التي كلها فرح وسرور، ووقف يرسم لوحة فنية جميلة أثناء غروب الشمس واصفرارها حين حل مكانها نجم الثريا بلونه الأبيض، وأسدل الظلام رداءه بهدوئه وسكينته، والنسيم يحرك أغصان الأشجار، وصورة البدر قد انعكست على النهر، كل تلك الأوصاف قد استوحاها الكاتب من عناصر الطبيعة التي ظلت محفورة في ذاكرته.

[1] Ibid, p213.

وله في مثل ذلك يصور مشهدا آخر في النهار تجلى من خلال حركة مياه الجداول، وظل الأشجار، وتغريد الطيور، وما أعقبه من سمر وطرب في الليل: «**أين تلك المنارة وأنوارها، والمنازل وأقمارها، كم لنا هنالك من لنا من يوم، حضر طيبه، وغاب رقيبه، والجداول تتدفق، والظلال تتمشق، والطيور خلال الأشجار كالقيان خلف الأستار، تتصنع في سجعها وتتأنق، واللهو ممتد الطلق والحال يعود كمالها بالفلق، ويخشى على شارة حسنها لدغة الحدق، وصلناه بليلة طرقت بجوزائها، وأقيم الطرب بإزائها يعترب في السحر عشاءها قصر، وتنثر على الزهر أنداءها دررا، خافت علينا من الوصال لباسا، أخذنا من يد الزمان هبة لا اختلاسا**».[1]

من الطبيعي أن يتطرق الكتّاب في رسائلهم إلى هذا اللون من الوصف، لأن هذا العصر عرف ازدهار كبيرا لغرض وصف الطبيعة في الشعر الذي «اتخذ من عناصر الطبيعة الحية والصامتة مادته وموضوعاته»[2]، وذلك لسحر الطبيعة الأندلسية الخلابة، فراح الأدباء يصورون ما حبا الله هذه الجزيرة من جبال ووديان وأنهار وحيوانات وأشجار وبساتين، وما كان للإنسان يد في رسمه وتشكيله من قصور ونافورات وبرك، وزخارف وغيرها، أو مجالس الأنس والطرب التي ارتبطت ارتباطا وثيقا بالطبيعة، لأنها كانت تقام في أحضانها، ولعل هذا ما انعكس على فن الرسائل في هذا العصر فأصبغوا عليه هذا الغرض إما افتتانا بجمال الطبيعة أو تأثرا ومحاكاة للشعر.

3.6.2 وصف المكانة العلمية والأدبية

ومن المواضيع المهمة التي اشتمل عليها هذا الغرض وصف الشخصيات الأدبية بذكر ما انطوت عليه من صفات علمية وأدبية، وسجايا خلقية جليلة، وتجدر الإشارة إلى أن هذا الغرض -اعتمادا على ما بين أيدينا من رسائل- ارتبط ارتباطا وثيقا بالمدح والثناء وتبادل المجاملات بين الأصدقاء.

ومن نماذج وصف المكانة الأدبية والعلمية ما كتبه لسان الدين إلى يحي بن خلدون حيث أثنى على مقدرة آل خلدون الأدبية: «**وقد وصل كتابكم الذي فاتح بالريحان والروح، وحل مرسوم الحيا محل البسمة من اللوح، وأذن لنوافح السفا بالفوح، يشهد عدله بأن البيان آل**

[1] Edición y estudio del Fasl al jitab, p211, 212.

[2] الأدب العربي في الأندلس (عبد العزيز عتيق)، دار النهضة العربية، لبنان، 1976م، ص284.

خلدون سكن مثواكم دار خلود، وقدح زندا غير صلود، واستأثر من محابركم السيالة، وقضب رماحكم الميادة الميالة... فلله من قلم راعى نسب الغنى فوصل الرحم، وأنجد الوشيج الملتحم، وساق بعصاه من البيان الذود المزدحم».[1]

ونظير هذا اللون من الوصف الموجه إلى الأدباء العارفين بأسرار البلاغة وأغوارها، المبدعين في حلل الكتابة نثرها ونظمها، ما خاطب به منصور بن علي الزواوي* لسان الدين بن الخطيب: « **يتفضل سيدي الأعلى الذي أهتدي، وأعشو إلى غرره وأوضاحه، جامع أشتات العلوم، وفاتق رتق الفهوم، حامل راية البديع، وصاحب آيات التورية فيه والترصيع، نخبة البلغاء، وفخر الجهابذة العلماء، قائد جلاد البلاغة من نواصيها، وسائق شوارد الحكم من أقاصيها، أبو عبد الله بن الخطيب، أبقاه الله للقريض، يقطف زهره، ويجتنى غرره، وللبديع يطلع قمره، وينظم دره، وللأدب يحوك حلله، ويجمع تفاصيله وجمله، وللمعاني يجوس بجيوش البراعة خلالها**».[2] لقد خصّه في هذا الخطاب بمدح الصفات العلمية المتمثلة في مقدرته الأدبية في الشعر والنثر، وتبحّره في علم البلاغة ومقدرته الإبداعية، وتمكنه من شتى العلوم، فهذه شهادة اعتراف بمكانة ابن الخطيب بين أدباء عصره.

وهذا ابن الحاج النميري يخاطب ابن الخطيب ويبرز مكانته بين أدباء عصره، واصفا إياه بوحيد عصره الذي مها قيل فيه فهو فوق كل ذلك، فلا أحد يستطيع أن يوفيّه حقّه من الثناء: « **عمرك الله أيها الإمام الفذّ ، ومن بمدحه تطرب الأسماع وتلذّ، أوحد الدنيا وحائز الرّتبة العليا،**

---

[1] ريحانة الكتاب (ابن الخطيب)، ج2، ص141.

* هو منصور بن علي بن عبدالله الزواوي، نزيل تلمسان، يكنى أبا علي حافظ للحديث، نحوي، أصولي، من أكابر علماء المالكية في وقته. من أهل زواوة، نشأ في بجاية وأخذ عن أشياخها. رحل إلى الأندلس سنة (753هـ)، فاشتغل بالتدريس وتصدر للفتيا، ثم امتحن بقضية شرعية، فترك الأندلس سنة (765هـ) واستقر بتلمسان يقرئ ويدرس .قال عنه لسان الدين ابن الخطيب: «وهو صدر من الصدور، له مشاركة حسنة في كثير من العلوم العقلية والنقلية، واطلاع وتقييد ونظر في الأصول والمنطق والكلام، ودعوى في الحساب والهندسة والآلات، يكتب ويشعر فلا يعدو الإجازة والسواد» وقال يحي بن أحمد السراج: «كان شيخا فاضلا فقيها نظارا معدودا في أهل الشورى، مثابرا علي التعلم والتعليم». ينظر ترجمته: الإحاطة، ج3، ص325. البستان، ص292. شجرة النور الزكية، ج1، ص336. نيل الابتهاج، ص611، 612. بغية الرواد، ج1، ص171، 172.

[2] الإحاطة في أخبار غرناطة (ابن الخطيب)، ج3، ص326.

ولو لا أنك فوق ما يقال، والزّلّة إن لم تظهر العجز عن وصفك لا تقال، لأطلت في القول، وهدرت هدير قرع الشّول، لكن تحصيل الحاصل محال، ولكلّ في تهيّب كمالك مقال، ومقام وحال».[1]

ويصف ابن خطاب المكانة الأدبية للفقيه أبي عمرو بن المرابط استنادا إلى الرسالة التي أرسلها إليه، يقول :« **وأبرزت عجائب بدائعك، وبدائه عجائبك، فتبرجت بتبارجها، وتبلجت بمباهجها، وقشب بشار بن برد برد بشارتها القشيب، وبخع بواجبك... وأنبأت بهدب المتنبي نبت البيان قبل بيانه، وأصبيت الصابي لربربك... والصاحب أبكأت سحابته وأبكيت صحابته، والمكعبر الضبي يصب لرعابيبك البيض، وترعبه رعب الذئب جانب الربيض، والمشبب ببثينة باطنه بث وباطله برهانك منبث، وأبو الشغب العبسي أبقيته عبوسا، والمسيب الضبعي اضطبع بضبائرك بؤسا، وعبد الله بن الزبير يستصعب زبائرك، ويؤنب مكابرك، وعبّدت عبيد بن الأبرص، وشيبت شبيبا ابن البرصاء، وتنكبت ابن ثابت، يشبي مشيبه جبلة، ويجيب ابن الزبعري بالبطحاء».**[2]

يبدو للوهلة الأولى من وراء إيراد طائفة من الشعراء أن الكاتب يصف قصيدة أرسلت إليه، لكن بعد اطلاعنا عليها يتضح العكس، إذ لم تتضمن ولو بيتا شعريا واحدا، فالغرض فيما يبدو من وراء ذلك هو إبراز المكانة الأدبية للكاتب الذي فاق في حسن أدبه فحول الشعراء، كالمتنبي وبشار بن برد وأبي إسحاق الصابي والمكعبر الضبي وغيرهم.

وفي حقيقة الأمر، لا يمكن أن نلم بجميع مظاهر الوصف في الرسائل الإخوانية لأن هذا الغرض يشمل مواضيع متعددة، فالوصف في فن الرسائل لا يقتصر على وصف الكتب المتبادلة بين الأدباء وتبيان مكانتهم ومدى تفوّقهم، أو على وصف المظاهر الطبيعية وذكريات الماضي، بل يتعداه إلى وصف الشخصيات المختلفة التي وردت في هذه النصوص من ملوك وسلاطين وغيرهم، ورصد للانفعالات والأحاسيس المختلفة من فرح وحزن وحسرة وألم وغيرها.

[1] المصدر السابق، ج1، ص355.

[2] Edición y estudio del Fasl al jitab, p195.

وهكذا شكّل هذا اللون الفني من الرسائل نماذج فنية متميزة جسّدت براعة الكتّاب المتميزة فكانت ميدانا فسيحا للإبداع والابتكار بما استلهموه من صور ومعان أبانوا فيها عن مقدرتهم في تصوير المشاهد المختلفة وربطها بمشاعرهم وأحاسيسهم.

7.2 الرسائل الدينية:

لا يمكن أن نهمل في دراستنا نوعا بارزا من أنواع الرسائل ذات الطابع الديني التي كانت لها مكانة مرموقة في هذا العصر، فكثيرا ما تبادل العلماء، والأدباء، والفقهاء فيما بينهم كتبا تضمنت رخصا وإجازات برواية مروياتهم، أو أسئلة وأجوبة حول أمور دينية، وأخرى اتخذت طابعا وعضيا إرشاديا، فبالرغم من أن جلها لم تصبغ بصبغة أدبية خالصة لأن طبيعتها ومضامينها هي التي فرضت ذلك، فلم تأت لتعبّر عن أحوال النفس البشرية، إلا أنها الغالبة والمهيمنة على باقي الأغراض الأخرى مثل تلك التي أخرجها الونشريسي في كتابه (المعيار المعرب) أو تلك المبثوثة في كتب التراجم والسير. وهذه الرسائل فرضتهما طبيعة البيئة التي انتشرت فيها العلوم المختلفة، وبخاصة العلوم الإنسانية كعلوم اللغة والدين وغيرهما، وبما تزخر به من رجال دين، وعلماء، وفقهاء، ومتصوفة.

أما فيما يخص الرسائل الدينية ذات الطابع الإرشادي الوعظي فهي لا تختلف عن فن الخطابة في أهدافها، إذ تسعى إلى إصلاح ما فسد من الأخلاق وتوجيه الناس وإرشادهم إلى ما فيه صلاحهم وفلاحهم في الدارين خوفا عليهم من الهلاك أو الوقوع في الزلل، وهذا الخطاب غالبا ما يكون بين من تآلفت قلوبهم على المحبة أو من تجمعهم صلة القرابة كأن يكون من أب إلى أبنائه، أوبين الأصدقاء، وهذا النوع من النصوص تغلب عليه العاطفة الدينية، ويأخذ السمة الأدبية لأن الغرض منها ليس مجرد الإفهام أو الإخبار وإيصال المعلومات بل التأثير في المخاطب بغية تغيير سلوكه، وبالتالي على الكاتب أن يحسن اختيار ألفاظه وتراكيبه التي يشحنها بعاطفة دينية جياشة.[1]

[1] أدب المراسلات في العصر الأموي (حسين نصار) مجلة عالم الفكر، وزارة الإعلام، الكويت، العدد3، ديسمبر، 1983م، ص40.

وهذا ما نلمسه في النصوص التي بين أيدينا والتي اقتصرت على لسان الدين ابن الخطيب في خطابه الموجه إلى شيخه ابن مرزوق، حيث كتب إليه يعظه وينصحه بترك الدنيا:« **وليعلم سيدي أن النفس طماعة، جماعة، وسراب آمالها بحاره لماعة، فلا تفيق من كد، ولا تقف عند حد، سيما إذا لم يهذبها السلوك والتجريد، ولم يسر منها في عالم الغيب البريد، ولا تجلب لها السعادة التي يجذب بها المراد ويشمر لها المريد... وهم العاقل إلى وقته الحاضر مصروف، وإذا لم يغير حائطه مثل معروف، وفي الوقت زبون يرجى به استخلاص الحقوق، ويستبعد وقوع العقوق، فإن رأى مولاي أن يشفع المنة، ويقرع بابا ثانيا من أبواب الجنة، قبل أن يشغل شاغل، أو يكدر الأكل والشرب وارش أو واغل**».[1] فهو يصف له النفس البشرية التي جبلت على الطمع والجشع التي تزين للإنسان الانغماس في الملذات والشهوات التي لا حدود لها، مما يجلب له التعاسة ويوقعه في المحظور، ومراده من ذلك تنبيه شيخه حتى لا يتبع هواه ويجد نفسه منحرفا عن الطريق الصحيح، ويدعوه إلى تدارك الموقف قبل أن ينشغل بأمور دنيوية تنسيه في آخرته.

وهذا النوع من النصائح لا يصدر إلا عن صديق محب مخلص، فهو يرى أن النصح واجب عليه لأن فيه سعادته، فأرشده إلى الابتعاد عن الجاه، وعدم المغالاة في حب السلطة والتمسك بها، والحذر من شر حساده وكيدهم :« **سيدي، وعمادي، كشف قناع النصيحة من وظائف صديق، أو خديم لصيق، وأنا بكلتا الجهتين حقيق، ويتلجلج في صدري كلام أنا إلى نفثه ذو احتياج، ولو في سبيل هياج وخرق سياج، وخوض دياج، وقد أصبحت سعادتي عن أصل سعادتك فرعا، فوجب النصح طبعا وشرعا...فليعلم سيدي أن الجاه ورطة، والاستغراق في تيار الدول غلطة، وبمقدار العلو– إلا أن يقي الله تعالى– تكون السقطة، وأنه – تعالى يعصمه من الحوادث، ويقيه من الخطوب الكوارث–وإن تبعه الجم فهو مفرد، وبسهام الحسدة مقصد، وأن الذي يقبل يده، يضمر حسده**».[2]

[1] ريحانة الكتاب (ابن الخطيب)، ج2، ص117.

[2] المصدر نفسه، ج2، ص121.

وبحكم المنصب الذي كان يشغله ابن مرزوق كونه كان خطيبا، نجد الكاتب يبين له مكانة هذه الوظيفة التي تعد أسمى من الوزارة والحجابة، فهو يريد بذلك ترغيبه في وظيفته التي تكون له عونا في الدنيا والآخرة، وينبّهه ويرشده إلى ما فيه صلاحه وفلاحه، خوفا عليه مما قد يلحق به من ضرر وسوء إذا ما هو تشبث بالسلطة والحكم، فبقدر المقام تزداد الأحقاد والمخاطر: « **وإن ظن سيدي أن الخطة الدينية تذب عن نفسها، أو تنفع مع غير جنسها، فذلك قياس غير صحيح، وهبوب الريح، وإنما هي درجة فوق الوزارة والحجابة، ودهر يدعى فيبادر بالإجابة، وجاه يجر على القبيل الأذيال، ويفيد العز والمال، وبحر هال، وصدور تحمل الجبال، وإن قطع بالأمان، من جهة السلطان، لم يؤمن أن يقع فيه**».[1]

وما يلفت الانتباه في هذا الوعظ أن صاحبه يستخدم فيه أسلوبا إيحائيا، فهو لا يأمر ولا ينهى ولا يعد ولا يحذر ، فقد خلا الخطاب من هذه الأساليب والصيغ، وهذا يعود لسببين اثنين، الأول كون لسان الدين الذي تقمص ثوب الناصح والمرشد راعى في ذلك مرتبته، فهو تلميذ ابن مرزوق فلم يتجرأ على شيخه يتهمه بالطيش والغلو والانحراف، والسبب الآخر المكانة العلمية المرموقة التي يحظى بها الشيخ فلا يليق بمقامه أن يُأمر أو يُنهى، وهذا من أدب التعامل بين العلماء التي تستوجب الاحترام والتبجيل.

ولسان الدين وبحكم تقلده لمنصب الوزارة وتجربته مع الملوك، بدا أن هذا الوعظ لم يصدر إلا عن خبير عارف بخبايا الدول وما يحيط بها من شؤون الحكم، وما يدور فيها من دسائس ومكائد، إذ كلما تقدم في المراتب إلا وكثر حساده وأعداؤه وبالتالي وشاته ومن يكيدون له المكائد رغبة في تشويه صورته والإطاحة به وإبعاده عن منصبه. وهذه النصائح تكشف عن عاطفة صادقة لا لبس فيها، فالخوف على شيخه مما قد يلحقه من أدى جراء انغماسه في أهوال السلطة هو ما دفعه إلى ذلك، إذ نجده يدعو له بالعصمة من هذه الأهوال: «... **والله تعالى يعصمه، طائرا بلا جناح، ومحاربا دون سلاح، ينادي من مكان يثق بوده في طلل، ويقرع سن النادم والأمر جلل**».[2]

---

[1] المصدر السابق، ج2، ص 122.

[2] ريحانة الكتاب (ابن الخطيب)، ج2، ص 122.

وذكر لسان الدين أن ابن مرزوق لما حل بحضرة تونس واستقر بها أحس من خلال الرسائل الواردة عليه أن شيخه يحن إلى الدنيا وما كان يعيشه من رغد وسعة الحال، فبادر إلى مخاطبته برسالة هي بمثابة دستور يتكأ عليه، ويعينه على خدمة الملوك[1]. فجاءت زاخرة بالوصايا السياسية، فأرشده إلى تغليب العقل وعدم التعلق بالدنيا وملذاتها، قال :« ... **وأنا أنافرك إلى العقل الذي هو قسطاس الله في عالم الإنسان، والآلة لبث العدل والإحسان، والملك الذي يبين عنه ترجمان اللسان، فأقول ليت شعري ما الذي غبطك بالدنيا، وإن بلغ من زبرجها الرتبة العليا، وأفرض المثال بجلال إقبالها، ووصل حبالها، وخشوع جبالها، وضراعة سبالها المتوقع المكروه صباح مساء، وارتقاب الحوالة التي تديل من النعم البأسا، ولزوم المنافسة التي تعادى الأشراف والرؤسا**».[2]

لكن الغريب في الأمر، والذي لا نكاد نجد له مبررا هو أن ابن الخطيب نفسه كان في حاجة إلى النصح والوعظ، لأنه تعلق بالدنيا وانغمس في ملذاتها واستبد بالسلطة، واعتلى أعلى المراتب وحلت به المصائب التي أشار إليها في هذه الرسائل، وكأني به لا ينصح شيخه فقط، بل ينصح نفسه أيضا، وهذا الأمر يؤكده ابن مرزوق، إذ يقول:« والعجب كل العجب أن جميع ما خاطبني به –أبقاه الله تعالى– تحلى به أجمع، وابتلي بما منه حذر، فكأنه خاطب نفسه وأنذرها بما وقع له، فالله يحسن له الخاتمة والخلاص».[3] يفهم أن لسان الدين أصدر هذه النصائح عن تجربة وعن يقين محتوم بمصيره الذي انتهى بقتله، فأراد أن يجنب شيخه طريق الزلل الذي يهوي بصاحبه إلى الهاوية.

ويبين له السبب الذي دعاه إلى تقديم هذه النصائح، إذ هو ليس أهلا للدنيا ولا يستطيع مجاراتها:«... **فالموعظة تتلقى في لسان الوجود، والحكمة ضالة المؤمن ببذل المجهود، ويأخذها من غير اعتبار بمحلها المذموم ولا المحمود... فلم أر لك الدنيا كفأ لو كنت صاحب دنيا، ووجدت بذل النفس قليلا من غير شرط ولا تُنَيَّا... وأمحضت لك النصح الذي يعز بعز الله**

[1] ينظر: الإحاطة في أخبار غرناطة، (ابن الخطيب)،ج3، ص118.
[2] ريحانة الكتاب، (ابن الخطيب)، ج2، ص430.
[3] نفح الطيب (أحمد المقري)، ج5، ص 153.

ذاتك، ويطيب حياتك، ويحيي مواتك، ويريح جوارحك من الوصب، وقلبك من النصب، ويحقر الدنيا وأهلها في عينك إذا اعتبرت، ويلاشي عظمائها لديك إذا اختبرت».[1]

ألبس لسان الدين هذا النوع من الرسائل حلة أدبية راقية جسّد فيها أسلوبه المسجوع البليغ بما يحويه من محسنات بديعية وصور بيانية، فقد خرج بذلك على النهج المعهود في مثل هذه الرسائل التي غالبا ما اتسمت بالبساطة، وانتهاج الأسلوب المباشر الشبيه بالخطب الدينية المتضمن اقتباسات من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، الأمر الذي لم نجده في هذه الرسائل، فقد نأى بنفسه عن توظيفها، وذلك راجع إلى كون المخاطب أعلم بها من المتكلم، وهذا دليل على نبوغ الكاتب ودكائه في اختيار ألفاظه ومعانيه بحرص شديد حتى لا يشعر شيخه أنه يرى فيه نقصا أو ضعفا، فكان يتحاشى كل ما يغضبه أو ينفره منه. وكشفت لنا عن علاقة وطيدة بين الطرفين أكثر ما يمكن أن نقول عنها إنها علاقة الوالد بولده تتسم بالاحترام والتبجيل والتقدير، وبالرغم من انعدام خطابات ابن مرزوق للسان الدين فلا ريب أنه كان يبادله الشعور نفسه، وينزله المكانة التي يستحقها.

وشاع نوع آخر من الرسائل الدينية التي تتضمن أسئلة وأجوبة فقهية. ويعود سبب انتشاره لطبيعة العصر الذي وجد فيه كثير من العلماء والفقهاء ورجال الدين، فتلمسان ظلت تعج بهؤلاء حتى في مراحلها الأخيرة التي اتسمت بالضعف، فما نقله القلصادي في رحلته حين نزوله بتلمسان لدليل على ذلك إذ يقول:« وأدركت فيها-أي تلمسان- كثيرا من العلماء والزهاد، وسوق العلم حينئذ نافقة، وتجارة المتعلمين والمعلمين رابحة، والهمم إلى تحصيله مشرفة، وإلى الجد والاجتهاد فيه مرتقيّة، فأخذت فيها بالاشتغال بالعلم على أكثر الأعيان، المشهور لهم بالفصاحة والبيان».[2] وذكر العديد من شيوخه بتلمسان ومنهم مُحَمَّد بن مرزوق، وعيسى الرتيمي، وأبو عبد الله مُحَمَّد الشريف، وأبو الحجاج يوسف بن إسماعيل المشهور بالزيدوري، و مُحَمَّد بن النجار، وأحمد بن زاغو، وأبو الفضل قاسم العقباني.[3]

---

[1] ريحانة الكتاب، (ابن الخطيب) ج2، ص435.

[2] رحلة القلصادي، تحقيق: مُحَمَّد أبو الأجفان، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1978م، ص95.

[3] ينظر: المصدر نفسه، ص 96 وما بعدها.

وأغلب هؤلاء قد نبغوا في علوم الدين، لذا نجد امتزاجا واضحا بين النثر الأدبي والنثر الديني في العصر الزياني، فقد كان لأدب الفتوى حظ وافر تجلى في المراسلات الإخوانية الدينية التي جاءت على شكل أسئلة وأجوبة حول قضايا فقهية، ومن ذلك سؤال الشيخ أبي العباس أحمد البجائي إلى الفقيه المناوي الورنيدي* وهذا نصه: « **سيدي رضي الله عنكم، وأدام بمنه عافيتكم، ما جوابكم في موضع كثر فيه الظلم والأشرار، وانتشر فيه الباطل والسكر كل انتشار، وذل فيه المسلمون وعز الكفار، وارتفع فيه الجور والظلم، واتضع فيه أهل المعرفة والعلم، تمكُسُ** فيه جل المبيعات على المسلمين، وأشكل الأمر على المسترشدين، ولم يظهر من فضائله ناكر لمنكر، فلا أدري أخوفا على أنفسهم أم استهزاءا بالأمر؟ ثم إن إنسانا اضطر إلى أخذ العلم عن علماء الموضع المذكور، وخشي على نفسه مم هو قبل مسطور، فهل أعزكم الله يسوغ له المكث في ذلك الموضع مع عدم قدرته على تغيير المنكر إلا قليلا، ويكون بذلك ممتثلا لأمر ربه، وهل يسوغ له الشراء من بعض المبيعات الممكسات إن اضطر إلى ذلك ويكون أمنا من الوقوع في المهالك، وهل يسوغ له الأخذ عن علمائه، مع عدم تغييرهم لما ذكر، وإقامتهم بالموضع المذكور؟ ولا يناله توبيخ من المولى سبحانه يوم النشور؟ أم يجب عليه أن ينتقل من ذلك الموضع لغيره؟ لأن الراتع حول الحمى يوشك أن يقع فيه، بينوا الأمر لمن اضطر إليه في خاصة نفسه، واحتاج إليه كل الاحتياج فلكم الأجر التام، والسلام**».[1]

فأجابه الفقيه : « **الحمد لله الواجب على المؤمن المحقق، الناظر لنفسه نظر مشفق، أن يفر بدينه من الفتن، ولا يقيم إلا في موضع تقام فيه السنن، ولا يأخذ من علم دينه ما يحتاج إليه، لا ممن تظهر آثار الخشية والخضوع عليه، ويطلب ذلك في أقطار الأرض ونواحيها، بدليل ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها، هذا مع الإمكان، وجود بغيته في غير ذلك المكان، فإن تعذر عليه ذلك، وانسدت عنه المسالك، ولم يجد موضغا صالحا مرضيا، ولا**

* هو مُحَمَّد بن سعيد المدعو الحاج المناوي أصلا الورنيدي مولدا ودارا أخذ عن خاله مُحَمَّد بن الحاج الفقه والأصول والبيان والمنطق والنحو والعروض توفي في حدود 955هـ. ينظر: البستان (ابن مريم التلمساني)، ص266.

** مكس في البيع بمعنى النقص والظلم وهي دراهم تأخذ من بائعي السلع. قاموس المحيط، ص1549.

[1] البستان، (ابن مريم)، ص 14، 15.

معلما ناصحيا مهديا، فليقم هناك صبرا جميلا، ويكون من المستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا، وليقل كما قالوا إن لم يجد معينا على الدين ولا ظهيرا، ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا، واجعل لنا من لدنك نصيرا».[1]

تضمنت الرسالة الأولى عدة أسئلة فقهية، بدا جليا أنها كانت بسبب أحداث مستجدة فرضتها التحديات الطارئة، وفي الغالب يظهر أن هذا السؤال يخص المسلمين المقيمين ببلاد الأندلس بسبب تعرضهم للظلم والتمييز بعدما استولى عليها النصارى، ووقعوا في حيرة من أمرهم بين البقاء في بلاد الكفر أو الهجرة خوفا على أنفسهم ودينهم، أما الرسالة الأخرى فجاء فيها رد الشيخ على تلك الأسئلة، فقد رأى في الهجرة لمن أمكنه ذلك أفضل سبيل، ومن لم يستطع فلا حرج عليه ولا إثم مستدلا بالأدلة التي اقتبسها من القرآن الكريم.

ومما يندرج ضمن هذا الباب من الرسائل تلك الرسائل التي تكتب في طلب الإجازة والرد عليها، فالأولى تتضمن طلبا يتقدم به أحد الطلبة أو التلاميذ إلى شيخه بأن يمنحه إجازة برواية أثاره العلمية والأدبية، والثانية تكون جوابا بموافقة الشيخ على الطلب المقدم إليه. وهي ذو أهمية بالغة إذ تعد وسيلة تواصل بين الأدباء والعلماء تكشف عن مدى المكانة العلمية والأدبية التي وصلوا إليها، ومنها طلب الإمام المناوي الورنيدي من شيخه أحمد بن مُحَمَّد بن زكري* الإجازة التي جاء فيها بعد أن استهلها بحمد الله والصلاة على رسوله الكريم ثم مدح شيخه، قوله: «... **إرادة العبد من سيده ومولاه، أن يتطول عليه بما كان قد أولاه، بإجازة تقيد ما عليه أملاه، وينتظم بها في عقد أصحابه، ويلتئم بها في عد أحبابه، إجازة مطلقة عامة، وافية بالغرض المقصود**

[1] المصدر السابق، ص15.

* هو أبو العباس أحمد بن مُحَمَّد بن زكري التلمساني عالمها ومفتيها أخذ العلم عن ثلة من العلماء أمثال ابن زاغو وابن مرزوق الحفيد وقاسم العقباني وغيرهم، ألّف كتابا في مسائل القضاء والفتيا وبغية الطالب في شرح عقيدة ابن الحاجب، ومنظومة كبرى في علم الكلام، وله فتاوى كثيرة نقلها صاحب المعيار، توفي سنة 899هـ. ينظر: شجرة النور الزكية (بن قاسم مخلوف)، ص386.

تامة، تحتوي على جميع أنواع العلم وفنونه، وتجمعه بمفروضه ومسنونه، وتشمله بحديثه وشجونه».[1]

وأجابه الشيخ بعد حمد الله والصلاة على رسوله، قائلا: « **أما بعد فمرغوب الفقيه اللبيب، الوجيه الأريب، كاتب اسمه في الاستدعاء المكتوب هذا بظهره متلقى بالإسعاف، ومقابل بنيل قصده بطريق الإنصاف، وما طلب من الإجازة، فقد سوغته إنجازه، فليروي عني ما يجوز على الشروط المعروفة والسنن المألوفة، فهو أهل لأن يروى عنه من شاء على وجه الصواب لجميع ما استفاد مني بخطاب أو وجده في كتاب أو بلغه له ثقة من الأصحاب، وكذا كل ما تبث عنده أنه من مروياتي أو جمعته أو أجمعه إن شاء الله من مكتوباتي، وإنه لجدير أن يروي ويروى عنه لما اتصف به من الأوصاف المقتضية ذلك».**[2]

واضح أن هذه الإجازة تندرج ضمن الإجازة بالرواية وهي إذن الشيخ لطالبه ليروي عنه مروياته من غير أن يسمع منه أو يقرأ عليه[3]، ويعتبر هذا النوع من الرسائل من الناحية العلمية بمثابة رخصة تمنح للطالب كدليل على تفوقه في العلوم المختلفة التي أخذها عن شيخه، وكدليل على كفاءته واستحقاقه لهذا الشرف العظيم، فقد سوغ له رواية كل ما صدر منه من قول ملفوظ أو منقول أو مكتوب وذلك لجدارته فهو أهل لحمل هذه الأمانة ولصون الوديعة. ومما يلاحظ على هذا النوع من النصوص تراجع الاهتمام بالزخرفة اللفظية بالرغم من أن بعض الفقهاء احتفى بألفاظ رسائله زخرفة وتنميقا، لكن ليس بالشكل المبالغ فيه حفاظا منهم على وضوح المعنى وتبليغ الهدف المقصود.

وهناك نوع آخر من الرسائل الذي ارتبطت ارتباط وثيقا بالدين وكان وليد الصراعات التي تنتج عن الأحقاد ممن يثبت علو كعبهم في شتى العلوم، حيث لم يسلم المتصوفة المشتغلون بالفلسفة في مرحلة من مراحل التاريخ الإسلامي من ويلاتها، فما إن تفلسفوا حتى أضحوا عرضة للمحاربة والانتقام من طرف أهل الحكم والسياسة، وعدّ هؤلاء من أعداء الدّين الذين انحرفوا

[1] البستان، (ابن مريم) ص19.

[2] المصدر السابق، ص22، 23.

[3] اختلافات المحدثين والفقهاء في الحكم على الحديث (عبد الله شعبان علي)، دار الحديث، القاهرة، 1997م، ص239.

وظلوا بسبب أفكارهم ومعتقداتهم، وكان من بين هؤلاء ابن خميس التلمساني « الذي زهد في الدنيا إلى درجة تطليقها بعد أن علم بخباياها وتذوق حلوها ومرها».[1] فحوكم من طرف فقهاء فاس، وكان على رأس من حاكمه الشريف أبو البركات، حيث أدانوه بالكفر لاشتغاله بالفلسفة بغية هدر دمه، وهذه التهمة وجهها إليه ابن هدية القرشي أثناء شرحه لرسالته، وفي ذلك يقول: «والفلسفة عند أهل السنة وكافة الأشعرية عبارة عن الزندقة البحتة والضلالة المحضة والكفر الواضح، الناشئ عن مطلق الخلاف الواضح».[2] وأثناء هذه المحاكمة التي جمعت طائفة من الفقهاء والعلماء دافع ابن خميس عن مذهبه الفلسفي وانبرى لخصومه وأبطل أفكارهم بحجج قاطعة، حتى لم يبق منهم إلا الشريف أبو البركات الذي حاك ضده هذه المكيدة بحكم منصبه السياسي، لكنه تفطن لها وفر هاربا إلى تلمسان.[3]

وحين عودته إلى مسقط رأسه هاربا من مصيره المحتوم يكتم غيضا وحزنا بسبب تلك التهم الموجهة إليه من لدن خصومه كتب رسالتين، الأولى لمشرف فاس أبي الفضل مُحَمَّد بن يحي بن عتيق العبدري، والأخرى إلى أبي غالب المغيلي*، إلا أن هذه الأخيرة لا زالت مفقودة إلى اليوم، أما فيما يخص نص الرسالة الأولى فقد استهلها بقصيدة شعرية طويلة ضمنها معان متعددة، حيث يقول في مطلعها:

عَجَبًا لَهَا أَيَذُوقُ طَعْمَ وِصَالِهَا مَنْ لَيْسَ يَأْمَلُ أَنْ يَمُرَّ بِبَالِهَا
وَأَنَا الفَقِيرُ إلى تعلّة سَاعَةٍ مِنهَا وتَمنعُني زَكَاة جَمَالها[4]

أما قسمها النثري فاستهله ابن خميس بالافتخار بقصيدته لجماها وحسن نظمها، ولما تحمله من معارف وأفكار، راجيا من أبي الفضل أن يوليها من الاهتمام ما يليق بمكانتها وقيمتها:

[1] من أعلام تلمسان (مُحَمَّد مرتاض)، ص 75.

[2] أهم الأحداث الفكرية بتلمسان عبر التاريخ، ونبذ مجهولة من تاريخ بعض حياة بعض أعلامها (المهدي البوعبدلي)، مجلة الأصالة، العدد 26، جويلية- أوت 1977م، ص 131.

[3] ينظر: المرجع نفسه، ص 131.

* تولى منصب القضاء في الدولة المرينية في عهد السلطان يوسف بن يعقوب بن عبد الحق ثم في عهد أبي ثابت. ينظر: روضة النسرين، (ابن الأحمر)، ص21، 22.

[4] الإحاطة في أخبار غرناطة، (ابن الخطيب)، ج2، ص554.

« هذه أمتع الله ببقائك، وأسعد الله بلقائك، وأراها بما تؤمله من شريف اعتنائك، وترجوه من جميل احتفائك، ما تعرف به من احتذائك، وتعترف له ببركة اعتفائك، كريمة الأحياء، وعقيلة الأموات والأحياء، بنت الأذواء والأقيال*، ومقصورة الأسرة والحجال، بل أسيرة الأساوير والأحجال، على أنها حليفة آلام وأوصاب، وأليفة أشجان وأطراب، صبابة أغراب من صيابة*** أعراب».[1]**

ويواصل ابن خميس في رسالته – في قسمها النثري- الافتخار بقصيدته مستحضرا العديد من القصص والشخصيات التاريخية، لاسيما تلك التي اشتهرت في العصر الجاهلي، أو تلك التي كان لها فضل كبير في الإسلام، وبالأخص اليمنية منها التي ترتبط بنسبه وأصله:« **جاوزت سيف بني ذي يزن في رأس غمدان**** ، وجاوزت مسلمة بن مخلد يوم جابية الجولان، وذلقت لسان أخته حسان***** ، فتضاءلت لرقة حده جسوم بني عبد المدان****** ، وقربه وما شيم******* من**

---

* الأقيال : مفردها قَيْل الملك من ملوك حِمْيَر. لسان العرب، مج11، ص 580.

**الحجال: الأستار التي تزين بيت العروس. لسان العرب، مج11، ص 144. والأحجال: الأساوير التي توضع في رجل المرأة، لسان العرب، مج11، ص 146.

*** صبابة: بقية والماء واللبن وغيرهما في الإناء. لسان العرب، مج1، ص 516. وأغراب: مفردها غرب وهو القدح. لسان العرب، مج1، ص 644. صيابة : صيابة القوم خيارهم. لسان العرب، مج1، ص538.

[1] الإحاطة في أخبار غرناطة (ابن الخطيب)، ج2، ص557.

**** غمدان: القصر الذي بناه سيف بن ذي يزن، يتكون من عشرين طابقا. معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، (البكري أبي عبيد عبد الله)، تحقيق: مصطفى السقا، عالم الكتب ، بيروت، دت، ج3، ص1002.

***** هو أبو الوليد حسان بن ثابت بن المنذر الخزرجي الأنصاري، شاعر الغساسنة والمناذرة في الجاهلية، وشاعر الرسول صلى الله عليه وسلم في الإسلام. ينظر الأغاني (الأصفهاني)، ج4، 105 وما بعدها.

****** بنو عبد المدان نسبة إلى أبيهم عبد الله بن المدان بن الديان، وهي قبيلة سكنت نجران على حدود اليمن، وابن خميس يشير هنا إلى مهاجاة حسان لهم لأنهم كانو يفتخرون بالعظم والطول فهجاهم بقوله:

لا عيب في القوم من طول ولا عظم جسم البغال وأحلام العصافير

كأنهم قصب جوف أسافله مثقب نفخت فيه الأعاصير

ينظر: ديوان حسان بن ثابت، شرح وتعليق: عبدأ مهنا، دار الكتب العلمية، بيروت ، ط2، 1994م، ص 129

******* شيم السيف: أغمد واستل. ينظر: معجم مقايس اللغة، (ابن فارس)، ج3، ص236.

غمده قيد ابن الإطنابة* بين يدي النعمان، قربت ببني جفنة مزار جلق***، وسعرت لبني تميم نار محلق ».[1]**

بالغ ابن خميس في استحضار الأعلام والشخصيات والأماكن التاريخية لاسيما تلك التي لها علاقة بنسبه اليمني، فمن الشعراء الذين ورد ذكرهم امرئ القيس وحاتم الطائي، ومن غير الشعراء ذكر العديد من الشخصيات التي كان لها مواقف وقصص خلّدها التاريخ كسيف بن ذي يزن بطل اليمن الشهير الذي استنجد كسرى ملك الفرس على الأحباش الذين تسلطوا على اليمن، فأمده بجند وأسطول وتمكن من طرد الأعداء[2]، ومسلمة بن مخلد أحد كبار الأمراء في صدر الإسلام، وهذا التوظيف جاء للاستدلال وإعطاء العبرة والموعظة لخصومه، ففي التاريخ وقصصه عبرة لم يريد أن يعتبر، وبخاصة أن استخدام القصة أو الحكاية هي خاصية بارزة في أسلوب ابن خميس في شعره ونثره[3]، ويتضح هذا على سبيل الذكر لا الحصر في قصة سيل العرم، وهو السيل الذي أرسله الله عز وجل إلى أهل سبأ عقابا لهم بسبب إعراضهم عن دعوة الحق.

ثم ينتقل ابن خميس إلى الافتخار بنسبه اليمني الذي اتخذه سببا يدافع به عن نفسه: « **فلو ساجلت بنبعها أبا كرب، وأرته ضراعة خدها الترب، لساجلت به أخضر الجلدة في بيت العرب، ماجدا يملؤ الدلو إلى عقد الكرب، بل لو حطت بفناء بيتها الحجري رحلها، وساجلت بفناء جدها ذي رعين، لاستوفت سجلها. كم عاذت بسيفها اليزني، فأدركت ذحلها، ولاذت بركنها اليمني فأجزل محلها، ولو استسقت بأوديتها، لأذهبت محلها**».[4]

---

* هو عمرو بن زيد بن مناة الخزرجي، فارس وشاعر جاهلي عرف بنسبته إلى أمه الإطنابة. ينظر معجم الشعراء (أبو عبيد الله محمّد المرزباني)، تحقيق: فاروق أسليم، دار صادر، بيروت، ط1، 2005م، ص25.

** بنو جفنة هم ملوك الغساسنة بالشام.

*** جلق: هي مدينة دمشق. معجم البلدان (شهاب الدين الحموي)، دار صادر ، بيروت، ج2، 1993م، ص 154.

[1] الإحاطة في أخبار غرناطة (ابن الخطيب)، ج2، ص557.

[2] ينظر: تاريخ ابن خلدون، (ابن خلدون)، ج2، ص73.

[3] ابن خميس شعره ونثره، (الطاهر توات)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط2، 2002م، ص262.

[4] الإحاطة في أخبار غرناطة، (ابن الخطيب)، ج2، ص558.

ونجد في هذه الرسالة ابن خميس حين اتهم بالكفر والزندقة من لدن خصومه يدافع عن نفسه ويرد التهم الباطلة في نظره، مشيرا إلى صفاء عقيدته وسلامة دينه، فوظف لأجل ذلك مواقف وأحداث تاريخية سجلها التاريخ الإسلامي عن قبيلته التي ينتمي إليها، قال: «**نافحت عن دينها الحنفي فما كهم سهامه، ونافحت عن نبيّها الأمي، فأيدت بروح القدس سهامها، سدت باب الدرب دون بني الأصفر، وشدت لموت ثوب أحمر، وما شغلها كسر تاج كسرى عن قرع هامة قيصر، ولقد حلت من سنام نسبها اليعربي بأسمك ذروة، وتعلقت من ذمام نبيها العربي بأوثق عروة** ».[1]

ويستعرض ابن خميس ثقافته الصوفية الفلسفية بتوظيفه للمصطلحات الفلسفية التي تبرز اطلاعه وخبرته الواسعة في هذا المجال، فهي لا تصدر إلا عن خبير متمرس: « **ودعت لزيارة أختها اليونانية، أذواء حمير وأقيالها، أطمعتها بلمعية ألمعيتها الأعجمية، ومثلها يطمع، وجاء بها من قدماء الحكماء كل أوحدي الأوحدية، فباتت تخب إليه وتوضع، باحثة عن مركز دارتهم الفيثاغورية، آخذة في إصلاح هيئتهم الأنكساغورية، مؤثرة لما تدل عليه دقائق حقائق بقايا علوم مقايسهم البرهانية، وتشير إليه رموز كنوز وصايا علماء نواميسهم الكلدانية، من مأثور لاهوتية قواهم السيماوية، راغبة فيما يفاض على مادتها الجسمانية، ويطرأ على عاقليتها الهيولانية، من علويات آثار مواهبها الربانية**».[2]

وغرض ابن خميس من توظيف هذه المصطلحات الفلسفية في هذا النص كالفيثاغورية والأنكساغورية و البرهانية، هو دفاعه عن الأفكار الفلسفية التي يؤمن بها ردا على الذين يقولون إن الاشتغال بالفلسفة كفر وزندقة، وإثبات علو كعبه في هذا المجال. لينتقل بعدها إلى السخرية من الشريف أبي البركات بن علي الحسني الذي كان سببا في نكبته، إذ استهزأ به وقلل من شأنه، وأنقص من معرفته وعلمه، واتهمه بالطيش والغرور، كما دعاه إلى أن يتبين الحق ويعود إلى رشده:« **أقسم أبا الفضل بما لك على أبي البركات من الفضل، وذلك العراقي الأرومة، لا هذا الفارسي الجرثومة، وإن يك ذاك إسرائيلي الأصل، هذا إسماعيلي الجنس علوي الفضل، فتلك الذات شرف تلك الأدوات...فيما لنت أبا الفضل من هذه العربجة ، وألوك أرأيت في عمرك**

[1] المصدر السابق، ج2، صفحة نفسها.

[2] المصدر نفسه، ج2، ص 559.

مثل هذا الصعلوك، لا والله ما على ظهر هذه الغبراء، من يتظاهر بمثل هذه المعرفة من بني غبرا، فأي شيء هذا المنزع إيش، لا حال لنا معك ولا عيش، من يضحك على هذا الطيش. ما هذا الطيش أخمار بك أم ثمل؟ ارجع إلى ما كنت بصدده وقيت الزلل، خذ من الجد فما يليق بك الهزل».[1]

ويمضي ابن خميس في الرد على فقهاء فاس الذين ناظروه، وهنا تتضح معاناته من الظلم والاضطهاد الذي تعرض له جراء هذه المكيدة التي جعلته يفر هاربا لينجو بنفسه إلى تلمسان: «**أفحمتني والله عن مكالمتكم هذه الإحن، ومنعتني من طلب مسالمتكم، ما لكم علي في دنياكم هذه من الإحن، إن تكلمت كلمت، وإذا استعجمت عجمت، أما لهذه العلة آس، أما لهذه الفيلة مواس، ما حيلتي في طبع بلدكم الجاسي، أما يلين لضعفي أما يرق قلب زمانكم القاسي**».[2] ويهاجم في الوقت نفسه خصومه الذين يرى فيهم أنهم دون مستوى العلم، وأنهم جهال لا يفقهون شيئا في الدين، ولا يراعون العمل بالكتاب والسنة وأحلوا مكانهما البدع والخرافات، يقول :«**ما هذه الدمن يا بني خضروات الدمن، أظهرتم المحن، فقلب لكم ظهر المجن، إن مرّ بكم الولي حمقتموه، وإن زجركم العالم فجرتم عليه ففسقتموه، وإذا نجم فيكم الحكيم غصصتم به، فكفرتموه وزندقتموه... ضيعتم النص والشرائع، وأظهرتم في بدعكم العجائب والبدائع، نفقتم النفاق، وأقمتم سوق الفسوق على ساق. استصغرتم الكبائر، وأبحتم الصغائر**».[3]

ويبدو أن ابن خميس في خطابه هذا قد خرج عن عادة الكتّاب في كتابة الرسائل الإخوانية التي يعبّرون فيها عن مشاعرهم كما جرت العادة في الكتب المتبادلة بين الأصدقاء، وهذا ما لم نجده فيها إلا نادرا، إذ صرف الكاتب جل اهتمامه إلى الافتخار بقصيدته ونسبه، والرد على فقهاء فاس. وقد تأثر ابن خميس بأسلوب ابن زيدون في رسالته الهزلية التي تزخر هي الأخرى بالأحداث والشخصيات التاريخية وتضمين للأمثال والأشعار، فمن حيث الموضوع فهما تتوافقان إذ أنشأ الأول نصه لغرض الرد على خصومه، وهكذا فعل الثاني في هجائه لابن عبدوس.

[1] المصدر نفسه، ج2، ص 560، 561.

[2] الإحاطة في أخبار غرناطة، (ابن الخطيب)، ج2، ص561.

[3] المصدر نفسه، ج2، ص561، 562.

ونحن نرى أن هذه الرسالة وإن كان السبب في كتابتها ديني فقهي نتيجة اتهام ابن خميس بالكفر والزندقة الأمر الذي لم يتقبله بسهولة، فكان الدافع الأول –وقبل كل شيء– إلى كتابتها هو إثبات عقيدته السليمة وأفكاره غير المنحرفة، إلا أنها احتوت على غرضين اثنين أولهما غرض الافتخار بقصيدته، ثم بنفسه حين أشار إلى نسبه اليمني، وعقيدته الإسلامية التي توارثها أبا عن جد، وما يؤمن به من أفكار فلسفية وصوفية، والغرض الآخر هو الهجاء الذي وجّهه إلى خصومه الذين تطاولوا عليه وبخاصة أبي البركات الذي أشبعه ذما وسخطا.

وفي حقيقة الأمر، لم نستعرض جميع المعاني التي جاء بها ابن خميس في رسالته فهي متشعبة قد يطول بنا المقام في شرحها، وحسبنا أن نشير إلى أنها صيغت بأسلوب أدبي يعجز عنه أغلب الأدباء، إذ جاءت في قالب شعري منثور، فنفس ابن خميس هي نفس شاعرة قبل كل شيء، وإن خلت من الوزن والقافية إلا أنه التزم فيها بقيود السجع. وهي تعدّ برهانا على ثقافته ومعارفه الواسعة، واطلاعه الكبير لاسيما في مجال العلوم الإنسانية، فجاءت على شكل سرد تتداخل فيه الوقائع والشخصيات التاريخية.

وأخيرا، فإننا نقول إن كتّاب العصر الزياني كانت لهم مكانة مرموقة في المجتمع نظرا للمناصب التي شغلوها في بلاط السلاطين والأمراء، ونشأت بينهم روابط وعلاقات أخوية كشفت عن محبة واحترام متبادل، فكان لتلك العلاقات دور بارز في تعدد أغراض الرسائل التي تبادلوها فيما بينهم. على أن هناك رسائل أخرى نشأت نتيجة اتصالهم المباشر بالملوك والسلاطين فكتبوا إليهم كلّما اقتضت الضرورة، لذا قد انقسمت الرسائل الإخوانية إلى قسمين قسم موجه إلى الأصدقاء وقسم آخر إلى ذوي الشأن.

ومن الأغراض التي برزت في الرسائل الإخوانية غرض المدح الذي لم نجده مستقلا بذاته بل اصطبغت به أغلب المواضيع الأخرى، حيث تنوعت دلالاته ومقاصده، فمنهم من اتخذه وسيلة للمجاملة والتودد إلى الأصدقاء، ومنهم من جعل منه خطابا موجها إلى الحكام لاستعطافهم ونيل رضاهم من أجل الظفر بمزايا ومكاسب مادية أو معنوية، ومنهم من عبّر بهذا الفن عن مشاعره بكل إخلاص وصدق، وارتبط هذا الغرض ارتباطا مباشرا بالشكر حيث عبّر الأدباء عن امتنانهم وعرفانهم لمن وقفوا إلى جانبهم في حالات بؤسهم وضرهم، ولمن كانوا سببا في مساعدتهم وإزالة

المحن عنهم، وتقديم يد المساعدة لهم، ولمن بادلوهم المشاعر نفسها في جميع الأحوال والمناسبات فتوجهوا بالشكر لهم على حسن صنيعهم.

ومن ناحية أخرى، سعت هذه الرسائل إلى توطيد علاقات المودّة بين الكتّاب، ودعت إلى التراحم فيما بينهم حيث بادر هؤلاء كلما حلت المناسبة إلى التهنئة، وشاركوا أصدقاءهم حالات الفرح والسرور في المناسبات السعيدة التي تقتضي ذلك. وعزّوا في مصيبة الموت التي شكّلت جانبا مهما من رسائل هذا العصر، فقد شارك الأدباء من رزئوا بالمنية، فعبّروا عن حزنهم ومدى تأثرهم، متذكرين خصال وشمائل الميت، جاعلين من الصبر والمواساة والقدر المحتوم مطية للتخفيف من أحزانهم.

وحين شاءت الأقدار أن يبتعد هؤلاء الكتّاب عن أحبتهم وأصدقائهم الذين جمعتهم بهم أخوة ورابطة عاطفية قوية نشأت بين علماء وأدباء هذا العصر، فمن ناحية، أحسوا بألم الفراق يملأ جوانبهم، فسارعوا إلى التعبير عما يختلج صدورهم من شوق وحنين بكل رقة وعذوبة، فجاءت رسائلهم تفيض حزنا وألما وحسرة، وتطلعوا إلى اللقاء لأنه أملهم الوحيد الذي يخفف من وحشتهم، وترقبوا سماع الأخبار السارة التي تقلّل من وجعهم، ومن ناحية أخرى فقد كانت هذه الروابط المتينة والظروف الطارئة سببا للعتاب واللوم عن تأخر الكتب وانقطاع الأخبار ليس عن كراهية وبغض وإنما خوفا من الجفاء وترسيخا للمودة ، وقابلوه بالاعتذار إخلاصا منهم لأواصر المحبة والصداقة، والتمسوا فيهم خصلة حميدة فشكوا إليهم أحوالا طرأت عليهم في حالة المرض والكرب لأنهم وجدوا فيهم آذانا صاغية.

واتخذ الكتّاب من هذا الجنس الأدبي وسيلة لمدّ يد العون ومساعدة الآخرين للتفريج عن كربهم وهمومهم التي حلت بهم بسبب تغير أحوالهم، والمضايقات التي تعرضوا لها محاولين البحث عن حياة أفضل عند من يملكون القدرة على الإعانة من ملوك وسلاطين وأصحاب الشأن في المجتمع، فاستغل الأدباء مقدرتهم الأدبية وعلاقاتهم المتينة التي تربطهم بهؤلاء فاستهلوا رسائلهم بمدحهم والثناء عليهم والتودد إليهم، ووصفوا أحوال المشفوعين لهم والإشادة بهم، للتأثير في نفس المخاطب بغية تحقيق مآربهم، فكانت رسائل الشفاعات بمثابة رد فعل أدبي اقتضته ظروف هذا

العصر التاريخية وما شهده من محن وأزمات اصطلى الناس بنارها، فكانت فرصة لإظهار التضامن الاجتماعي بين الأدباء.

وباعتبار الوصف غرضا مهما من أغراض الكلام، فقد عبّر الأدباء عن إعجابهم بالرسائل المرسلة إليهم من طرف أصدقائهم فبالغوا في وصفها بأجمل الصفات والنعوت وعكسوها على مشاعرهم وأحاسيسهم، وأبانوا عن مقدرتهم العلمية والأدبية التي وصلوها إليها وفاقوا بها أقرانهم لاسيما ما تعلق منها بالجانب البلاغي، وكان الهدف من وراء هذا الوصف هو المجاملة والتودد إلى من يكنّون لهم الاحترام والتقدير. وإلى جانب ذلك وصفوا ذكريات الماضي الجميل حين استشعروا ألم الجفاء والبعد عن الأحبة، وربطوها بعناصر الطبيعة الجميلة التي افتتنوا بها، ورسموا بواسطتها لوحات فنية تنبض بالحياة والأمل.

ولقد رصدنا موضوعا آخر مهما تناولته الرسائل الإخوانية تمثل في الجانب الديني الذي كان له الحضور القوي والبارز في هذا العصر حيث كشف عن المستوى الثقافي والعلمي الذي بلغته الدولة الزيانية، وعن الصلات المتينة التي جمعت بين علمائها وفقهائها، إذ جعل هؤلاء من هذا الفن وسيلة للتواصل والتخاطب مع بعضهم بعضا سواء أكان ذلك من خلال الوعظ والإرشاد وتقديم النصح الذي جسّده لسان الدين في خطابه إلى شيخه ابن مرزوق، أم لأجل الاستفسار عن أمور فقهية دينية، أو ما تعلق منه بالجانب العلمي ممثلا في طلب الإجازة، أو دفاعا عن النفس وإثبات أحقيتها ومكانتها في الدين والعلم مثلما فعل ابن خميس في رسالته الفقهية.

هذه أغلب المضامين والأغراض التي تضمنتها الرسائل الإخوانية في العصر الزياني التي تبادلها الكتّاب والأدباء فيما بينهم، والتي وجهوها إلى الملوك والسلاطين كلما دعت الحاجة إلى ذلك بحكم ارتباطهم الوثيق بهم لشغلهم مناصب مرموقة، فعبّروا بواسطة هذا الفن الأدبي النثري عن الأحوال والظروف المختلفة في العديد من المناسبات والأحداث الاجتماعية والسياسية، وعن أحوال النفس البشرية بفعل تقلبات الدهر ومصائبه، ورصدت الجانب الثقافي والمستوى العلمي لهذا العصر، فكشفت عن الروابط والصلات التي جمعت بينهم وعن مقدرتهم الأدبية التي امتازوا بها، وأبانت عن سمات وخصائص أسلوبية متنوعة ميزت النثر الفني في هذا العصر.

هكذا، وبالرغم من قلّة النصوص التي أمكننا إيجادها إذا ما قورنت بالزمن الطويل لهذا العصر ولطبيعته الثقافية التي تزخر بالعديد من الأدباء، إلا أن ما عثرنا عليه قد أشفى غليلنا وأروى ظمأنا، وحصرناه في نطاق الهوية والجغرافية إذ جل الرسائل التي تناولناها صدرت عن أدباء ينتسبون إلى عاصمة الزيانيين، أو نزلوا بها في مرحلة من مراحل حياتهم، وحاولنا أن نترجم من وراء دراستنا فنا أدبيا نثريا نضيفه إلى رصيد الأدب الزياني الذي يزخر بالعديد من الفنون والأجناس الأدبية.

لنقول ختاما لهذا الفصل، إن الرسائل الإخوانية قد عبّرت تعبيرا واسعا عن كل التحولات التي طرأت على الساحة الاجتماعية والسياسية والثقافية في تاريخ الدولة الزيانية، وزاحمت الشعر ونافسته في العديد من الأغراض التي اختص بها، حتى تحقق لها من التطور والتنوع والاتساع خلال هذه القرون الشيء الكثير. وقد جسّدت في كثير من المواقف بكل صدق وإخلاص المشاعر الإنسانية النبيلة، ووصفت اللحظات المشحونة بعواطف الفرح والحزن، والإعجاب، والإحساس بالظلم والقهر، و اليأس والأمل وغيرها من الانفعالات التي مرّ بها الكتّاب والأدباء في هذا العصر المليء بالاضطرابات والصراعات، الحافل بأنواع المصائب والمشكلات.

الفصل الثـــالث: الـــدراسة الفنيـــة

- ❖ بنـــاء الـرســـائـــل
- ❖ الـســمـــات الأسلـوبيـة
- ❖ الأسلوب والسمات الإيقاعية
- ❖ الســمـــات التصـــويرية

1- بناء الرسائل:

إن أي عمل أدبي يتكون من بنية خارجية مشكلة له، فإذا ما أمعنا النظر في الرسائل التي بين أيدينا بغرض استخراج العناصر الجديرة بالدراسة من الناحية الشكلية التي تتصل بالبنية الخارجية لوجدنا أن أهم ما يسترعي الانتباه يتمثل في مقدماتها وخواتمها، ذلك أن المقدمات هي التي يمهد بها الكاتب لغرضه، والخواتم هي التي ينهي بها خطابه.

ولعل أهم عنصر من العناصر التي تبنى عليها الرسائل والتي تستحق العناية والدراسة المقدمة، حيث عنّي الكتّاب في هذا القرن بصدور رسائلهم، لأنها أول جزء يصل إلى المتلقي لذلك حرصوا على أن يكون هذا الاستهلال مناسبا للمخاطب وموافقا لغرض الرسالة.

1.1 مقدمة الرسائل:

هناك اختلاف واضح بين الرسائل الديوانية والإخوانية من حيث البناء، ولاسيما في شكل صدورها وطريقة استفتاحها، فالسياسية تأخذ طابعا رسميا وتتقيّد ببعض العناصر والشروط التي لا يجب على الكاتب التخلي عنها أو إغفالها، بينما الرسائل الإخوانية يتحرر أصحابها من كل قيد أو شرط ما عدا تلك التي تكون موجهة إلى الملوك والأمراء فقد تأخذ نمط الرسائل الديوانية في استفتاحها، لذلك وجب الفصل بينهما في دراستنا لهذا الجزء المشكل لهما.

أ- مقدمة الرسائل الديوانية:

تأخذ الرسائل السياسية طابعا رسميا يراعى فيها الدّقة ومكانة المخاطب، وقد ذكر القلقشندي أن الكتب الواردة عن صاحب تلمسان كانت تستفتح بعبارة الحضرة الفلانية حضرة فلان متبوعة بالألقاب المفخمة مع الدعاء المناسب لذلك، ثم يأتي بخطبة مع التحية[1]. وبعد اطلاعنا على رسائل بني عبد الواد وجدنا أغلبها تأتي على نسق واحد فهي لا تكاد تخلو من العناصر الآتية:

[1] ينظر: صبح الأعشى ، ج8، ص84.

العنوان: وهو أن يرد في الرسالة (من فلان إلى فلان) فيتعين بذلك اسم المرسِل والمرسل إليه، « وهو دال على مرتبة الكاتب من المكاتب فالأصل فيه الإخبار عن اسمي الكاتب والمكتوب إليه حتى لا يكون الكاتب مجهولا».[1] وكتّاب العصر الزياني جعلوا اسم المرسل إليه في المرتبة الأولى وهذا من باب تعظيمه وإجلاله[2]، وقد ارتبط ذكر المخاطب في الرسائل الموجهة إلى الممالك الإسلامية ببعض الألفاظ والصيغ التي تدل على مكانته المرموقة، وهي تختلف من رسالة إلى أخرى فالرسائل الديوانية التي كتبها ابن خطاب راعى فيها منزلة المرسل إليه، فكلما كان المقام عاليا ابتدأ بعبارة الحضرة في مثل قوله: «**الحضرة الكريمة حضرة مولانا الأمير الأعلى أبي إسحاق أيّد الله جنودها، وضاعف سعودها**».[3] ونكاد نجد هذه الصيغة تتكرر كلما كان الخطاب موجها لصاحب تونس في مثل قوله أيضا: «**الحضرة العلية الزاهرة المنيرة التي اشرق لألاؤها، وأغدقت بالخيرات سماؤها**».[4]

فهذه الصيغة خاصة بالسلطان الذي يتبوّأ مكانة مرموقة فتوظيفها هنا جاء للتمييز بينه وبين غيره من أصحاب المراتب العالية، ولعلها هي الأكثر شيوعا في المخاطبات الموجهة إلى الملوك، ومن ذلك الرسالة التي بعثها عبد الرحمن بن يغمراسن إلى السلطان الناصر مُحَمَّد بن قلاوون: «**إلى الحضرة العالية السامية، السنية، الماجدة المحسنة، الفاضلة، المؤيدة، المظفرة، المنصورة، المالكة، حضرة السلطان، الملك، الجليل، الفاضل، المؤيد، المنصور، المظفر، المعظم، ناصر الإسلام، ومذل عبدة الأصنام**».[5]

وعندما يكون الخطاب موجها إلى من هو أدنى مقاما نجدهم يستخدمون ألفاظا أخرى غير الحضرة كالمحلّ، ومن أمثلة ذلك مخاطبة يغمراسن بن زيان لوالي بجاية أبي فارس في قوله: «**المحل الذي جعل الله أمره كله سعيدا، وأسبغ على الأمة ظل الأمن كنفا منه مديدا**»[6]، أو عبارة

---

[1] مواد البيان (علي بن خلف الكاتب)، ص 330.

[2] ينظر: المصدر نفسه، ص331.

[3] المغرب والأندلس في القرن السابع،(أحمد عزاوي)، ص136.

[4] المصدر نفسه، ص151.

[5] صبح الأعشى (القلقشندي)، ج8، ص 84.

[6] المغرب والأندلس في القرن السابع، (أحمد عزاوي)، ص123.

(مولاي الأمير) في مثل: «**مولاي الأمير الأعلى أبو سعيد أدام الله سعوده، وضاعف اعتلاء أمره العزيز وصعوده، وعرّفه من صنعه الأجمل، واعتنائه الأكفل مألوفه ومعهوده**».[1] أو عبارة (مقام مولانا الأمير) في مثل: «**مولاي الأمير الأجل الأسنى أبو فارس بن مولانا الأمير أبي إسحاق بن سادتنا وموالينا الأمراء الراشدين، أيّد الله أمره، وجعل النصر مظاهره، ومؤازره**».[2]

وتوظيف هذه الألفاظ في الرسائل الموجهة إلى السلاطين والأمراء الحفصيين يعود إلى التبعية الزيانية لهم، فمقام المخاطب أعلى درجة وأكثر شأنا من المرسِل، بينما نجد ابن خطاب يستخدم لفظ (أخونا) في نص الرسالة الموجهة إلى سلطان غرناطة، ليس لأن المخاطب لا يستدعي مخاطبته بالألفاظ السالفة الذكر، بل لأن مضمون الرسالة التي كانت جوابا عن تعزية وتهنئة تضمنت تأكيد أواصر الأخوة ، فهو يقول: «**أخونا الذي أبرمنا عقد أخوته في ذات الله أشد الإبرام**».[3]

وتجدر الإشارة إلى أن رسائل البيعة تأخذ شكلا مغايرا تماما لبقية المواضيع الأخرى، إذ تختلف مقدمتها عن باقي الرسائل فهي تأتي على شكل الخطب إذ تبدأ بالحمدلة، مثل قول ابن خطاب في بيعة يغمراسن بن زيان إلى الواثق بالله الحفصي:« **الحمد لله الذي تغمدنا بإنعامه المتتابع، وهدانا إلى الصراط المستقيم، بما نصب لنا من الشرائع**».[4]

أما تلك الرسائل التي وجّهها بنو عبد الواد إلى سلاطين أراغونة فجاءت على سياق مختلف فاستفتحت بلفظ (السلطان) أو (الملك) متبوعا بالألقاب المفخمة مثل رسالة عبد الرحمن بن يغمراسن التي جاء فيها: «**السلطان الأجل الأعز الأكرم الأرفع الأكمل دون جاقمة سلطان أراغون**..».[5] ونشير هنا إلى أنه جرى أحيانا تقديم وتأخير المرسَل إليه في الرسائل الموجهة إلى النصارى، فأحيانا يتقدم الخطاب وأحيانا يأتي بعد ذكر المرسِل، ومن هذه الرسائل التي تبدأ بذكر المرسِل :«**من عبد الرحمن بن موسى بن عثمان بن يغمراسن بن زيان أيده الله بنصره**

[1] Edición y estudio del Fasl al jitab, (Hassan El –Ghailani) , p166.

[2] المغرب والأندلس في القرن السابع، (أحمد عزاوي)، ص.112

[3] المصدر نفسه، ص162.

[4] المصدر نفسه، ص130.

[5] علاقة إسبانيا القطلانية، (عمر سعيدان)، ص88

وأمده بمعونته ويسره، إلى السلطان الأجل الأفضل الأكرم الضرغم، الأفخم، الأضخم، أَلْفُنس».[1]

البسملة: لقد درج الكتّاب منذ عهد الرسول (ﷺ) على كتابة البسملة في صدور رسائلهم «ليبارك لهم فيما يحاولون ويؤجرون عليه»[2]، وغالبا ما كانوا يثبتونها في أول الخطاب حيث ذكر القلقشندي أنه « يجب تقديمها في أول الكلام المقصود: من مكاتبة أو ولاية أو منشور إقطاع، أو غير ذلك ، تبركًا بالابتداء بها، وتيمُّنًا بذكرها ».[3]

لكن من النادر أن نجد رسالة تستفتح بالبسملة في العصر الزياني لأن هذه عادة القدماء فقد تخلى عنها الكتّاب في رسائلهم السياسية والإخوانية، ولعل السر في ذلك هو أن أغراضها غلب عليها الطابع الرسمي والاجتماعي، وحتى تلك التي تحتاج إلى مباركة حتى يوفّقوا في مقاصدهم وأهدافهم كانوا يعلمون مسبقا أن أغراضهم مقضية ولن تردّ أيديهم فارغة مثل رسائل الشفاعات والعنايات.

ونجد من أغراض الرسائل الموجبة لإثبات البسملة في صدورها تلك المتضمنة لمعاهدة الصلح بين الدولة الزيانية ومملكة أراغونة الإسبانية، حيث استعان بها الكاتب ليكون هذا الصلح مباركا وموفقا، وبالنظر إلى ما بين أيدينا من رسائل هناك رسالتين فقط استهلتا بالبسملة، وجاء في إحداها: «**بسم الله الرحمن الرحيم وسلام على عباده الذين اصطفى، وحسبنا الله ونعم الوكيل، عليه توكلت وهو رب العرش العظيم. هذا كتاب صلح أسّست قواعده وحملت مصادره**».[4]

التحية: لقد أثبت الكتّاب الزيانيون في جل رسائلهم السياسية التحية التي تكون بلفظ (السلام)، أما موضعها فعادة تأتي بعد ذكر المرسل والمرسل إليه والدعاء المقترن بهما، في مثل قول ابن خطاب: «... **العامل بما يوافق رضاه ويطابق اختياره في جميع الوجوه والأنحاء، عثمان بن**

---

[1] المصدر السابق، ص99.

[2] أدب الكتّاب، (مُحَمَّد بن يحيى الصولي)، تصحيح وتعليق : مُحَمَّد بهجة الأثري، المطبعة العربية ببغداد، المطبعة السلفية، مصر، 1341هـ، ص32.

[3] صبح الأعشى، ج6، ص222.

[4] علاقة إسبانيا القطلانية، (عمر سعيدان)، ص152.

يغمراسن، سلام كريم عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته».[1] وحين يكون الخطاب موجها إلى النصارى يضاف إلى لفظ السلام عبارة من اتبع الهدى وذلك للتفريق بينهم وبين المسلمين، في مثل: «**سلام على من اتبع الهدى ورحمة الله تعالى وبركاته**». [2]

الدعاء: إن الدعاء في صدور الرسائل الديوانية يعدّ لازمة من لوازمها وهو جزء لا يتجزأ في هذا الجنس الأدبي إذ هو أحد أغراضها، فلا نكاد نجد رسالة سياسية في هذا العصر تخلو مقدمتها من الدعاء للمرسل إليه، ونقصد بها تلك الجمل الدعائية المستقلة بذاتها وليست التي تأتي على شكل جمل اعتراضية، وهي ترد غالبا بصيغ وتراكيب متعددة لا يمكن إحصاؤها لأنها بعدد الحالات التي وردت بها، وللتدليل على ذلك نستدل ببعض النماذج، ومنها قول ابن خطاب في رسالة تأكيد الولاء ليغمراسن بن زيان إلى السلطان الحفصي أبي إسحاق: « **الحضرة الكريمة حضرة مولانا الأمير الأعلى أبي إسحاق أيد الله جنودها، وضاعف سعودها، وأباد بسيفها القاصل ورأيها الفاصل من شق عصا طاعتها وتعدى حدودها**».[3]

ومن مقاصد الأدعية الواردة في صدور الرسائل السياسية أن تكون دالة على الغرض وموافقة له[4]، ففي جواب ابن خطاب عن إنهاء الأمير أبي فارس التمرّد في قسنطينة، فقد توافق الدعاء مع غرض الرسالة، حيث إنه تضمن معنى النصر والتأييد وردّ الأعداء والماكرين بالدولة شأنه شأن الغرض الذي لأجله دبجت الرسالة: « **حضرة مولانا الأمير الأعلى أبي إسحاق وصل الله عزمها الماضي بتأييده، وأدار الأفلاك بتشييد ملكها الشامخ وتمهيده، وطهر جوانبه من أدناس المنافقين وأرجاس المارقين بما يريق عليها من دمائهم**».[5] وقد يكون الدعاء دالا على العلاقة المتينة التي تجمع بين الدول والمماليك، والذي غالبا ما يكون بدوام العز والنصر على الأعداء كالدعاء الوارد في الرسالة الموجهة إلى دولة المماليك من عبد الرحمن بن يغمراسن إلى السلطان مُحَمَّد بن قلاوون: « **أدام الله علو قدره في الدنيا والآخرة، وأسبغ عليه نعمه باطنة**

---

[1] المغرب والأندلس في القرن السابع، (أحمد عزاوي)، ص112.

[2] ينظر: على سبيل المثال الرسائل الواردة في علاقة إسبانيا القطلانية (عمر سعيدان)، ص65، 73، 80.

[3] المغرب والأندلس في القرن السابع، ص136.

[4] ينظر: مواد البيان، (ابن خلف الكاتب)، ص335.

[5] المغرب والأندلس في القرن السابع، ص119.

وظاهرة، وجعل وجوه محاسنهم في صفحات الدهر سارة سافرة، وصفقة أعدائهم خائبة خاسرة».[1]

والدعاء الوارد في صدور الرسائل السياسية بصفة عامة يأتي على شكل جمل دعائية طويلة تصل إلى حدّ الفقرات لأنه يستحسن عند مخاطبة الملوك الإكثار من الدعاء، وفي هذا يقول الكلاعي: «وقد يستسهل الإطناب في الدعاء في مخاطبة الملوك والأمراء».[2]

أما الدعاء الوارد في صدور الرسائل الموجهة إلى ملوك النصارى فيختلف مضمونه عن بقية الأدعية في الرسائل التي تكون للمسلمين لاختلاف العقيدة، فابن الأثير يقول: « لا يجوز أن نخاطبهم بالظفر وعلو الكلمة، والدعاء بالفوز في الآخرة».[3] ويكون بدل ذلك بالهداية والرشاد مثل رسالة عبد الرحمن بن يغمراسن إلى (جاقمو الثاني): «... **أكرمه الله تعالى بتقواه ووفقه وأرشده وهداه**».[4] وتوخى الكتّاب في رسائلهم الموجهة إلى النصارى الإيجاز في الدعاء بدل الإطناب، مثل ما ورد في رسالة السلطان موسى بن أبي يحي بن يغمراسن بن زيان إلى الملك (بترو الرابع): «**أسعده الله برضاه وأرشده إلى سبيل هداه، وأكرمه بتقواه**».[5]

الخطبة: لقد فصل كتّاب الرسائل الديوانية في هذا العصر بين الخطبة والعناصر السالفة الذكر بلفظ البعدية (وبعد)، حيث توسّط بين ذكر المرسل والمرسل إليه وبين الخطبة التي تتضمن التحميد والصلاة على الرسول الكريم. حيث لم يغفل الكتّاب الزيانيون عن هذا العنصر أبدا، وجاء في مجمله موجزا ومن نماذجه قول ابن خطاب:« «**وبعد حمد الله على عظيم فضله وجزيله، والصلاة على سيدنا مُحَمَّد رسوله الذي أيده بمعجز تنزيله، وعلى آله وصحبه الماضين على سوي منهجه وقويم سبيله**».[6]

---

[1] صبح الأعشى، (القلقشندي)، ج8، ص85.

[2] إحكام صنعة الكلام، (الكلاعي: أبي القاسم مُحَمَّد بن عبد الغفور الإشبيلي الأندلسي) تحقيق: مُحَمَّد رضوان الداية، دار الثقافة، بيروت، 1966م.ص73.

[3] المفتاح المنشا لحديقة الإنشا، (ابن الأثير)، ص61.

[4] علاقة إسبانيا القطلانية، (عمر سعيدان)، ص73.

[5] المصدر نفسه، ص122.

[6] المغرب والأندلس في القرن السابع (أحمد عزاوي)، ص141.

ويشير الكاتب غالبا في هذا الجزء من الرسالة إلى غرضها، ويكون في التحميد، وهذا ما ذهب إليه الكلاعي في قوله :«إذا كان الكاتب حاذقا أشار في تحميده إلى ما جاء بالرسالة من أجله».[1] وهذا ما وجدناه في بعض رسائل هذا العصر، ففي رسالة المؤاخاة وتأكيد المودة بين السلطان الزياني وسلطان غرناطة يقول ابن خطاب : «**وبعد حمد الله الذي جعل التّحباب في ذاته سنّة لعباده**».[2]

ونظير ذلك ما ورد في جواب التعزية إلى سلطان غرناطة حيث يقول ابن خطاب: « **وبعد حمد الله مقدر الآجال، المحمود على جميع الأحوال، الحكيم الذي لا يرد قضاؤه، الكريم الذي وسع الأمة عطاؤه، قبل الاستنجاد والسؤال**».[3]. ونجده أيضا في الرسائل ذات الطابع الحربي في مثل جواب إنهاء التمرّد في قسنطينة، يقول الكاتب: «**وبعد حمد الله الذي أطفأ ما اشتعل، من نار الفتنة بنور الحضرة المجاهدية وأخمده، وأنجز لجريها المظفر في حزبها المعقر كل ما وعده**».[4]

والخطبة هنا هي بمثابة إثبات للعقيدة السنية، إذ لم يغفل عنها بنو عبد الواد حتى في رسائلهم الموجهة إلى ملوك النصارى وإن كانوا يكتفون بالحمدلة مع التصلية، ومن أمثلة ذلك: «**وبعد حمد الله حق حمده والصلاة التامة على سيدنا ومولانا مُحَمَّد نبيه الكريم وعبده وعلى آله وصحبه الكرام الخلفاء من بعده**». [5]

يتضح لنا مما سبق أن صدور الرسائل الديوانية قد تعددت عناصرها وتنوعت من ذكر العنوان والدعاء للمرسل إليه، والتحية والخطبة، وذكر المكان وغيرها من العناصر الأخرى المشكلة للمقدمة، وراعى فيها الكتّاب مكانة المخاطب ودرجته السياسية، وربطوها بالمواضيع التي لأجلها دبجوا رسائلهم، ولم تختلف في طريقة بنائها على الرغم من اختلاف أغراضها ومضامينها، ما عدا رسائل البيعة التي أخدت نمطا مغايرا تماما لبقية الرسائل الأخرى.

[1] إحكام صنعة الكلام، (الكلاعي)، ص66-67.
[2] المغرب والأندلس في القرن السابع (أحمد عزاوي)، ص165.
[3] المصدر نفسه، ص162.
[4] المصدر نفسه، ص119.
[5] علاقة إسبانيا القطلانية (عمر سعيدان)، ص88.

ب– مقدمة الرسائل الإخوانية:

إن الرسائل الإخوانية الموجهة إلى أرباب الدول والملوك والسلاطين لا تختلف اختلافا كبيرا في مقدمتها عن الرسائل السياسية فهي تبدأ بالألقاب السّالفة الذكر مثل: الحضرة، الأمير الأجل، المقام الأعلى، المتبوعة بالدعاء، فابن خطاب قد حافظ في رسائله الشخصية التي وجهّها إلى ذوي الشأن على جميع العناصر المكوّنة لصدور الرسائل السياسية من ذكر للمرسل إليه والدعاء له، وذكر المرسِل، والسلام والحمدلة والتصلية، وكمثال على ذلك نورد مطلعا لرسالته التي بعثها إلى المقام النصري في غرض الإعانة حيث يقول: «**المقام الذي ألبس الأيام بشارة زينتها وجمالها بدولته، وأعز الإيمان وأذل الكفر بصولة سلطانه وسلطان صولته، مقام مولانا السلطان الأعلى الأسنى أمير المسلمين أبو عبد الله بن مولانا الأعلى أمير المسلمين بن نصر، أدام الله أيامه، لعلو يزداده، ونصر عزيز يتصل به من السماء إمداده... مملوك طاعته... مُحَمَّد بن عبيد الله بن خطاب...سلام كريم مبارك عميم يخصكم، ورحمة الله وبركاته، وبعد حمد الله الذي له الأمر كله، والصلاة على سيدنا مُحَمَّد رسول الله**».[1]

وهذا النوع من الاستهلال في مثل هذه الرسائل أمر طبيعي فمكانة المخاطب تفرض التقيد والالتزام بهذه العناصر لاسيما الألقاب والصفات التي تعلي من شأنه وتميزه عن غيره، مع الدعاء له بما يناسب الحال ويتوافق والغرض الذي لأجله دبّج رسالته.

أما الرسائل الإخوانية وبخاصة تلك التي تكون بين الأصدقاء فهي على العكس من ذلك تماما في مطالعها، وهذا الأمر طبيعي لأنه يراعى في الخطاب مكانة المكاتبين، حيث نجد اختلافا بينا في صدورها، وهذا ما أكده الكلاعي في قوله: «ونظرت– أعزك الله – في صدور الرسائل واستفتاحها فوجدتها أيضا تختلف».[2] ويعود ذلك إلى العلاقة بين المرسل والمرسل إليه التي تتسم غالبا بالمودة والصداقة، وإلى المكانة الاجتماعية المتساوية بينهما، وإلى المضامين التي تحويها هذه الرسائل التي تكتسي الطابع الشخصي الاجتماعي.

[1] Edición y estudio del Fasl al jitab, (Hassan El –Ghailani), p167.

[2] إحكام صنعة الكلام، (الكلاعي)، ص57.

وهذا الأمر نفسه لاحظناه على الرسائل التي بين أيدينا، إذ استفتحت بعضها بصيغة (سيدي) أو (يا سيدي) متبوعة إما بدعاء أو مدح، ومن أمثلة ذلك قول لسان الدين في مخاطبته لشيخه ابن مرزوق: «**سيدي أبقاك الله، تعرج على البقع المزورة ركاب الجلالة، وتورث مراقي المقابر لا عن كلالة، وتتبجج في صميم العمل الصالح بين السلف والسلالة**».[1] أما الدعاء هنا فغالبا ما يأتي موافقا لغرض الرسالة التي كتبها بعد عودة ابن مرزوق من زيارة مقابر الصلحاء.

ونظير ذلك من الاستهلالات في غرض الشفاعة، رسالة لسان الدين إلى ابن مرزوق التي يقول فيها : «**يا سيدي أبقاكم الله محط الآمال، وقبلة الوجوه، وبلغ سيادتكم من فضل الله وترجوه، وكلأ بعين حفظه ذاتكم الفاخرة، وجعل عز الدنيا، متصلا بعز الآخرة**».[2]

وقد تأتي هذه الصيغة مقترنة بالمدح الذي يستهل به الكاتب رسالته مجاملة منه لصديقه وتقديرا له واعترافا بمكانته، كقول لسان الدين في رسالة أخرى إلى ابن مرزوق: «**سيدي مجدا وعلوا، وواحدي ذخرا مرجوا، ومحل والدي برا وحنوا، مازال الشوق – مذ نأت بي وبك الدار، واستحكم بيننا البعاد – يُرْعي سمعي أنباءك**».[3]

كما راعى الكتّاب في بعض الرسائل مكانة المخاطبين لاسيما الشخصيات التي لها وزن في المجتمع كالقاضي أو الفقيه وغيرهما، واستهلوا رسائلهم بصيغ خاصة بهؤلاء كالفقيه الأجل أو الشيخ الأجل، وهذا ما نجده في رسالة ابن خطاب إلى أبي حاتم التي يقول فيها: «**الفقيه الأجل أبو حاتم – أبقاه الله – للمراتب الجليلة يرفعها، وللمناقب الجليلة يجمعها، ولجموع الصلبان يبددها، ولربوع الإيمان يجددها**.[4] وعبارة الشيخ الأجل في مثل قوله أيضا: «**الشيخ الأجل أبو القاسم بن الوزير بن أبي بكر بن الشيخ، أدام الله علاه، وحرس مجده وسناه، خديم جلاله، وشاكر إحسانه وإجماله**».[5]

---

[1] ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب، (ابن الخطيب)،ج2، 156.

[2] المصدر نفسه، ج2، ص125.

[3] التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا، (ابن خلدون)، ص 131،130.

[4] Edición y estudio del Fasl al jitab, p293.

[5] Ibid, p180.

ومن الابتداءات التي شاعت في صدور الرسائل الإخوانية في العصر الزياني الابتداء بالدعاء على نحو ما نجده في رسائل الشفاعات، ومن نماذجه ما ورد في طلب العناية الموجه من ابن خطاب إلى أبي أمية الدلائي: «**وصل الله علاء قدره، كما جعل الألسنة تلهج بشكره، وسير في الآفاق جميل صيته وذكره**».[1] وفي الغرض نفسه استفتح خطابه قائلا: «**حفظ الله محلكم السعيد، ووهب من اعتنائه ما يكون للحالة الحسنى المفيد المعيد**».[2]

ومن الرسائل التي استهلت بالدعاء رسالة ابن خطاب إلى قاضي سبتة في المواصلة والمجاملة: «**أبقاه الله، وعلاؤه يزداد، ووداده يرتاد، مجل قدره، وما أحقه أن يجل العليم بما له من السرور الذي تبوأ رتبته العليا**».[3] والمفيد أن الدعاء الذي يرد في صدور الرسائل الإخوانية الموجهة إلى الأصدقاء قد تعددت أغراضه ومضامينه من التودد للمخاطب ومجاملته، أو لغرض تحقيق مآرب ومكاسب شخصية، لكن أحسنه وأفضله ليس الذي يأتي لتزيين الكلام، وإنما ما كان متوافقا مع غرض الرسالة المقصود لأنه يكون بمثابة مفتاح الرسالة الدال على مضمونها.

واستفتح الكتّاب رسائلهم الإخوانية بالتحميد، ومن ذلك قول ابن خلدون :« **الحمد لله، ولا قوة إلا بالله، ولا راد لما قضاه الله، يا سيدي ونعم الذخر الأبدي، والعروة الوثقى التي اعتلقتها يدي، أسلم عليكم سلام القدوم، على المخدوم**».[4] ونظير هذا الاستهلال قول الشيخ المناوي الورنيدي في رسالة الإجازة: «**الحمد لله الذي بمنه ترجى إجازة الصراط، ليحصل لنا في سلك أهل حضرته انخراط وتبدو لنا من اللحاق بهم مخائل وأشراط، نحمد سبحانه حمدا مطلقا بلا قيد ولا اشتراط**».[5] والصيغة نفسها وردت في رسالة ابن مرزوق التي يشكو فيها حاله ويعدّد كفاءاته: « **الحمد لله على كل حال، أخرج الطبراني في منسكه...**».[6]

---

[1] Ibid,p182.

[2] Ibid,p161.

[3] Ibid,p229.

[4] التعريف بابن خلدون، (ابن خلدون)، ص130-131.

[5] البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، (ابن مريم التلمساني)، ص18.

[6] نيل الابتهاج بتطريز الديباج (التنبكتي)، ص453.

واستخدم الأدباء أساليب أخرى في استهلال الرسائل الإخوانية في هذا العصر، حيث لجأوا إليها نظرا لما يقتضيه غرض الرسالة وفحواها، ومنها ابتداء الرسائل بالتنويه بالقيمة الأدبية والعلمية عن طريق وصف الرسائل وتبيان مدى بلاغتها وفصاحتها، وهذا من باب المجاملة بين الأصدقاء والتنويه بالمكانة الأدبية، ومن ذلك قول ابن خطاب يصف رسالة: «**حذفت الجواب للدلالة غاية، ووصفت الكتاب بالجلالة، أصرفت الخطاب إلى الرسالة... وهي الثريا ودان الهرم والشيب، أشهد أنها لفريدة العصر، شديدة الأسر**». [1] أو في مثل جوابه عن رسالة بعثها إليه الفقيه أبو عمرو بن المرابط: «**مرحبا بغريبتك السالبة للألباب، الجالبة للإعجاب، المنسكب طبع براعتها وبراءة طبعها كالرباب**».[2]

ومن أضرب الاستهلال التي شاعت في هذا العصر أيضا، افتتاح الرسائل بصيغ (كتابي)، (كتبت)، و(كتبته)، كجواب ابن خطاب عن رسالة اعتذار: «**كتبته أيها الولد النجيب والحبيب، الذي له من قلبي المحل القريب**».[3]

وغالبا ما استفتح أصحاب هذه الرسائل رسائلهم بأبيات شعرية دالة على غرضها فقد اعتادوا على ذلك في هذا العصر لأن «استهلال الرسالة بالشعر يوطئ لفحواها ويهيئ المتلقي للإصغاء والمتابعة»[4]، فابن مرزوق برع في التمهيد لأجل الترحيب بصديقه لسان الدين، إذ خاطبه قائلا:

يَا قَادِمًـــــا وَافَى بِكُـــــلِّ نَجَـــــاحِ أَبْشِـــرْ بِمَـــا تَلْقَـــاهُ مِـــنْ أَفْـــرَاحِ
هَـــذِي ذُرَى مَلِـــكِ المُلُـــوكِ فَلُـــذْ بِهَـــا تَنَـــلْ المُـــنَى وَتَفُـــزْ بِكُـــلِّ سَمَـــاحِ
مغـــنى الإمـــام أَبِي عَنَـــان يَمـــن تَظْفَـــرْ بِبَحْـــرٍ مِـــنَ العُـــلاَ طَفَّـــاحِ[5]

[1] Edición y estudio del Fasl al jitab, p213.

[2] Ibid, p194.

[3] Ibid,p188.

[4] الرسائل الأدبية النثرية في القرن الرابع للهجرة، (غانم جواد رضا الحسن)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2011م، ص366.

[5] نفح الطيب، (أحمد المقري)، ج6، ص64.

وردّ عليه لسان الدين بأبيات شعرية يقول فيها:

رَاحَـــتْ تُـــذَكِّرُنِي كُـــؤُوسَ الـــرَّاحِ والقُـــرْبُ يَخْفِـــضُ لِلجُنُـــوحِ جَنَـــاحِي
وَسَـــرَتْ تَـــدُلُّ عَلَـــى القُبُـــولِ كَأَنَّمَـــا دَلَّ النَّسِـــيمُ عَلَـــى انْـــبِلاَجِ صَـــبَاحِ
حَسْـــنَاءُ قَـــدْ غَنِيَّـــتْ بِحُسْـــنِ صِـــفَاتِهَا عَـــنْ دُمْلُـــجٍ[1] وَقِـــلاَدَةٍ وَوِشَـــاحِ[2]

فهذه الأبيات دالة هي الأخرى على مضمون الرسالة المتمثل في فرحه وسروره بقرب وصول صديقه والتطلع إلى لقائه.

ومن الاستهلالات بالشعر الجميل، على سبيل التمهيد لغرض الرسالة المتضمنة للشوق والتطلع إلى اللقاء، ما ورد في مقدمة رسالة ابن خطاب إلى القاضي أبي أمية الدلائي:

تَخُصُّـــــكُمْ مِـــــنِّي تَحِيَّـــــةُ شَـــــيِّقٍ إِلَى نَفَحَـــاتِ الوَصْـــلِ مِـــنْكُمْ تَعَرَّضَـــا
فَلَـــوْ قَـــالَ لِي سَـــلْ مَـــا تَشَـــاءُ مِـــنَ المُنَى زَمَـــانِي وَمَـــا يُرْضِـــيكَ قُلْـــتُ أَبَا الرِّضَـــا
وَلَـــوْ لَقِيّـــتْ مِنْـــهُ أُتِيحَـــتْ لَمَـــا غَـــدَا عَلَـــى مَضَـــضِ الأَقْـــذَاءِ جَفْـــنِي مُغَمَّضَـــا[3]

ونحن نرى أن استفتاح الرسائل بالشعر كان لسببين اثنين، أولهما إظهار هؤلاء الكتّاب لمقدرتهم وبراعتهم الشعرية فغالبا ما يكون الرد مع المحافظة على البحر والقافية والروي، والسبب الآخر هو أن هذه الرسائل التي استهلت بالشعر تضمنت أغراضا عبّر فيها الكتّاب عن مشاعرهم وأحاسيسهم فاختاروا الشعر المناسب لذلك ليكون أكثر وقعا في النفوس.

وخلاصة القول إن الكتّاب والأدباء في العصر الزياني قد اهتموا بصدور رسائلهم السياسية والإخوانية على حد سواء، لأن الابتداء أول شيء يطّلع عليه المتلقي، لذلك حرصوا على أن تكون الاستهلالات –قبل كل شيء – مراعية لمكانة المخاطب ومنزلته السياسية والاجتماعية، ومؤثرة في نفسه وموافقة لغرض الرسالة، وهذا ما يفسره تنوع هذه المقدمات.

[1] دملج الشيء إذا سوّاه وأحسن صنعه، والدملج المعضد من الحلي. لسان العرب، مج2، ص 276.
[2] ديوان لسان الدين، (ابن الخطيب)، ج1، ص232–233. نفح الطيب، ج6، ص 65.
[3] Edición y estudio del Fasl al jitab, p226.

2.1 الانتقال إلى غرض الرسالة:

العرض هو جوهر أي عمل أدبي وأساسه، والدافع والمحفز الذي بسببه أنجز الكاتب عمله الأدبي فهو ذو أهمية كبيرة، ومن هنا، فقد كان لابد على الأدباء من التمهيد له بما يناسب من الكلام لإثارة انتباه القارئ، وقد جرت عادة الكتّاب القدامى في الفصل بين مقدمات رسائلهم وعروضها باستخدام لفظ البعدية، لما لهذا الفصل من قيمة بلاغية ترجى لأن الانتقال من معنى إلى معنى آخر يحتاج إلى رابطة، وذلك ما يعرف عند البلاغيين بالاقتضاب، وهو « أن يقطع الشاعر كلامه الذي هو فيه، ويستأنف كلامًا آخر غيره من مديح أو هجاء أو غير ذلك، ولا يكون للثاني علاقة بالأول »[1] ، أما فصل الكلام في النصوص النثرية مثل الرسائل بلفظ البعدية ، فإنه يدخل في باب التخلص، يقول بن الأثير: «والذي أجمع عليه المحققون من علماء البيان أنه أما بعدُ ؛ لأن المتكلم يفتتح كلامه في كل أمر ذي شأن بذكر الله وتحميده، فإذا أراد أن يخرج إلى الغرض المسوق إليه، فصل بينه وبين ذكر الله تعالى أمّا بعد». [2]

وإذا ما استثنينا رسائل البيعة التي فصلت مقدماتها عن عروضها بهذه الصيغة فإن الرسائل السياسية لهذا العصر المتضمنة مواضيع أخرى قد استهلت أغراضها بدل ذلك بصيغة (إلى هذا) لأنها تدل حقيقة وبصفة قطعية على الدخول إلى صميم الموضوع والولوج في غرض الرسالة، فقد عدّها ابن الأثير من أحسن أنواع الفصل التي تدل على الخروج من كلام إلى كلام آخر غيره[3]. واستخدامها شائع في الرسائل السياسية، ومن نماذجها ما ورد في رسالة تأكيد التبعيّة قول ابن خطاب: « **وإلى هذا فإن العبد أصدر هذه الخدمة إلى حضرة مولاه –أيّدها الله– سالكا من الانضواء إليها سبيلا تؤديه إلى السعادة**».[4]

وذكر الكلاعي الألفاظ الشائعة الاستخدام عند الكتّاب للفصل بين الاستهلال والعرض وهي كتبته، كتبت، كتبنا[5]، وبما أن أدباء العهد الزياني اهتموا بحسن الانتقال من الاستهلال إلى

---

[1] المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، (ضياء الدين بن الأثير)، تحقيق: أحمد الحوفي، بدوي طبانة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، الفجالة، القاهرة، دت، ج3، ص121.

[2] المصدر نفسه، ج3، ص139.

[3] ينظر: المصدر نفسه،ج3، صفحة نفسها.

[4] المغرب والأندلس في القرن السابع، (أحمد عزاوي)، ص136.

[5] ينظر: إحكام صنعة الكلام، ص69.

العرض فاصلين خطابهم بين العنصرين عن طريق استخدام صيغ تعبيرية تكون في مستهل ابتداء الرسالة فإننا نجد هذه الصيغ تتكرر في جل الرسائل مثل قول ابن خطاب :«**فكتبه العبد كتب الله لكم بشرا تتأرج بشراه تأرج الحدائق، وتتزين بوسم وشمه صفحات المهارق**».[1] أو في مثل: «**فكتبته– كتب الله لكم سعدا يمتد مداه– وتشتد وطأته على عداه**».[2]

لكن هذه الألفاظ التي أشار إليها الكلاعي شائعة في هذا العصر في الرسائل الإخوانية وليس السياسية لأن هذه الأخيرة فصل بين صدورها وأغراضها بصيغة (إلى هذا) ، حيث لم تكن دالة على الولوج في صميم الموضوع بل تضمنت عناصر أخرى، حيث جاءت مقترنة بالدعاء للمرسل إليه ثم ذكر المكان الذي كتبت منه الرسالة لما له من أهمية لأن معرفته تسهّل على الباحث عمله ولاسيما في الرسائل الإخوانية، فالرسائل الديوانية لا تحتاج إلى إثبات مكان إنشائها لأنها تصدر عن ديوان الإنشاء المعلوم المكان، وبالرغم من ذلك إلا أننا نجد ابن خطاب يثبتها في جل رسائله التي كتبها عن ملوك الدولة الزيانية، ولعل السبب في ذلك هو إثبات الوجود وتعظيم الإمارة في مثل قوله: «**وبعد فكتب كتب الله نصرا يبهر، وسعدا يسمو منه المظهر من تلمسان – حرسها الله– وبركات الحضرة المؤيدة قد شملت الأرجاء، وكملت الرجاء**».[3]

وابن خطاب لا يكتفي بذكر المكان في الرسائل السياسية فقط بل يثبته حتى في رسائله الإخوانية التي تأتي مقدماتها مشابهة في شكل بنائها لرسائله السياسية – كما أشرنا سابقا– وبخاصة تلك التي وجهها إلى الملوك والسلاطين بصفة شخصية، ويتضح ذلك في مثل قوله في رسالة العناية التي كتبها عن نفسه للأمير الحفصي أبي زكريا : «**فكتبه العبد، كتب الله لكم إحياء السنن، وإسداء المنن، من تلمسان –حرسها الله– وبركات الحضرة الكريمة –أيّدها الله– سابغة الأقياء**».[4] ويتجلى أيضا في رسائله الإخوانية التي بعثها إلى الأصدقاء، مثل قوله في رسالة

[1] المغرب والأندلس في القرن السابع (أحمد عزاوي)، ص116.

[2] المصدر نفسه، ص157.

[3] من رسالة تجديد الولاء لصاحب تونس، المصدر نفسه، ص139.

[4] Edición y estudio del Fasl al jitab, p178.

الشوق إلى الفقيه الحكيم أبي الرضا: «**كتبته، كتب الله لكم عزة عريضة، من تلمسان والشوق إليكم لا يهدأ**».[1]

إن هذا الإثبات للمكان مهم لأنه يسهّل على الباحث التفريق بين رسائل ابن خطاب التي كتبها في تلمسان والرسائل التي كتبها في غيرها من الممالك الأخرى، هذا الأمر الذي لا نجده عند الكثير من الكتّاب الذين يغفلون عن هذا العنصر سواء مع ابن خلدون أم لسان الدين بن الخطيب وغيرهما، فقد أهملوا ذكر المكان وهو ما يضع الدارس في حيرة من أمره، ويصعّب عليه معرفة زمان ومكان إنشاء الرسالة إلا ما يشار في متنها من أخبار قد تكون دالة عليه.

وبالعودة إلى طريقة الانتقال من مقدمة الرسائل إلى عرضها فقد عني الكتّاب بالتمهيد له بما يناسبه لإثارة انتباه المتلقي، ومن الصيغ التي استعانوا بها في هذا العصر لفظ (كتبت) أو (كتبته)، ومن ذلك ما ورد في رسالة ابن البرجي المتضمنة غرض الشفاعة، يقول: «**كتبت يا سيدي– أدام الله تعالى علاكم، وحرس مجدكم الطاهر وسناكم – وأنا بين خجل مفحم، وعجل مقحم، أتذكر تسويفي بلقائكم، حين سمح الدهر باقترابكم**».[2] أو في مثل قول ابن خطاب في رسالته إلى الفقيه الحكيم أبي الرضا: «**كتبته، كتب الله لكم عزة عريضة، وسعادة لا تزال فريضة، من تلمسان والشوق إليكم لا يهدأ**».[3]

وقد يكون حسن الانتقال من الاستهلال إلى عرض الرسالة لاسيما في الجواب بصيغ تعبيرية أخرى مثل: (ورد كتابك)، أو (ورد علي)، ومنهم من يأتي بصيغ أخرى مثل قول ابن خطاب في مخاطبته لأبي عبد الله بن السكان:« **أصدرت مفاتحتي هذه مستطلعا من أحوالكم ما استطلاعه أهم أموري، وسماع خبره السار مادة أنسي وسروري**».[4]

والملاحظ على بعض الرسائل الإخوانية أن الكتّاب قد تحرروا فيها من كل قيد أو شرط لأنهم وجدوا أنفسهم حين مخاطبة أصدقائهم أحرارا طلقاء، فعبّروا كيفما شاءوا دون تقيد بالصيغ

---

[1] Ibid, p226.

[2] نفح الطيب (أحمد المقري)، ج6، ص68.

[3] Edición y estudio del Fasl al jitab, (Hassan El –Ghailani), p226.

[4] Ibid, p189.

أو الألفاظ، فمنهم من يستهل رسالته بالغرض مباشرة، ومنهم من لا يفصل بين المقدمة والعرض ويجعلهما معا.

3.1 الخاتمة أو الانتهاء:

الخاتمة هي آخر شيء يكتب في العمل الأدبي وبها يُنهي الأديب نصه، وقد أطلق عليها النقاد القدامى اسم الانتهاء[1]، واشترطوا فيه أن يكون محكما لا تمكن الزيادة عليه، ولا يأتي بعده أحسن منه، وقد اهتم بها البلاغيون اهتمامهم بالبداية والعرض، يقول ابن الأصبع: «يجب على الشاعر والناثر أن يختما كلامهما بأحسن خاتمة؛ فإنها آخر ما يبقى في الأسماع ؛ ولأنها ربما حُفظت من دون سائر الكلام في غالب الأحوال، فيجب أن يجتهد في رشاقتها ونضجها وحلاوتها وجزالتها».[2]

ولكن دائما ما يكون الوصول إلى النهاية في أي عمل أدبي شاقا ومتعبا لأن الأديب يكون قد استنفد طاقته كلها في العرض لذلك قلّما نجد الكتّاب يعتنون بخواتم رسائلهم، فحين وصلوا إلى النهاية وجدوا أنفسهم غير قادرين على بدل المزيد فنراهم يخرجون غالبا بلفظ السلام المقترن بالدعاء المناسب للغرض الذي لأجله كتبت الرسالة سواء أكانت ديوانية أم إخوانية، و قد عدّ القلقشندي هذا الضرب من الاختتامات من رسوم الختام المهمة التي شاعت في المكاتبات الرسمية والشخصية منذ عصور الإسلام الأولى.[3]

وشاع هذا الضرب من حسن الختام بين كتّاب العهد الزياني، وطغى على رسائلهم الإخوانية والديوانية على اختلاف أغراضها وتعدد مضامينها، حيث درجوا على أن يأتوا بالسلام مسبوقا بالدعاء للمخاطب الذي يتوافق ومضمون الرسالة، ومن صوّره في الرسائل السياسية ذات الطابع الحربي التي يكون الدعاء فيها بالنصر والفتح في مثل قول ابن خطاب: «... **والله يبقي محلكم الكريم لفتح يستقبله، ومنح رباني يستجزله، ونصر يعاجل عدوه لحينه ولا يمهله، بمنه**

---

[1] ينظر: العمدة في صناعة الشعر ونقده (ابن رشيق القيرواني)، تحقيق: النبوي عبد الواحد شعلان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1، 2000م، ص350.

[2] تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن (ابن أبي الإصبع)، تقديم وتحقيق: حفني مُحَمَّد شرف، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، 1995م، ص 616.

[3] ينظر: صبح الأعشى، ج8، ص126.

وفضله والسلام».[1] والرسائل الواردة في غرض تأكيد الولاء فإن الدعاء يكون بدوام العز والسعادة والخير، في مثل قول ابن خطاب :« **أبقاها الله وبابها موفور السعود، مقهور الحسود، منصور الجنود، معمور بالوفود، بمنه، والسلام»**.[2]

أما تلك التي تكون في غرض طلب العناية وتلبية الرغبات فإن الدعاء لا يختلف كثيرا في مضمونه بحيث يكون بالنصر والتوفيق ودوام الخير :« **اللهم كما آتيت مولانا من الملك العظيم والفضل العميم، ما لم توت أحدا، وارتضيته خليفة في أرضك فلم تجد الخلافة عنه ملتحدا، فعرفه نصرك المنزل من سمائك، المرسل بالقهر والاستيصال على أعدائك، وتخول أمره العالي بمزيد اعتنائك واعتلائك، اللهم واصنع له خير ما صنعت، واصدع بدعوته الهادية ظلم الباطل كما صدعت، واجمع له من تيسير الظفر وتنجيز القدر فوق ما جمعت، إنك على كل شيء قدير، والسلام»**.[3]

نلاحظ أن الدعاء في خواتم الرسائل السياسية الصادرة عن ديوان الإنشاء الزياني الموجهة إلى السلاطين الحفصيين قد اختلفت تراكيبه وصيّغه فلم تأت على شكل واحد، كما تعددت مضامينه بحسب أغراض الرسائل، إلا أن الدعاء بالنصر قد تكرر في أغلبها مهما كان الغرض منها، وهذا نعزوه إلى اضطراب الأحوال السياسية و عدم استقرارها بسبب الانقلابات على الملوك والأمراء ما دفع الكاتب إلى إدراج هذا المعنى في جل رسائله. بينما الرقع التي بعثها بنو عبد الواد إلى ملوك النصارى فكانت تختتم هي الأخرى بالدعاء المتبوع بالتحية مع ذكر تاريخ الرسالة، في مثل رسالة عبد الرحمن بن موسى بن عثمان يغمراسن إلى (ألفونسو الرابع) والتي اختتمت بما نصه: «**والله الموفق للصواب والمعين عليه، والسلام على من اتبع الهدى، ورحمة الله تعالى وبركاته. وكتب في اليوم الرابع من شهر رجب الفرد الذي هو من عام ثلاثين وسبعمائة** ».[4]

[1] المغرب والأندلس في القرن السابع، (أحمد عزاوي)، ص118.

[2] المصدر نفسه، ص138.

[3] المصدر نفسه، ص154.

[4] علاقة إسبانيا القطلانية، (عمر سعيدان)، ص100.

هذا فيما يتعلق بالرسائل الديوانية، أما أساليب اختتام الكتّاب للرسائل الإخوانية في هذا العصر فلم تختلف عن الرسائل السياسية، حيث نجد أن أغلبهم قد ختم رسائله بلفظ (السلام) المقترن بالدعاء الذي يتوافق والغرض الذي لأجله دبجت الرسالة، ومن نماذجه ما ورد في خطاب لسان الدين إلى ابن مرزوق حين استقل من مرض: «**فنسل الله أن يمتع منك بإيثار الملوك، ووسطى السلوك، وسلالات أرباب المقامات والسلوك، ويبقيك، وصحة الصحة وافرة، وعزة العز سافرة، وعادة عادة السعادة غير نافرة، وكتيبة الأمل في مقامك السعيد غانمة ظافرة، ما زحفت للصباح شهب المواكب، وتفتحت بشط نهر المجرة أزهار الكواكب، والسلام**».[1] إن الكاتب يراعي في ختام رسالته غرض الرسالة فهو يدعو له بدوام الصحة انطلاقا من المضمون الذي جاء به، وكذلك مكانة ووظيفة المخاطب فيدعو له بدوام العز والسعادة.

وابن خطّاب في رسالته التي يشكو فيها مرضا أصابه وخبرا كاذبا بموته فإن الدعاء يوجّهه لنفسه وليس للمخاطب عكس المعتاد: «**والله يجعل صبابة العمر في طاعته، ويكتبني فيمن كانت التقوى راس بضاعته، بمنه والسلام**».[2] ومن رسائله التي اختتمت بالدعاء الموافق لغرضها، ما ورد في رسالة التعزية: «**والله تعالى يجعل هذا الرزء آخر أرزائكم، ويتولى وقاية علائكم، ويجزل ثوابكم عليه، ويجعله لكم ذخرا كريما لديه، بمنه، والسلام**».[3]

وقد يأتي السلام مقرونا بذكر زمن كتابة الرسالة، ووصف الأحوال والظروف التي كتبت فيها مثل قول ابن الخطيب: «**والسلام على سيدي من معظم قدره، وملتزم بره، ابن الخطيب، في ليلة الأحد السابع والعشرين لذي القعدة خمس وخمسين وسبعمائة، والسماء قد جادت بمطر سهرت منه الأجفان، وظُنَّ أنه الطوفان، واللحاق في غدها بالباب المولوي مؤمل بحول الله**».[4]

---

[1] ريحانة الكتاب، (ابن الخطيب)، ص121.

[2] Edición y estudio del Fasl al jitab, p239.

[3] Ibid, p308.

[4] نفح الطيب، ج6، ص67.

لقد كانت هذه نظرة عامة عما تضمنه البناء الخارجي للرسائل السياسية والإخوانية في عهد بني زيان حيث جاءت في شكلها العام موافقة لما كان سائدا في ذلك العصر وما اشتهر به العديد من الكتّاب كاستهلال الرسائل النثرية بالشعر، أو الاستهلال بالمدح ووصف الأعمال الأدبية والتنويه بقيمتها وأهميتها وختمها بلفظ بالسلام، واستخدام الألفاظ نفسها في الانتقال إلى العرض وغيرها من العناصر الأخرى.

2- السمات الأسلوبية:

1.2 الاقتباس الديني:

مال أغلب الكتّاب إلى توظيف ثقافتهم الواسعة والمتعددة التي شملت شتى أنواع المعرفة والعلوم التي اكتسبوها فبنوا بها نصوصهم النثرية، وقد برز ذلك جليا من خلال الاتّكاء على الموروث الديني المتمثل في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، كما استعانوا بالموروث الأدبي شعرا كان أم نثرا، وقد اختاروا من هذه المكتسبات ما يوافق ويلائم أغراضهم وأهدافهم بغية الاستشهاد أو تأدية وظيفة فنية أو أسلوبية تزيد من جمال النص وإبداعه.

1.1.2. تضمين القرآن الكريم:

لقد برع أصحاب الرسائل في هذا العهد في توظيف النص القرآني حيث كانوا على صلة وثيقة به، وأدركوا بعد الاطلاع عليه ما يحويه من خصائص فنية، وإعجاز لغوي ولفظي، وقيم دينية سامية ونبيلة، فحرصوا على أخذ أفكارهم من وحيه، وهذا ما يفسر لنا تزاحم الكتّاب على معينه الذي لا ينضب، ومحاكاة أسلوبه البلاغي المعجز.

وحظيت الرسائل السياسية بالقسط الوافر من الاقتباس من القرآن الكريم لأنه ركن أساس في الكتابة الديوانية وشرط من الشروط التي يجب أن تتوفر في كاتب الإنشاء لأنه « معدن الفصاحة والبلاغة»[1]، وهذا الإكثار من الاقتباس القرآني في رسائلهم نعزوه إلى طبيعة تكوينهم وتعليمهم، فقد ابتدأوا بتعلمه منذ الطفولة حتى ترّسخ في نفوسهم وأصبح موردا يستلهمون منه المعاني والتعابير، ويجعلونها في سياق كلامهم تقوية له، «فقد تقوم الآية الواحدة المستشهد بها في

[1] المثل السائر، (ابن الأثير)، ج1، ص99.

بلوغ الغرض وتوفية المقاصد ما لا تقوم به الكتب المطولة والأدلة القاطعة».[1] وعلى هذا الأساس راح الكتّاب يأخذون منه الآيات والمعاني التي تحملها ويوظفونها في رسائلهم بحسب حاجتهم إليها.

ومصطلح الاقتباس كما عرّفه القزويني «هو أن يُضمَّن الكلام شيئا من القرآن أو الحديث لا على أنه منه»[2]، على أنه يعرف في الدرس النقدي الحديث بالتناص الذي حظي باهتمام بالغ من قبل الدارسين والباحثين، ويعرفه مُحَمَّد مفتاح بأنه «تعالق نصوص مع نص حدث بكيفيات مختلفة»[3]، أي بمعنى اشتراك نص جديد مع نصوص أخرى سابقة له، ويعرّفه أحمد الزعبي بقوله: «التناص في أبسط صوره يعني أن يتضمن نص أدبي ما نصوصا أو أفكارا أخرى سابقة عليه عن طريق الاقتباس أو التضمين أو التلميح أو الإشارة أو ما شابه ذلك من المقروء لدى الأديب، بحيث تندمج هذه النصوص أو الأفكار مع النص الأصلي، وتدمج فيه لتشكّل نصا جديدا واحدا متكاملا»[4]، فهذا المفهوم أشمل وأوسع من الاقتباس إذ لا يقتصر التناص على الأخذ من القرآن الكريم والسنة النبوية بل يشمل مجالات أخرى كالأدب شعرا ونثرا، والتاريخ والقصص والعلوم المختلفة.

واتخذ الكتّاب ثلاث طرائق في تضمين الآيات القرآنية، أولها تضمين الآية بنصها الكامل كما هي دون تغيير أو حذف، أو عن طريق حل الآيات والأخذ بجزء منها أو بمعناها شريطة أن يحافظ الكاتب على شيء من ألفاظها، وهذا ما يشير إليه ابن الأثير في قوله: «اعلم أنّ كتاب الله هو أفصح الكلام، وما ينبغي أن يسلك به مسلك الأشعار في حلها، بل ينبغي أن يحافظ على ألفاظه لعدم القدرة على مماثلتها ومشابهتها. لكن أخذ الآية بجملتها ليس من هذا الفن في شيء لأنه من باب التضمين».[5] فهو يرى أن حل الآيات بواسطة الإشارة إلى بعض ألفاظها أو أخذ

---

[1] حسن التوسل إلى صناعة الترسل (شهاب الدين الحلبي)، ص03.

[2] الإيضاح في علوم البلاغة، (جلال الدين مُحَمَّد الخطيب القزويني)، منشورات مُحَمَّد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2003م، ص312.

[3] تحليل الخطاب الشعري: استراتيجية التناص (مُحَمَّد مفتاح)، دار التنوير، لبنان، ط1، 1985م، ص121.

[4] التناص نظريا وتطبيقيا (أحمد الزعبي)، مكتبة الكتاني، إربد، ط1، 1995م، ص09.

[5] الوشي المرقوم في حل المنظوم (ضياء الدين بن الأثير)، تحقيق: يحي عبد العظيم، شركة الأمل للطباعة والنشر، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ط1، 2004م، ص340.

معناها أفضل من ذكر الآية كاملة بالتركيب نفسه الذي وردت عليه دون تغيير. أما كتّاب وأدباء العصر الزياني فأساليبهم وطرقهم في الاقتباس من القرآن الكريم في رسائلهم فهي على النحو الآتي:

إن أول مظهر من مظاهر تفنّنهم في الاقتباس من القرآن الكريم الأخذ من بعض آياته من صوّر مختلفة والجمع بينها في سياق كلامهم والربط بينها برابط معنوي حتى تأتي على سياق واحد، ومن أمثلة ذلك ما وجدناه عند ابن خطاب في جوابه حول انتهاء التمرد على قسنطينة، وذلك في قوله:« **فسخر الله لكم أقداره المعينة، وأنفذ حكمه القسط باستخلاص قسنطينة، واسترجاعها من أيدي غاصبيها الخائنين لأمانتها، الخالعين عنها ثوب طهارتها وصيانتها، الذين صرحوا بنكث عهودهم، ونقض عقودهم، كبرت كلمة تخرج من أفواههم، وليس إلا السيف في الدنيا والنار في الأخرى جزاء لهم ولأشباههم، فما أعظم اجتراءهم، وما أضل أراءهم، حين نسروا ما اقترفوا من الجرائم واكتسبوا، واغتروا بمنعة تلك القلعة، فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا، وقذف في قلوبهم الرعب، وضيق علبهم الرحب، أما علموا أن كل من نبذ جانبكم، وجحد واجبكم، وكفر بنعمتكم، وخاس بذمتكم... فمرتعه في الحياة وخيم، ومرجعه بعد الممات ذميم، فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم**».[1]

جاء هذا التضمين اللفظي والمعنوي في سياق وصفه لهزيمة الأعداء فقد وصف نقض عهودهم انطلاقا من قوله تعالى: ﴿ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِأَبَآئِهِمْ ۖ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿5﴾ ﴾[2]، وشبههم باليهود الذين نقضوا عهدهم مع الرسول (ﷺ) مستحضرا قوله عز وجل: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ ۖ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿2﴾ ﴾[3]، وفي سياق تحذيرهم استعان بقوله تعالى: ﴿ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ

[1] المغرب والأندلس في القرن السابع، (أحمد عزاوي)، ص125.

[2] سورة الكهف: الآية(05).

[3] سورة الحشر: الآية (02).

بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿63﴾ ﴾[1] ، فالملاحظ أن الكاتب لم يضمن الآيات بنصها كاملة بل عمد إلى الأخذ من كل واحدة جزءا منها دون تغيير في الألفاظ أو التركيب وجعلها في سياق كلامه بما يناسب مضمونه دون أن يشير إلى أنها من القرآن الكريم.

ومن صوّر هذا الضرب أيضا، ما جاء في سياق تحريض الأمير أبي فارس أنصاره على نقض العهد حيث وظّف قوله عز وجل:﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿54﴾ ﴾[2]، فاستحضار هذه الآية كان بغرض التنفير من العدو وتبيان عظمة جريمته التي ارتكبها في حق السلطان الحفصي، في سياق قوله: «**ما أعظم جنايته في الدين، وشد ما عمي عن دلائل، ما قضى الله به من النصر لكم والتمكين، فاستخف قومه فأطاعوه، وأهملوا ما استحفظهم الله من عهد بيعتكم وأضاعوه**».[3]

ومن أضرب الاقتباس الواردة في الرسائل السياسية التغيير في تركيب الآية في مثل الرسالة التي بعثها عثمان بن يغمراسن إلى أمير بجاية يعرّفه برغبة مُحَمَّد بن عبد القوي في مراجعة الطاعة للحفصيين ولأمير تلمسان حيث يقول ابن خطاب: « **وخرّب بيت عزه وصلاحه بيده، فلقي ضرا، وكابد عيشا مرا، وكان عاقبة أمره خسرا**».[4] فخروجه عن طاعة هؤلاء وعصيانهم إنما هو خسارة له ومذلة فقد استحضر الآية القرآنية التي تتحدث عن القرية التي كفرت بالله وعصت أمره، وآثر أهلها اتباع هواهم لتأكيد كلامه مضمنا قوله عز وجل:﴿ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا ۖ وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿9﴾ ﴾.[5]

---

[1] سورة النور: الآية (63).

[2] سورة الزخرف : الآية (54).

[3] المغرب والأندلس في القرن السابع، ص120.

[4] المصدر نفسه، ص 113.

[5] سورة الطلاق: الآية (09).

ومن أضربهم أيضا، حلّ الآية القرآنية مع الأخذ ببعض ألفاظها الدالة عليها، من ذلك ما ورد في رسالة ابن خطاب حول إخبار بتحرك الأمير الحفصي نحو البلاد الغربية: «**فقد استقبله محيا السعادة الأصبح، وقال السرور لقبه وقد أتاه قول موسى لفتاه: لاتبرح** ».[1] فهو يشير إلى قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴾.[2] فقد ضمّن ابن خطاب قصة سيدنا موسى وذلك لغرض تأكيد تبعية وولاء يغمراسن بن زيان للسلطان الحفصي وإصراره على ذلك إصرار سيدنا موسى على بلوغ مراده.

وكان لرسائل البيعة نصيب من هذه الاقتباسات بل إن الاقتباس سمة بارزة فيها، ففي سياق حديثه عن عهد النبوية وفضل الرسول ﷺ على الأمة يقول: «**وليل الظلام ممدود الرواق، مسدول على الآفاق، فأخرجنا من الظلمات إلى النور، وجاء بالذكر الحكيم جلاء للعمى وشفاء لما في الصدور، وأطلع شهب هديه المنيرة، وأخمد نار الشرك المستطيرة**».[3] فلأجل تأكيد معناه وتعزيزه وإعطائه مصداقية جاء على الترتيب بقوله عز وجل: ﴿ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾[4]، ثم بقوله تعالى:﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾.[5]

ومن أضرب الاقتباس الأخذ بمعنى الآية دون ألفاظها، وهو يعد من أهم أنواع الاقتباس وأفضلها لأنه يدل على إدراك الكاتب لمعاني القرآن الكريم وفهمه لها، وبراعته ومقدرته على توظيف معانيه بما يناسب كلامه ومراده، ومن نماذجه قول ابن خطاب في رسالة تأكيد المودة والمهاداة التي كتبها إلى سلطان غرناطة: «**وعزيتم في المولى الوالد المقدس المرحوم ﷺ وجدّد الرحمة عليه تعزية مثلكم من الإخوان الذين تلاقت قبل الجسوم قلوبهم، ولم يكن إلا التواخي**

[1] المغرب والأندلس في القرن السابع (أحمد عزاوي)، ص117.
[2] سورة الكهف: الآية (60).
[3] المغرب والأندلس في القرن السابع (أحمد عزاوي)، ص131.
[4] سورة البقرة : الآية (257).
[5] سورة يونس : الآية (57).

في ذات الله تعالى مطلوبكم»[1]. فهو يشير إلى قوله تعالى: ﴿ **إِنَّمَا ٱلْمُومِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ** ﴾.[2]

ولم يكن الاقتباس من القرآن الكريم حكرا على الرسائل السياسية بل تعداه إلى الرسائل الإخوانية فمتى كانت الفرصة سانحة لذلك استغل الكتّاب مقدرتهم على الأخذ منه، وبعد استقصائنا لجلّ الرسائل التي بين أيدينا وجدنا أن أساليبهم وطرائقهم في الاقتباس قد وردت على ثلاثة أضرب هي على النحو الآتي:

اقتباس لفظي حيث وظفوا النص القرآني كما هو دون تغيير على مستوى اللفظ أو التركيب، كالأخذ من بعض آيات القرآن الكريم بهدف الإتيان بالدليل وإثبات الحجة مع الجمع بينها في سياق واحد، مثل جواب الشيخ أحمد البجائي على سؤال حول حكم المكوث في بلد يتعرض فيه المسلمون للتمييز والظلم:«...**بدليل** ﴿ **أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا** ﴾[3]، **هذا مع الإمكان، وجود بغيته في غير ذلك المكان، فإن تعذر عليه ذلك... ولم يجد موضعا صالحا مرضيا، ولا معلما ناصحيا مهديا، فليقم هناك** ﴿ **صَبْرًا جَمِيلًا** ﴾[4]، **ويكون من** ﴿ **ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَالنِّسَآءِ وَالْوِلْدَٰنِ** ﴾[5] **الذين** ﴿ **لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿98﴾** ﴾[6] **وليقل كما قالوا إن لم يجد معينا على الدين ولا ظهيرا،** ﴿ **رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا** ﴾[7]».[8]

---

[1] المغرب والأندلس في القرن السابع (أحمد عزاوي)، ص163.

[2] سورة الحجرات: الآية (10).

[3] سورة النساء: الآية(97).

[4] سورة المعارج: الآية (05).

[5] سورة النساء: الآية (98).

[6] سورة النساء: الآية (98).

[7] سورة النساء : الآية (75).

[8] البستان (ابن مريم التلمساني)، ص15.

ومن أمثلة ذلك أيضا، ما ورد في رسالة ابن خلدون يتحسر على فراق صديقه لسان الدين، وعلى ما خلّفه وراءه من عزّ وأمن وسعة في المال، ويبدي عجزه عن الحيلولة دون ذلك لأنه لا يعلم الغيب، قال:« **وبثثته شكوى الغريب، من السوق المزعج، والحيرة التي تكاد تذهب بالنفس أسفا، للتجافي عن مهاد الأمن، والتقويض عن دار العز، بين المولى المنعم، والسيد الكريم، والبلد الطيب، والإخوان البررة، ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير**».[1] فهو يقتبس من قوله تعالى: ﴿ **قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ** ﴾.[2]

ولسان الدين يأتي بالآية القرآنية لغرض توضيح معناه وتأكيد فكرته التي يصبو إليها فهو يعبّر عن مدى شوقه وحنينه إلى صديقه حتى وصل به الأمر إلى حد التيه والظلال: «**وأحار بين تلك الأطلال حيرة الملحدين، لقد ظللت إذا، وما أنا من المهتدين**».[3] فلم يجد أفضل من قوله عز وجل: ﴿ **قُلۡ إِنِّي نُهِيتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهۡوَآءَكُمۡ قَدۡ ضَلَلۡتُ إِذٗا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ** ﴾[4]

ومن الرسائل التي مسّها الاقتباس من القرآن الكريم رسائل الشفاعات وذلك من باب الترغيب، في مثل شفاعة أبي القاسم البرجي الذي استحضر قول المولى عز وجل: ﴿ **وَجَعَلۡنَا ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةٗ وَءَاوَيۡنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبۡوَةٖ ذَاتِ قَرَارٖ وَمَعِينٖ** ﴾[5] في قوله: «**وقد أعلقته من ذمام علائكم بالحبل المتين، وأنزلته من حماكم بربوة ذات قرار ومعين، فإن أعرتموه من لحظكم**

[1] التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا (ابن خلدون)، ص133.

[2] سورة الأعراف: الآية (188).

[3] ريحانة الكتاب، (ابن الخطيب)، ج2، ص135.

[4] سورة الأنعام : الآية (56).

[5] سورة المؤمنون: الآية (50).

الجميل طرف اهتبال، وأقبلتموه من اعتنائكم الجزيل وجه إقبال، فقد عاد دهره بعد النفار مواتيا، ونزل على أهل المهلب شاتيا، ومجدكم كفيل بتبليغ أمله، وتوسيع جذله».[1]

أما الضرب الثاني وهو الاقتباس الإيحائي ويكون بتضمين النص آية قرآنية من غير أن يلتزم المضمّن بلفظها وتركيبها، ومن أمثلة هذا النوع قول ابن خطاب «**وما كان القصد الأول إلا تلك الحضرة العليا– أيّدها الله– حيث العز ظله ممدود، والملك أزره مشدود، وللآمال وفود تتبعها وفود،... فطوبى لمن ودع محله، وألق بذاك الفيء الخصيب رحله، مجاز الذخر المكنون، ويا ليتني كنت معهم، فأفوز».**[2]

جمع الكاتب في هذا النص بين الاقتباس اللفظي والاقتباس الإيحائي، أما الضرب الأول فتجلى في الاقتباس من قوله عز وجل: ﴿ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ يَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾[3]، فقد أخذ جزءا من الآية دون أن يغير من تركيبها، أما الضرب الآخر فاقتبسه من قوله تعالى: ﴿ **وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ** ﴾ [4] فقد تصرف في تركيب الآية بإدخال ضمير الهاء المتصل الذي يعود على السلطان، وتصرف في معناها حيث أجراها على حسب ما يناسب الفكرة، حيث جعل القوة والمهابة التي يتمتع بها السلطان غير منقطعة من المزايا التي يجدها المؤمن في الجنة والمتمثلة في الظل الدائم غير المنقطع.

وهذا لسان الدين يرحب بابن خلدون حين اقترب من الوصول إلى غرناطة، يقول: «**سيدي قدمت بالطير الميامين، على البلد الأمين، واستضفت الرفاء فلى البنين، ومتعت بطول السنين».**[5] فمن باب الترغيب في المحل الذي سيقيم فيه وإضفاء السكينة على النفس استحضر قوله عز وجل: ﴿ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴾[6]،لكنه لم يحافظ على المعنى الموجود في سياق

---

[1] نفح الطيب (أحمد المقري)، ج6، ص 68.

[2] Edición y estudio del Fasl al jitab, p227.

[3] سورة النساء: الآية (73).

[4] سورة الواقعة: الآية (30).

[5] التعريف بابن خلدون، (ابن خلدون)، ص95.

[6] سورة التين: الآية (03).

الآية الكريمة، فالبلد الأمين هو مكة المكرمة، والكاتب في سياق كلامه يريد مدينة غرناطة، فهو يلمح إلى الأمن والاستقرار الذي سيجده في حضرة السلطان.

وله أيضا يقتبس قوله تعالى: ﴿ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴾[1] في رسالته إلى ابن خلدون في سياق حديثه عن مُوصل الرسالة قوله: « **وخذوه بأعقاب الأحاديث أن يقف عند مبادئها، وائتمنوه على ما تحدثون، فليس بظنين على السر**».[2]

ومن المواضيع التي مسّها الاقتباس مواضيع التعزية حيث استحضر بن خطاب مشهد يوم القيامة ليعبّر به عن الفاجعة التي حلّت بأهل المصاب في قوله: «**لا جرم أن موقر محلكم بهذا الخطب الفادح، قد تقلص ظله، وتنقص عيشه كله... وزلزلت به الأرض زلزالها**».[3] فهو يشير إلى قوله تعالى: ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾.[4]

والضرب الثالث هو اقتباس القصص القرآني وذكر الأنبياء والرسل وقد توخى الكتّاب إيراد تلك القصص تأكيدا لأفكارهم، فابن خطاب يستحضر قصة سيدنا موسى عليه السلام مع فتاه في رسالته التي يشكو فيها ما لحقه من تعب وعناء أثناء سفره، في قوله: « ...**وكلاءة الله من كل محذور واقية، على أني لقيت من سفري هذا نصبا، وقضيت من السلامة فيها عجبا**».[5] حيث تناص مع قوله عز وجل:﴿ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴾.[6]

ويعبّر في رسالة الشوق عن الحزن والأسى الذي لحقه بسبب فراق ابن خلدون له، فيقول: «**إنما أشكو إلى الله البث والحزن، ونستبطر من عبراتنا المزن**».[7] فقد استلهم قوله تعالى على

---

[1] سورة التكوير: الآية (24).

[2] التعريف بابن خلدون، (ابن خلدون)، ص156.

[3] Edición y estudio del Fasl al jitab, p294.

[4] سورة الزلزلة: الآية (01).

[5] Edición y estudio del Fasl al jitab, p208.

[6] سورة الكهف: الآية (62).

[7] ريحانة الكتاب، (ابن الخطيب)، ج2، ص 138.

لسان يعقوب عليه السلام: ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٨٦ ﴾.[1] فقد أجاد الكاتب في استحضار هذه الآية الكريمة للتعبير عن تجربته الشعورية التي تشترك مع نبي الله في فقده لابنه يوسف عليه السلام.

وعلى العموم فإن كتّاب العصر الزياني قد استغلوا معرفتهم لكتاب الله فنهلوا منه ما احتاجوا إليه لملائمة أفكارهم ومعانيهم بغرض التأكيد وإضفاء مصداقية على كلامهم، وقد أجادوا في الاقتباس من القرآن الكريم الذي تنوعت ضروبه بين توظيف الآيات كما هي دون تغيير، وبين الأخذ من بعض الآيات والجمع بينها في نص واحد، وبين حل الآيات القرآنية وتغيير تركيبها، وبين الأخذ بمعانيها.

2.1.2. تضمين الحديث الشريف:

ومما يتصل باستلهام الكتّاب للتراث الديني في هذا العهد الاقتباس من السنة النبوية الشريفة لما تتضمنته هي الأخرى من معان سامية وقيم أخلاقية حميدة، ونصائح وتوجيهات نابعة من الوحي الرباني، وكان اقتباسهم من الحديث النبوي كاقتباسهم من القرآن الكريم حيث أخذوا الألفاظ والمعاني وراحوا يوظفونها حسب أغراضهم، لكن بدرجة أقل باعتبار القرآن الكريم هو المصدر الأول للتشريع، ولطريقة التدريس في بلاد المغرب العربي التي كانت تعتمد في الأساس على حفظ كتاب الله، وهذا ما أخبرنا عنه ابن خلدون حيث يقول: « أما أهل المغرب، فمذهبهم في الولدان الاقتصار على تعليم القرآن فقط لا يخلطون ذلك بسواه في شيء من مجالس تعليمهم لا من حديث، ولا من فقه، ولا من شعر، ولا من كلام العرب».[2] وهذا لا يعني أنهم أهملوا العلوم الأخرى ولم يهتموا بها، بل كان اطلاعهم عليها متأخرا مقارنة بالقرآن الكريم.

وبالرغم من ذلك فقد أدرج الكتّاب أحاديث الرسول (ﷺ) في رسائلهم، وتفننوا في توظيفها مثلما تفننوا في إيراد القرآن الكريم، ولم تختلف طرائقهم في الاستلهام منها عن الذكر الحكيم، إما بإيرادها كما هي دون تغيير، أو باتباع طريقة حلها التي تنقسم إلى قسمين: الأول

[1] سورة يوسف: الآية (86).

[2] مقدمة ابن خلدون، (ابن خلدون)، ج2، ص353.

الأخذ ببعض الألفاظ وإدراجها ضمن كلامه، والآخر بأخذ المعنى والتصرف فيه بحسب ما يقتضيه السياق والغرض.[1]

ولنبدأ أولا بالرسائل الديوانية، فمن الأحاديث التي جاءت بلفظها مع الإشارة إلى ورودها عن الرسول (ﷺ)، قول ابن الخطيب في معرض حديثه في الرسالة المتضمنة طلب عثمان بن يغمراسن تسهيل الحركة لوالدته في طريق الحج قوله: « **وكفى بقول رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الذي هو منبع الرحمة والبركة للحادي بهن (رفقا سوقك القوارير)**[2]**، تنبيها على التلطف بهن في الحركة**».[3]

وكذلك فعل في رسالة المهاداة إلى أمير غرناطة في سياق حديثه عن رابط الأخوة التي تجمع بينهما، يقول ابن خطاب: «**وإلى هذا وصل الله سعدكم، فقد عرفتم فيمن عرف قول رسول الله (ﷺ): (الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر اختلف)**[4]**، وأرواحنا بحمد الله قد ألفها الصفاء خير ائتلاف**».[5]

ومن أساليب الكتّاب في إيراد الأحاديث النبوية الاكتفاء بالجزء اليسير منها دون الإشارة إلى أنها من السنة النبوية الشريفة، فيأتون بالعبارة أو الكلمة التي تناسب السياق ومراد كلامهم وهذا على نحو قول ابن خطاب في رسالة البيعة: « **فوليها بعده أمير المؤمنين علي بن أبي طالب–رضي الله عنه– ذو المناقب المأثورة...والمنفرد بمزية (أنت مني بمنزلة هارون من موسى)**[6] **أسد الهيجاء الهصور، وبحر العلم الذي لا ينقص إذا نقصت البحور**».[7]

---

[1] ينظر: الوشي المرقوم، (ابن الأثير)، ص372.

[2] صحيح البخاري، (البخاري: أبو عبد الله مُحَمَّد بن اسماعيل)، دار ابن كثير، دمشق، ط1، 2002م، حديث رقم6210، ص1549.

[3] المغرب والأندلس في القرن السابع، (أحمد عزاوي)، ص158.

[4] صحيح مسلم (مسلم: أبي الحسن بن الحجاج القشيري النيسابوري)، تحقيق: أبو قتيبة نظر مُحَمَّد الفاريابي، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، ط1، 2006م، كتاب البر والصلة والآداب، باب الأرواح جنود مجندة، حديث رقم: 2638، ج2، ص1218.

[5] المغرب والأندلس في القرن السابع (أحمد عزاوي)، ص166.

[6] صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل علي بن أبي طالب (رضي الله عنه)، حديث رقم: 2404، ص 1128.

[7] المصدر نفسه، ص133.

أما الرسائل الإخوانية فهي الأخرى قد تضمنت اقتباسات من السنة النبوية الشريفة، ووجد ابن خطاب كغيره من الكتّاب في الأحاديث النبوية مرتعا خصبا ينهل منه، ولم يكن غرضه تزيين النص فحسب، بل هدف إلى إعطاءه قوة تأكيد أكبر لغرض توضيح فكرته وتثبيت معناه لزيادة التأثير في نفس المتلقي، كقوله في رسالة كتبها إلى القاضي أبي أمية الدلائي: «**وعارضت بظلام سني كوكب وقاد، والسعيد من أحظاه، ولحظه بعين رضاه فإنها العين تكل عن العيوب، ولا تنظر إلى الصور الظاهرة بل إلى القلوب**».[1] فقد أشار إلى قوله (ﷺ): (إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم).[2]

ويقول أيضا في وصف رسالة أبي الرضا: «**فقلت لها: بحق الذي سواك في أحسن الصور، وفضح ببهاء غرتك سائر الغرر...لقد جئت شيئا إمرا، (وإن من البيان لسحرا)**[3]».[4] فالمعنى المقصود في الحديث هو أنّ بعض البيان يعمل عمل السحر في إظهار الباطل في صورة الحق، كذلك البيان حين تجتمع البلاغة والفصاحة يصبح أكثر تأثيرا على القلب مما يزيد من قوة الحجة، وهذا هو مراد الكاتب في توظيفه للحديث فهو في مقام وصف رسالة صديقه الحافلة بألوان البيان والبديع.

وقد يأتي به لتقرير حقيقة كقوله في غرضي التعزية والتهنئة في الرسالة التي كتبها إلى الفقيه أبي حاتم: «**وإن فيها كيف الله لكم من جميل العناية، وخولكم من يسر الظفر... يذهب من ألم ذلك الرزء بالأثر والعين، ويمحو ظلام عسره، ولن يغلب عسر يسرين** ».[5] فقد تناص مع حديث رسول الله (ﷺ): (لن يغلب عسر يسرين).[6]

---

[1] Edición y estudio del Fasl al jitab, p234.

[2] صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله، حديث رقم:2564، ص1193.

[3] الحديث أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطب، حديث رقم: 5767، ص 1460.

[4] Edición y estudio del Fasl al jitab, p226.

[5] Ibid, p296.

[6] إتحاف المهرة بالفوائد المبتكرة من أطراف العشرة، (ابن حجر العسقلاني)، تحقيق: صالح حامد الرفاعي، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، ط1، ج18، حديث رقم(23991)، 2002م، ص495.

ويُوظَّف الحديث النبوي ضربا للأمثال للتشابه بين النص الأصلي وبين المعنى الذي يصبو إليه، ففي رسالة التعزية التي وجّهها إلى أحد أبناء أبي القاسم العزفي في سياق تذكر خصاله ومآثره الحميدة أشار إلى دوره في بناء الإمارة التي شاع فيها الأمن والأمان، ولتوضيح معناه وتأكيد فكرته جاء بنص الحديث الذي يقول فيه الرسول (ﷺ): (من دخل دار سفيان فهو آمن).[1] وذلك في قوله: « **وأحلها من داره منيعا أمنا كدار أبي سفيان**».[2]

وقد يغيّر في التركيب مع المحافظة على المعنى في مثل قوله في رسالة الشكر والثناء: «**وشكر لفضائلكم، التي في رياضها الأنيقة، تتنزه الأفكار والخواطر، ودعاء لكم إذا هجع النيام، وانتدل الظلام، ونادى الرب سبحانه: هل من داع؟ فأستجيب له، وخلصت الضمائر والسرائر**».[3] فقد اقتبس قوله (ﷺ): (ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر، فيقول: من يدعوني فأستجيب له، ومن يسألني فأعطيه، ومن يستغفرني فأغفر له).[4]

ولسان الدين بن الخطيب هو الآخر قد وجد في الأحاديث النبوية معينا له في طرح أفكاره وتوضيح معانيه، ففي رسالته إلى شيخه ابن مرزوق المتضمنة غرض الموعظة وإسداء النصيحة أخذ جزءا يسيرا من النص الأصلي لزيادة التأثير والإقناع، فهو يقول: « **فالموعظة تتلقى في لسان الوجود، (والحكمة ضالة المؤمن)[5] ببذل المجهود، ويأخذها من غير اعتبار بمحلها المذموم ولا المحمود**».[6]

---

[1] صحيح مسلم، فصل الجهاد والسير، باب فتح مكة، حديث رقم: 1780، ص856.

[2] Edición y estudio del Fasl al jitab, p300

[3] Ibid ; p180.

[4] صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل والإجابة فيه، حيث رقم 758، ص342.

[5] مقتبس من حديث أبي هريرة عن رسول الله (ﷺ) قال: «الكلمة الحكمة ضالة المؤمن، فحيث وجدها فهو أحق بها». الجامع الكبير،(الترمذي: أبي عيسى مُحَمَّد بن عيسى)، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1996م، مج4، حديث رقم: 2687، ص417.

[6] نفح الطيب، (أحمد المقري)، ج5، ص150.

ومن رسائله الأخرى التي تتضمن اقتباسات من الحديث الشريف رسالته التي هنّأ فيها شيخه ابن مرزوق حين أفلت من النكبة، ففي سياق الإشادة به يقول: «**لقد ارتهن دعاء الحافي والناعل، والدال على الخير شريك الفاعل، والذي أحيا النفس جدير برد عدتها، وإنجاز عدتها**».[1] فقد استحضر قول الرسول (ﷺ): (إن الدال على الخير كفاعله).[2]

وهذا ابن الحاج النميري يعمد إلى استحضار قول الرسول (ﷺ): (الرجل على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل)[3]، في سياق مدحه للسان الدين بن الخطيب يقول: «**وإذا كان المرء على دين خليله، ومن شأنه سلوك نهجه وسبيله، فالأليق أن أزهد في الصفراء والبيضاء، وأقابل زخرف الدنيا بالبغضاء**».[4] وذلك لتأكيد معناه وحمله على الصدق والابتعاد عن الزيف والرياء ليكون أكثر إقناعا وتأثيرا في نفس المتلقي.

ومن الأساليب أيضا في تضمين الأحاديث النبوية الإشارة إلى الحديث بذكر ألفاظه مع توظيفه بمعنى مغاير للنص الأصلي، ففي مقام افتخار ابن خميس بقبيلته ونسبه اليمني ، والدفاع عن نفسه وردّ التهم الملصقة به مشيرا إلى صفاء عقيدته وسلامة دينه لم يغفل تضمين الحديث النبوي الشريف ليؤكد المعنى الذي جاء به فهو يقول: « **كافحت عن دينها الحنيفي، فما كهم حسامها، ونافحت عن نبيّها الأميّ فأيّدت بروح القُدُسِ سهامها. سَدَّت باب الدَّرب دون بَنِي الأصفر، وشدَّت لِموته ثوب موت أحمر، وما شغلها كَسْرُ تَاجِ كسرى عن قرعِ هامَة قَيْصَر».**[5] فهو يشير في هذا النص إلى دور قبيلة حمير اليمنية في الدفاع عن الإسلام في غزوات الرسول (ﷺ) مؤيدين من جبريل (عليه السلام) مستلهما ذلك من الحديث الشريف: (**إِنّ رُوحَ القُدُس لا يزال يؤيّدك ما نافحت عن اللَّهِ ورسُولِهِ**).[6] ففيه إشارة إلى تأييد جبريل –عليه السلام– لحسّان بن ثابت في هجائه للمشركين في شعره ودفاعه عن الله ورسوله، فقد وظف النص

[1] المصدر السابق، ج5، ص406.
[2] الجامع الكبير، مج4، حديث رقم(2670)، ص404.
[3] المصدر نفسه، مج4، حديث رقم (2378)، ص187.
[4] الإحاطة في أخبار غرناطة، (ابن الخطيب)، ج1، ص362.
[5] المصدر نفسه، ج2، ص 558
[6] صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل حسان بن ثابت، مج2، حديث رقم: 2490، ص1163.

بما ينسجم مع الفكرة التي يصبو إليها، لكنه لم يلتزم بمعنى الحديث الذي يخص شاعر الرسول (ﷺ).

يتجلى الأثر الديني واضحا في أسلوب الرسائل الزيانية الديوانية والإخوانية، فقد كان القرآن الكريم، والأحاديث النبوية الشريفة، أساس ثقافتهم ومصدر بلاغتهم، فكثر الأخذ منهما، وجاء الاقتباس على مستوى اللفظ والنص والمعنى، فغدت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة أسلوبا من الأساليب والأدوات الفنية للرسائل مما زاد من وضوح المعاني وتأكيد الأفكار.

2.2 التضمين الأدبي:

1.2.2. تضمين الشعر:

إن الاطلاع الواسع للكتّاب والأدباء على الفنون الأدبية القديمة وبخاصة الشعر القديم، والتعمق في معانيه، وإدراكهم لمدى بلاغته وتمكنه من النفوس وقدرته على التعبير عن المشاعر والأحاسيس، واحتوائه على مختلف الأغراض الفنية، مكّنهم من التحكم في زمامه، والإلمام بأهميته، فاستعانوا به شكلا ومضمونا واستطاعوا أن يلوّنوا به فنونهم النثرية لاسيما فن الرسائل لغرض تحقيق أهداف أسلوبية وبلاغية تزيد من القيمة الجمالية لنصوصهم المتوافقة مع مقاصدهم.

ونحن هنا لا نتحدث عن الشعر الذي أنتجوه هم، بل الذي أنتجه غيرهم من الشعراء السابقين زمنيا عليهم ولاسيما شعراء العصر الجاهلي والعصر العباسي من أمثال امرئ القيس وحاتم الطائي، والمتنبي وأبي تمام وغيرهم، وحتى يتحقق للكتاب القدرة على تضمين الشعر في رسائلهم يشترط حفظهم لدواوين فحول الشعراء[1]، لذا فإن التزامهم بهذه الظاهرة يتفاوت من كاتب إلى آخر ويتوقف على طريقة أدائه وثقافته ومدى اطلاعه وحفظه لأشعار غيره.

وهذه الظاهرة الأسلوبية الجديدة شاعت عند أدباء هذا العصر الذي نحن بصدد دراسته حتى صارت تقليدا فنيا وركنا مهما في البناء الفني للرسائل، وتنوعت أساليبهم في التضمين فبين من يأتي بالبيت أو البيتين كما هما دون أن يشير إلى قائلهما مراعيا موافقتهما لما تقدم من كلامه

[1] ينظر: الوشي المرقوم في حل المنظوم، (ابن الأثير)، ص171.

المنثور، ويجعلهما في سياق كلامه لتقوية معانيه، ومن يعمد إلى حل وتفكيك الأبيات الشعرية حتى يجعل من كلامه شعرا منثورا يلائم المضمون والغرض.

واستعمال الشعر في الرسائل الديوانية نادر جدا بالنظر إلى ما بين أيدينا من رسائل وما وجدناه ورد في المواضيع التي لها علاقة بالتهنئة بالانتصار في المعارك، ففي رسالة التهنئة بفتح قسنطينة يقول ابن خطاب في سياق حديثه عن الأعداء يقول: « **فأنفذتم فيهم حكم السيف أي إنفاذ، ورأيتم في قتلهم ما رآه في بني قريضة الغادرين سعد بن معاذ، فصوب رسول الله ﷺ مل صدر عنه في ذلك من فتوى للمسلمين مقنعة وللكفر مقمعة، وقال له لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع أرقعة.**

وَوَضــعُ النَّــدَى في مَوْضِــعِ السَّــيْفِ بالعُــلَا مُضِــرٌّ كَوَضْــعِ السَّــيْفِ في مَوْضِــعِ النّــدَا[1]»[2]

فقد استحضر بيت المتنبي حتى يبرر ما فعله السلطان الحفصي مع أعدائه الذين استحقوا القتل، فمضمون البيت يشير إلى أن الإنسان يجب أن يعامل حسبما يستحق، فمن استحق العطاء لم يستعمل معه السيف، ومن استحق القتل لم يستعمل معه العطاء، ومن فعل ذلك فقد هدّم أركان دولته.

وفي الرسالة نفسها يقول موظفا بيتا لأبي تمام: «**ومعقله وإن كان أشبا[3]، وعن عيون النوائب محتجبا، قد شمخ أنفا، وصافح للثريا كفا، ولم يرض لهامته إلا الغمام عمائم، ولأنامل شرفاته إلا النجوم العواتم خواتم، لن يغني عنه من الله شيئا، ولا يحمي نفسه الخبيثة من أن تنهبها صواركم الماضية فيئا.**

"وإن يَــبنِ حِيطَــانًا عَلَيــهِ، فَإِنَّمَــا أُولَئِــكَ عُقَّالاَتُــهُ لاَ مَعَاقِلُــه"[4] »[5]

---

[1] شرح ديوان المتنبي،(عبد الرحمن البرقوقي)، دار الكتاب العربي، بيروت،1986م، ج2، ص11.

[2] المغرب والأندلس في القرن السابع (أحمد عزاوي)، ص126.

[3] أشبا: تأشب القوم بمعنى اختلطوا. مقاييس اللغة، ج1، ص108.

[4] شرح ديوان أبي تمام (الخطيب التبريزي) دار الكتاب العربي، بيروت، ط2، 1994م، ج2، ص15.

[5] المغرب والأندلس في القرن السابع (أحمد عزاوي)، ص125.

ويستعين مرة أخرى ببيت للمتنبي ولكن هذه المرة عن طريق حله وجعله ضمن سياق كلامه، فهو يقول مادحا السلطان الحفصي: «... **وهجرتم الكرى، ووصلتم التأويب بالسرى، وفي علم المولى – أيّده الله – أن النفوس الكبار تتعب من مرادها الأجسام، وأن المطال الصعبة لا يتصدى لها إلا مثلكم الملك الهمام**».[1] والبيت المقتبس من قصيدة للمتنبي يمدح فيها سيف الدولة الحمداني حيث يقول:

وإذَا كَانَـــت النُّفُـــوسُ كِبَـــارًا تَعِبَـــتْ في مُرَادِهَـــا الأَجْسَـــامُ[2]

أما الشعر في الرسائل الإخوانية فله وجود ملحوظ، وتضمينه في بعض الرسائل تبوّأ فضاء لا بأس به لاسيما في رسائل العتاب والشكوى والشوق، فنوّع الكتّاب بين النثر والنظم حتى صار الشعر جزءا لا يمكن فصله عن الرسالة، حيث حرص الكتاب على تضمين رسائلهم أبياتا شعرية تارة تكون من نظمهم وإبداعهم، وتارة تكون من نظم غيرهم، وهذا الأخير هو الذي نهدف إليه في دراستنا، فهم حين يفعلون ذلك إنما يحاولون إظهار مهاراتهم وقدراتهم في النظم والنثر معا.

ومن أضرب تضمينهم للشعر الإتيان بالبيت كما هو دون تغيير، في مثل قول ابن خطاب في جوابه عن رسالة عتب مستحضرا بيتا لامرئ القيس: «... **وقلت فأوجعت، وصلت فأجزعت، وأفحمتني بحر مقالك، وأصرمتني بحر مصالك، وفصمتني عن در وصالك.**

"أَفَـاطِمَ مَهْـلاً بَعْـضَ هَـذَا التَّـدَلُّلِ وإِنْ كُنْـتِ قَـدْ أَزْمَعْـتِ صَـرْمِي فَـأَجْمِلِي"[3]»[4]

إن إدراج هذا البيت في هذه الرسالة كان القصد منه إخبار لائمه بالكف عن الإساءة إليه ودعوته إلى الإحسان إليه وعدم المماطلة والمبالغة في لومه وعتابه، فلم يجد أحسن من بيت امرئ القيس لكي يعبّر عن معناه.

[1] المصدر السابق، ص124.

[2] شرح ديوان المتنبي، ج4، ص64.

[3] شرح ديوان امرؤ القيس، تحقيق: حسن السندوبي، دار إحياء العلوم، بيروت، ط1، 1990م، ص169.

[4] Edición y estudio del Fasl al jitab, p210.

ويكثُر هذا اللون من التضمين أيضا في رسائل لسان الدين بن الخطيب، ومن نماذج ذلك ما ورد في رسالته إلى ابن خلدون متشوقا: «**كلفت لعمر الله بسال عن جفوني المؤرقة، ونائم عن همومي المتجمعة والمتفرقة... وكدر الوصل بعد صفائه، وضرج النصل بعد عهد وفائه.**

"أَقِــلَّ اشــتِيَاقًا أَيُّهَــا القَلْــبُ إِنَّمَــا رَأَيْتُــكَ تُصْــفِي الــوُدَّ مَــنْ لَــيْسَ جَــازِيَا"[1]»[2]

لقد عبّر الكاتب نثرا عن ألمه وشدة تأثره لفراق صديقه ثم بين بعد ذلك أن ابن خلدون هو من كان سببا في ذلك، ولإتمام معناه ضمّن بيت المتنبي في إشارة إلى أنه لا يستحق كل ذلك فهو لا يبادله الشعور نفسه رغم إخلاصه له. ويواصل الكاتب التعبير عن معاناته مستحضرا هذه المرة بيتا لجميل بثينة، يقول: «**فها أنا أبكي عليه بدم أساله، وأندب في ربع الفراق آسى له، وأشكو إليه حال قلب صدعه، وأودعه من الوجد ما أودعه، لما خدعه، ثم قلاه وودعه، وأنشق رياه أنف ارتياح قد جدعه، وأستدعيه على ظلم ابتدعه.**

"خَلِيلَــيَّ فِيمَــا عِشْــتُمَا هَــلْ رَأَيْتُمَــا قَتِــيلاً بَكَــى مِــنْ حُــبِّ قَاتِلِــهِ قَبْلِــي؟"[3]»[4]

أما الضرب الآخر فهو عن طريق حل الشعر وتفكيكه، والكاتب حتى يتمكن من هذا النوع ويحسنه « يحتاج إلى حفظ دواوين كثيرة لفحول الشعراء، فإذا فعل ذلك فليدمن في حل الأبيات الشعرية زمانا طويلا حتى تحصل له الملكة»[5] وذلك بإدراج شطر البيت أو أكثر أو أقل من ذلك ويجعله ضمن كلامه المنثور حتى يبدو وكأنه من إنشائه.

وقد ألمّ المترسلون بهذا اللون من التضمين إلماما كبيرا في هذا العهد والأمثلة على ذلك كثيرة، منها قول ابن خطاب:« **وجاذبته من حلو العتاب طرفا، أردت بذلك إبداء القصد**

---

[1] شرح ديوان المتنبي، ج4، ص420.

[2] التعريف بابن خلدون، (ابن خلدون)، ص114.

[3] ديوان جميل بثينة، (جميل بن معمر)، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1982م، ص37.

[4] التعريف بابن خلدون، ص114-115.

[5] الوشي الرقوم في حل المنظوم، (ابن الأثير)، ص 179.

الأحفى، وإحياء الود الذي أشفى، فهل أنا في ذا يال همدان ظالم».[1] فقد نثر الكاتب في هذا النص بيت عمرو بن براقة:

وَكُنْـــتُ إِذَا قَـــوْمٌ غَـــزَوْنِي غَـــزَوْتُهُم فَهَـــلْ أَنَا فِي ذَا يَالَ هَمَـــدَانَ ظَـــالِمُ[2]

حيث استطاع أن يدخله في سياق كلامه دون أن يشعر المتلقي أنه من الشعر، وجاء هذا التناص من حيث اللفظ والمعنى، أما اللفظي فيظهر في تضمين الشطر الثاني من البيت كما هو دون تغيير، أما المعنوي فإن عمرو بن براقة ينفي عن نفسه الظلم وأنه لا يغزو إلا من يغزوه، كذلك ابن خطاب يشير إلى أنه لم يكن البادئ بالعتاب حتى يُلقى عليه كل هذا اللوم فهو لم يبادر إلى الإساءة.

ويصبو ابن خطاب في الرسالة نفسها إلى إصفاء الودّ وإعادة العلاقة الأخوية إلى مجاريها فهو يتقبّل عتابه إن كان يرضيه ذلك، يقول: «**ما لجرح أرضاكم ألم، ولا يخطو إلي في غير ما تحبون قدم**».[3] حيث تناص مع بيت المتنبي:

إِنْ كَـــانَ سَـــرَّكُم مَـــا قَـــالَ حَاسِـــدُنَا فَمَـــــا لِجُـــــرْحٍ إِذَا أَرْضَـــــاكُمْ أَلَمُ[4]

ويقول أيضا في وصف رسالة: «**ومن أين يتعلق بمثل جماله العيب، أو يتطرق إلى فضل جلاله الريب، وهي الثريا، ودان الهرم والشيب، أشهد أنها لفريدة العصر، شديدة الأسر**».[5] حيث ضمّن قول المتنبي:

مَـــا أَبْعَـــدَ العَيْـــبَ والنُّقْصَـــانَ عَـــنْ شَـــرَفِي أَنَا الثُّـــــرَيَّا وذَانِ الشَّـــــيْبُ والهَـــــرَمُ[6]

---

[1] Edición y estudio del Fasl al jitab, p211.

[2] عمرو بن براقة الهمداني من مخضرمي الجاهلية والإسلام –سيرته وشعره– (شريف راغب علاونة) دار المناهج للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 2005م، ص114.

[3] Edición y estudio del Fasl al jitab, p211.

[4] شرح ديوان المتنبي، ج4، ص87.

[5] Edición y estudio del Fasl al jitab, p213.

[6] شرح ديوان المتنبي، ج4، ص88.

فالشاعر هنا يفتخر بنفسه وينفي عن نفسه العيب والنقصان وقد أجرى الكاتب هذا المعنى على رسالة صديقه الحافلة بالبلاغة والبيان التي لا يلحقها الخطأ، وهي بعيدة كل البعد على أن تشوبها شائبة مثلها مثل الثريا التي لا يلحقها الشيب والهرم.

ونظير هذا الضرب من التناص مع الشعر قول لسان الدين في غرض الاستعطاف في رسالته إلى سلطان تلمسان أبي حمو موسى الزياني: «**إذ الوجود سراب، وما فوق التراب تراب، ولا يبقى إلا عمل راق، أو ذكر بالجميل يسطر في أوراق**».[1] فقد استحضر قول المتنبي:

إِذَا نِلْتُ مِنْكَ الوُدَّ فالكُلُّ هَيِّنٌ وكُلُّ الذِّي فَوْقَ التُّرَابِ تُرَابُ[2]

وأبو القاسم البرجي في رسالة الشفاعة إلى أحد المقربين يستحضر بيتا لأبي الهندي:

علـى آل المهَلَّب شَاتِياً نَزَلتُ غَرِيباً عَنِ الأَوْطَان في زَمَنِ المِحْلِ[3]

فهذا البيت في سياقه يتضمن معنى الكرم ضمّنه الكاتب حتى يتوافق مع غرض رسالته المتمثل في طلب الشفاعة للمشفوع له الذي يرجى تغيّر أحواله بفضل كرم وجود صديقه الذي لن يتردد في قبول طلبه ولن يبخل عليه بما يملكه من مال أو غير ذلك، فأبو القاسم البرجي يقول : «**فإن أعرتموه من لحظكم طرف اهتبال، وأقبلتموه من اعتنائكم الجزيل وجه إقبال، فقد عاد دهره بعد النفار مواتيا، ونزل على أهل المهلب شاتيا**».[4]

وعلى العموم فإن تضمين الشعر في هذا العصر نادر بالنسبة إلى الرسائل الديوانية فقلما نجد رسالة سياسية يتناص كاتبها مع الشعر القديم، بينما الرسائل الإخوانية فهي حافلة بهذه الخاصية الأسلوبية التي تعدّ سمة بارزة في أغلب المواضيع والأغراض لاسيما تلك التي تكون في الشوق والحنين، واستطاع الكتّاب عن طريق توظيفها أن يكسبوا نصوصهم قيمة فنية وجمالية.

[1] نفح الطيب (أحمد المقري)، ج6، ص203.
[2] شرح ديوان المتنبي، ج1،ص327.
[3] ديوان أبي الهندي وأخباره، إخراج: عبد الله الجبوري، مطبعة النعمان، النجف بغداد، ط1، 1969م، ص46.
[4] نفح الطيب، ج6، ص68..

2.2.2. تضمين الأمثال:

ومن مظاهر تضمين الكتّاب في العهد الزياني للأدب العربي القديم بخاصة النثر كثرة الاستعانة بالأمثال العربية القديمة وإدراجها ضمن رسائلهم لما لها من قيمة فنية في تزيين النص، ومما تضفيه عليه من قوة وجمال، فقد أدركوا قيمتها وأهميتها فأكثروا من إيرادها في مكاتباتهم.

وهذا النوع من الفنون النثرية وجد صدى كبيرا لدى كتّاب الرسائل لما يحمله من بلاغة حيث تجتمع فيه إيجاز اللفظ و إصابة المعنى وحسن التشبيه، وجودة الكناية، واشترط النقاد القدامى على الكتّاب «النظر في كتب الأمثال الواردة عن العرب نظما ونثرا كأمثال الميداني، والمفضل بن سلمة الضبي، وحمزة الأصبهاني وغيرهم».[1] ولا يكتفي الكاتب بحفظها وفقط بل عليه «الوقوف على أصولها، والإحاطة بأحاديثها»[2] حتى يلم بها ويحسن فهمها ويقف على دلالتها وبالتالي حتى يكون صائبا في توظيفها إذا احتاج إليها في سبك معانيه.

وكان يشترط على الكاتب حفظ الأمثال المتنوعة حتى يتحكّم في معانيها وألفاظها ويضعها في مقامها الذي يناسب كلامه متى احتاج إليها ففي ذلك يقول القلقشندي:« (إن الكاتب إذا أكثر) من حفظ الأمثال الشائع استعمالها، انقادت إليه معانيها، وسيقت إليه ألفاظها، في وقت الاحتياج إلى نظائرها من الوقائع والأحوال، فأودعها في مكانها، واستشهد بها في موضعها، والطريق في استعمالها في النثر، كما في حل الأشعار واستعمالها، إلا أن الأمثال لا يجوز تبديل ألفاظها، ولا تغيير أوضاعها، لأنها بذلك قد عرفت واشتهرت».[3]

وأدباء العهد الزياني استعانوا بالأمثال العربية إما بتوظيفها كما هي دون تغيير لفظها، في مثل قول ابن خطاب:« **وأسرى من تلك القنافد سيقوا في قبضة الأسر، وذكروا بالمثل المضروب: "أسرى من قنفد"[4] وإن كان أحدهما من السرى والآخر من الأسر**».[5] وفي رسالة

---

[1] نهاية الأرب في فنون الأدب، (شهاب الدين أحمد النويري)، ج7، ص31.

[2] مجمع الأمثال، (الميداني: أبي الفضل أحمد بن مُحَمَّد النيسابوري)، المعاونية الثقافية للأستانة الرضوية المقدسة، 1344هـ، ج1، ص05.

[3] صبح الأعشى، ج1، ص301، 302.

[4] مجمع الأمثال، (الميداني)، ج1، ص367.

[5] Edición y estudio del Fasl al jitab, p295.

أخرى في سياق التعبير عن مكر وخداع الأعداء استعان بالمثل القائل: «ضرب أخماسا لأسداس».[1] في قوله: «**فأظهروا الانقياد، وأضمروا اللجاج والعناد، ثم استشعر منهم أنهم يضربون أسداس الأخماس**».[2] فنص الرسالة يشير إلى أن السلطان الحفصي قبل الهجوم على قسنطينة عرض على الأعداء الدخول في طاعته مقابل الأمن والأمان، فوافقوا في بادئ الأمر ثم تراجعوا فكانوا بذلك مخادعين وماكرين وهذا هو المعنى المراد من هذا المثل.

ومن أساليب تضمينهم للأمثال عدم إيرادها كما هي عن طريق حلها حتى تصير جزءا من رسائلهم تؤدي أغراضا معينة، ومن ذلك قول ابن خلدون: «**وما يتشوفه مجدكم ويتطلع إليه فظلكم واهتمامكم، من خاصيها في النفس والولد، فجهينة خبره**».[3] فقد وظف المثل القائل:« عند جهينة الخبر اليقين»[4] ، فهذا المثل يضرب لمن يملك الخبر دون غيره، وهو يريد من وراء توظيفه الإشارة إلى أبي يحي بن أبي مدين الذي بعث معه ابن خلدون رسالته فهو الذي يعلم أخباره وأحواله.

ومن أمثلة تصرفهم في الأمثال توظيف لسان الدين المثل القائل: "بلغ السيل الزبى".[5] وذلك في سياق الإخبار عن أحواله وما حلّ به: «...**فاعلموا أني قد بلغ بي الماء الزبى، واستولى علي سوء المزاج المنحرف، وتوالت الأمراض، وأعوز العلاج**».[6]. فقد استغل الكاتب هذا المثل أحسن استغلال وعبّر به عن أحواله المستعصية التي وصلت به إلى حد لا يطاق ولا يمكن تحملها.

ويستخدم لسان الدين المثل لتبرير عدم لحاقه ببلاط السلطان الزياني أبي حمو موسى الثاني في رسالته التي يستعطفه فيها، حيث يقول: «**وإن مملوككم حوّم من بابكم على العذب البرود، فعاقه الدهر عن الورود، واستقبل أفقه ليحقق الرصد، ولكنه أخطأ القصد، ومن أخطأ الغرض أعاد، ورجا من الزمان الإسعاد، وربما خبئ نصيب، أو كان مع الخواطئ سهم**

[1] مجمع الأمثال (الميداني)، ج1، ص431.
[2] المغرب والأندلس في القرن السابع (أحمد عزاوي)، ص120.
[3] التعريف بابن خلدون، (ابن خلدون)، ص155.
[4] مجمع الأمثال، ج1، ص464.
[5] المصدر نفسه، ج1، ص96.
[6] التعريف بابن خلدون (ابن خلدون)، ص 138.

مصيب».[1] فقد استعان بالمثل القائل :«من الخواطئ سهم صائب»[2] فمراد المثل يضرب لمن يخطئ مرارا ويصيب مرة فهو يريد من وراء هذا التوظيف أن يبن أن محاولاته المتكررة التي باءت بالفشل قد تصيب مرة من المرات.

و يقول ابن خطاب في تهنئته لأبي طالب بالانتصار على الكفار: «**والثانية ما هيأ الله لكم من الخضراء من فتح صير الكفر للأيمان فيئا، وأربى على الفتوح السالفة خلفا لمن قال: " ما ترك الأول للآخر شيئا"**[3]».[4] فتوظيف هذا المثل هنا جاء لغرض تأكيد عظمة هذا الانتصار على العدو ومدى أهميته بالنسبة للمسلمين على غرار الفتوح السابقة.

ومن الرسائل الحافلة بتوظيف الأمثال رسالة ابن خميس الفقهية[5] ففي سياق افتخاره بنفسه، يقول: «**زها بمجاورة الملك، فازدهى رؤساء الممالك، وشغف بمجاورة الملك، فاشتغل عن مطالعة المسالك، أيشق غباره، وعلى جبين المرزم مثاره**».[6] فقد تناص مع المثل القائل: «ما يشق غباره»[7]، حيث تكمن دلالة هذا التوظيف في كونه لا يجارى في المكانة وعزة النفس والابتعاد عن الشبهات فهو الذي فضّل الاشتغال بالعلم و العبادة على مصاحبة الملوك وحب الدنيا.

يتبن لنا أن تضمين الأمثال في رسائل العهد الزياني كان سمة أسلوبية بارزة حيث نجد الكتّاب يستعينون بها في رسائلهم خدمة لأغراضهم ومضامينهم، لقدرة هذا الفن الأدبي الذي يتصف بالبلاغة والإيجاز على التعبير عن المعاني الكثيرة بألفاظ قليلة، ولكونه دائم الاستعمال متى تشابهت الأحداث والحالات، وجاء هذا التناص بصور مختلفة إما بإيراد المثل كما هو دون تغيير،

---

[1] نفح الطيب، ج6، ص 202، 203.

[2] مجمع الأمثال، ج2، ص234.

[3] المصدر نفسه، ج2، ص290.

[4] Edición y estudio del Fasl al jitab, p297.

[5] ينظر: التناص في رسالة ابن خميس الفقهية، (تاولي هشام، مُحَمَّد مرتاض)، مجلة إشكالات في اللغة والأدب، المركز الجامعي لتامنغست، مجلد(09)، عدد(04)، نوفمبر 2020م، ص147.

[6] الإحاطة في أخبار غرناطة (ابن الخطيب)، ج2، ص559.

[7] جمهرة الأمثال (أبو هلال العسكري)، تحقيق: مُحَمَّد أبو الفضل إبراهيم، عبد المجيد قطامش، دار الجيل ودار الفكر للطباعة والنشر، ط2، 1988م، ج2،ص232.

أو بحله وجعله ضمن سياق الكلام لتأدية غرض من الأغراض بحسب ما يصبو إليه الأديب من معاني وأفكار.

3.2 الجمل المعترضة:

يعد أسلوب الاعتراض من الأساليب المهمة الذي يلجأ إليها الكاتب لتأدية غرض من الأغراض، لما له من فائدة بيانية ودلالية، وجعله القزويني من أنواع الإطناب وعرفه بقوله: « هو أن يؤتى فى أثناء الكلام أو بين كلامين متصلين معنى، بجملة أو أكثر لا محلّ لها من الإعراب».[1] ويسميه ابن الأثير الحشو و« هو كل كلام أدخل فيه لفظ مفرد أو مركب لو سقط لبقي الأول على حاله».[2] فالجملة الاعتراضية يمكن الاستغناء عنها دون أن تأثر في معنى الكلام المقصود وتأتي لتأدية غرض من الأغراض.

وشاع أسلوب الاعتراض كثيرا في رسائل هذا العصر لعناية الكتّاب بمعانيهم وميلهم إلى الإفاضة في عرض أفكارهم، واستقصاء الموضوع الذي يلمّون به، إما بداعي المجاملة أو التزلف، وإما بدواعي الود والصداقة الحميمة لتحقيق أغراض ومقاصدة متباينة جاءت على النحو الآتي:

أ- الدعاء:

الدعاء جزء من الرسالة وغرض مهم من أغراضها يحمل دلالات متعددة، لذا وجب على الكاتب في دعاءه أن يختار الألفاظ المناسبة التي تجدب المخاطب وتؤثر فيه، والمناسبة للغرض الذي يكتب فيه والموافقة للمعنى والمراعية لمقام المخاطب.[3] ذلك أن الدعاء صيغ ومعاني مختلفة يجب أن تراعي فيه مكانة المخاطب فالدعاء للسلطان ليس كالدعاء لمن دونه، والدعاء في غرض التعزية يختلف عن الدعاء في التهنئة وغير ذلك. وأفضل تلك الألفاظ ما كان من قبيل أعز الله، وعظم، شرف، ورفع، ونصر، وومد، وأيده، ونشر...[4]

وشاع الاعتراض في الدعاء الموجه إلى المرسل إليه في كثير من أغراض الرسائل الديوانية في العصر الزياني، وموضعه أن يكون في مطلع عرض الرسالة بعد لفظ (كتبه) وهو يتكرر في جميع

---

[1] الإيضاح في علوم البلاغة، (القزويني)، ص158.

[2] المثل السائر، (ابن الأثير)، ج3، ص40.

[3] ينظر إحكام صنعة الكلام، (الكلاعي)، ص73،74. الصناعتين، (أبو هلال العسكري)، ص159.

[4] ينظر: المفتاح المنشا لحديقة الإنشا، (ابن الأثير)، ص65.

الرسائل، ومن نماذجه قول ابن خطاب : «**فكتبه – كتب الله لها أسهل الفتوح وأجزل المنوح– من تلمسان حرسها الله، والعبودية للحضرة الكريمة هي أجمل حلاه**».[1] وهو لا يقتصر على الرسائل الموجهة إلى المسلمين بل يرد أيضا في الرسائل الموجهة إلى ملوك النصاري: «**أما بعد، فإنا كتبنا إليكم – كتب الله لكم هداية تبلغ نيل الأمل والآمال، وكرامة تصحبكم في كل حال– من حضرتنا العلية بتلمسان المحروسة**».[2]

ومن ألوان الأدعية الواردة في الرسائل الديوانية الدعاء للسلطان، والذي يأتي على شكل صيغ كثيرة ومتعددة منها: « **وكانت حضرة سيدنا ومولانا المستنصر بالله المنصور بفضل الله أمير المؤمنين – رفع الله ذكره في الدنيا والآخرة، وكساه الضافي من ملابس رحمته ورضوانه الفاخرة– أنعمت على عبدها عامر بنعمة تسوغها طول حياته**».[3]

ومن الصيغ الأخرى للجمل الاعتراضية الدعائية الموجهة إما إلى المرسل أو المرسل إليه التي وردت في الرسائل الديوانية نجد : (وصل الله تأييدكم)، أو (وصل الله أسباب عضدكم وتأييدكم)، أو (وصل الله سعدكم)، ومن الصيغ الواردة بكثرة (أيّدها الله ، أيّده الله).[4]

وتخصص الجمل الاعتراضية الدعائية في الرسائل للأماكن أيضا، كأن يكون للإمارة والدولة، ويأتي الدعاء غالبا بمعنى الحماية والحراسة، ومن ذلك مثلا: «...**وإمضاء عزمه الصادق وإنفاذه، على الوصول إلى البلاد الغربية – حماها الله– والحلول بها لتمشية مصالحها**».[5] ومن الصيغ الأخرى ما ورد في الظهير الزياني لأهل الأندلس: «**لجميع أهل الأندلس المستوطنين بحضرة تلمسان – حرسها الله– أحلهم به من رعيه الجميل أكنافا**».[6]

---

[1] Edición y estudio del Fasl al jitab, p134.

[2] علاقة إسبانيا القطلانية بتلمسان (عمر سعيدان)، ص122، 123.

[3] Edición y estudio del Fasl al jitab , p172.

[4] تراجع هذه الصيغ الدعائية في الرسائل السياسية التي كتبها ابن خطاب عن الملوك الزيانيين، Edición y estudio del Fasl al jitab, p133, 134, 168.

[5] المغرب والأندلس في القرن السابع، (أحمد عزاوي)، ص 117.

[6] المصدر نفسه، ص159.

وتبدو ظاهرة الجمل الدعائية بوضوح في معظم اتجاهات أدب الرسائل الإخوانية، ومن الأمثلة الدالة على ذلك قول ابن خلدون مخاطبا لسان الدين بن الخطيب: « **وقد تأدى مني إلى حضرته الكريمة خطاب على يد الحاج نافع – سلمه الله– تناوله من الأخ يحيى عند لقائه إياه بتلمسان، بحضرة السلطان أبي حمو– أيّده الله– فربما يصل**».[1] ومن أوجه الدعاء الوارد ضمن الجمل الاعتراضية الموجه إلى الأعداء قول ابن خطاب: «**ثم انصرف الطاغية – أخذه الله– إلى موضعه ليستعد للنزال**».[2]

ويأتي الدعاء للرسول (ﷺ) ولصحابته رضوان الله عليهم، ومن ذلك ما ورد في رسالة البيعة قول ابن خطاب: «**وما مضى – ﷺ– حتى أعد لخلافته الصديق، وأهله لحمل تلك الأمانة وكان الخليق لها الحقيق، فلم يكن لتقدمه قاف، وقوله –ﷺ– يأبى الله ذلك والمسلمون كاف**».[3]

ونظير ذلك أيضا، قوله في رسالة البيعة: «**ثم مضى (أبو بكر الصديق)– ﷺ – حميدا سعيه، سديدا في حياطة الأمة رأيه، فوليها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب – ﷺ– الحليم الرشيد**».[4] ومنه ما يكون موجها إلى الملائكة لغرض التنزيه في مثل قول ابن خطاب في رسالة التعزية والتهنئة إلى أبي حاتم العزفي: «**وشكرا لكم حفظكم وصية جبريل– عليه السلام– في جيرانكم أهل الجزيرة**».[5]

إذًا فالدعاء الوارد في الرسائل بنوعيها في شكل جمل اعتراضية كثيرا ما يرد في عرضها، ويكون موجها إلى المرسل إليه يراعى فيه مكانته ومنزلته الاجتماعية والسياسية أو يكون للإمارة كذلك، ويتوافق مع الغرض والمضمون الذي لأجله كتبت الرسالة، وجاء لتحقيق أهداف معينة كالرفع من قيمة ومكانة المخاطب والتودد إليه، وخُصص الدعاء أيضا لخاتم الأنبياء ولصحابته الكرام لغرض تعظيمهم وإثبات مكانتهم وتنزيههم عن بقية الخلق.

[1] التعريف بابن خلدون (ابن خلدون)، ص136.

[2] Edición y estudio del Fasl al jitab, p215.

[3] Ibid, p215.

[4] المغرب والأندلس في القرن السابع (أحمد عزاوي)، ص132.

[5] Edición y estudio del Fasl al jitab, p295.

ب- الإيضاح وتأكيد المعنى:

ومن مقاصد الاعتراض الإيضاح وتأكيد المعنى ويظهر في هذا اللون حشو الألفاظ وزيادتها على المعنى لتوضيحه وتأكيده، ومن نماذجه قول ابن الخطيب في رسالته إلى ابن خلدون المتضمنة غرض الشوق: « **والقلوب قد بلغت – من الشوق والاستطلاع – الحناجر**».[1] ونظير هذا الضرب من الاعتراض ما ورد في جواب ابن خلدون :«**مازال الشوق – مذ نأت بي وبك الدار، واستحكم بيننا البعاد– يرعي سمعي أنباءك**»[2] إن هذه الجملة الاعتراضية وضح الكاتب فيها أن الشوق والحنين قد نشب في نفسه منذ أن فارق صديقه.

وقول لسان الدين بن الخطيب مخاطبا شيخه ابن مرزوق :«**فإن رأى مولاي أن يشفع المنة، ويقرع بابا ثانيا من أبواب الجنة، قبل أن يشغل شاغل...أو يدس له ما يحمله على الاحتجاج – متسع مناطها، فسيح استنباطها، كثير هياطها ومياطها– فهو تمام صنيعته التي لم ينسج على منوالها الأحرار**».[3]ومن أضرب الاعتراض الذي يهدف صاحبه إلى تأكيد معناه وإثبات صدق كلامه قول ابن خطاب: «**وأنا – علم الله– ممن طويت على حبه الجوانح، ولم أزل أزجر للقائه البوارح والسوانح**».[4]

والجمل الاعتراضية في الرسائل السياسية والإخوانية في هذا العصر شملت جميع الأغراض والمضامين، واستعان بها الكتّاب في مقدمة وعرض الرسائل، وأدّت وظيفة فنية وجمالية حيث أسهمت في توضيح المعاني وتأكيدها والتأثير في نفسية المتلقي من خلال التودد والتقرب إليه لاسيما تلك الجمل الدعائية الموجهة للمرسل إليه، والإكثار من هذه الجمل يعد سمة من سمات الإطناب التي طغت على فن الرسائل للعصر الزياني.

[1] التعريف بابن خلدون، ص 130.

[2] المصدر نفسه، ص 131.

[3] نفح الطيب، (أحمد المقري)، ج6، ص 404.

[4] Edición y estudio del Fasl al jitab, p234.

4.2 الإيجاز والإطناب:

لم تكن الرسائل في عهد الدولة الزيانية بنوعيها على مستوى واحد من حيث الإيجاز والإطناب فهي تطول وتقصر بحسب المواضيع والظروف التي تكتب فيها، لأن الكاتب «يحتاج إليهما في جميع الكلام وكل نوع منه، ولكل واحد منهما موضع، فالحاجة إلى الإيجاز في موضعه كالحاجة إلى الإطناب في مكانه»[1]. وعلى الرغم من ذلك فإن السمة الغالبة هي الإطناب، ومرد ذلك إلى محاولة الكتّاب إظهار براعتهم ومقدرتهم الأدبية، وميلهم إلى التنويع بين النثر والشعر، والاقتباس من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، وتضمين الأمثال هو ما دفعهم إلى الإسهاب وتكرار المعاني.

ولو بدأنا بمواضيع الرسائل الديوانية لوجدنا أغلبها اتسمت بالإطناب فمقدماتها التي تضمنت ذكر المرسل والمرسل إليه مع تبجيله وتعظيمه بالألقاب المفخمة إضافة إلى الحمدلة والصلاة على الرسول الكريم وذكر المكان، هذه العناصر كلها هي نفسها قد تستغرق صفحة أو أكثر.

ومن مواضيع الرسائل السياسية التي مسّها الإطناب موضوع البيعة ففيه يأخذ الكاتب حيزا واسعا للحديث عن الخلافة منذ عهد الرسول ﷺ وعهد الخلفاء الراشدين، ثم ينتقل إلى من وليهم ويقف على خصائص حكمهم، حتى يصل إلى إعلان البيعة الأمر الذي يفرض عليه الإطالة، مثل بيعة يغمراسن بن زيان للواثق بالله الحفصي: « **الحمد لله الذي تغمدنا بإنعامه المتتابع، وهدانا إلى الصراط المستقيم، بما نصب لنا من الشرائع، ونظم شمل العالم على مقتضى حكمته وتدبيره نظاما تكفل لهم باستفاء المرافق والمنافع...ونشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة رهينة لنا بالخلاص، مرتمية من اليقين والإخلاص إلى الأمد الأقصى ... أما بعد فان الله تعالى سابق حكمته، وسابغ نعمته، خلق لعباده هذه الدار اختبارا، واعتبارا... وبعث فيهم الرسل إلى معرفته هادين، ولعبادته منادين...وخصّنا منهم بمن تأخر بالزمان وتقدم لديه شرف الحضرة والمكان، سيدنا مُحَمَّد رسوله الذي أيده بملائكته...وما مضى**

[1] الصناعتين، (أبو هلال العسكري)، ص190.

(ﷺ) حتى أعدّ لخلافته الصديق، وأهله لحمل تلك الأمانة... ثم مضى ﷺ حميدا سعيه، سديا في حيالة الأمة رايه، فوليها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (ﷺ)».[1]

يتطرق ابن خطاب في بداية البيعة إلى فضل ونعمة البيعة التي خصها الله عباده المسلمين، ثم ينتقل إلى الصلاة على الرسول الكريم، ليعرّج بعد ذلك على خلافة رسول الله للمسلمين والخلفاء الراشدين من بعده ذاكرا مناقبهم وما أدوه من فضل للأمة والإشادة بخصالهم الحميدة، ثم يصف الأحوال التي آل إليها المسلمون من تشتت أمرهم وتفرقهم في زمن الفتن، إلى أن حلّت خلافة الحفصيين بخاصة خلافة الواثق الحفصي ويسهب هنا في الحديث عن مناقب ومزاياه على المسلمين، ليصل بعد ذلك إلى الموضوع الأساس وهو إعلان البيعة، ويختمها بالدعاء. فتعدد العناصر التي يتناولها الكاتب في هذا الغرض واعتماده على الاقتباس من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة وأخبار الصحابة رضوان الله عليهم، ومراعاة مكانة المخاطب والغرض السياسي المتمثل في البيعة كلها فرضت عليه أن الإطناب بدل الإيجاز.

كما تظهر سمة الإطناب جلية في الرسائل الديوانية التي لها علاقة بالحرب كالمتعلقة بالتهنئة بالفتوح، والسبب يعود إلى المبالغة في وصف الفريقين المتخاصمين، وسرد الأحداث التي جرت في هذه الواقعة، ففي جواب ابن خطاب حول إنهاء التمرد على قسنطينة أسهب في وصف الجيش المنتصر، يقول: «**فتوجهتم إلى قسنطينة في عسكركم اللهام، الضارب للهمام، المعروف بالصرامة والإقدام، جموع ينجدها القضاء، وتضيق عنها الأرض الفضاء، تضل البلق في حجراتها،...وأنكم أثناء مسيركم وصلت إليكم جماعة من وجوه أهل البلد وفقهائه يطلبون منكم الأمان، ويسالونكم الصفح عما كان... ثم ظهر لكم منهم انهم على غيهم مصرون، ولأسباب الكيد والخديعة ممرون... فصمّمتم إليهم تصميم الملوك أولي الهمم العالية والنفوس الأبية، فسخر الله لكم أقداره المعينة، وأنفذ حكمه القسط باستخلاص قسنطينة، واسترجاعها من أيدي غصابها الخائنين لأمانتها...فما أعظم اجتراءهم، وما أضل أراءهم، حين نسوا ما اقترفوا من الجرائم واكتسبوا».**[2]

[1] المغرب والأندلس في القرن السابع، ص130- 132.

[2] المصدر نفسه، ص124- 126.

وإسهاب الكاتب هنا يعود أيضا إلى مكانة المخاطب، إذ إن الرسائل الموجهة إلى من هو أعلى مرتبة كما هو الحال في هذه الرسالة المتضمنة لغرض التهنئة بالانتصار الذي يقتضي الإشادة والتبجيل بعظمة وقوة جيش الأمير أبي فارس تفرض على الكاتب المبالغة في وصفه بأحسن الصفات وتبيان أهمية الفتح والنصر المحقق، وهجاء الطرف الآخر والحطّ من قيمته، والإخبار عن أهم الوقائع والأحداث والدعاء للسلطان بالنصر ودوام العز.

كل هذه المواضيع مجتمعة إضافة إلى الإكثار من توظيف المحسنات البديعية لاسيما السجع، والاقتباس من القرآن الكريم لغرض تأكيد المعاني قد فرضت على الكاتب الإطناب في مثل هذه الأغراض، لكن بالرغم من ذلك فإننا نرى أن هذا الإسهاب لم يكن مخلا بالمعنى بل جاء مؤكدا له وموضحا.

أما الرسائل السياسية الموجزة فنجد رسالة العتاب[1] التي بعثها أبو حمو موسى الأول السلطان الناصر مُحَمَّد بن قلاوون ، حيث جاءت خالية من الاستهلال الذي اعتاد الكتّاب عليه في مخاطبة الملوك والذي يأخذ حيزا كبيرا في نص الرسالة حيث بدأها مباشرة بالموضوع، ولم يتحدث فيها عن أواصر الأخوة أو العلاقات التي تجمع بينهما كما جرت عليه العادة، وخلت كذلك من الألقاب المفخمة والدعاء وغيرهما من العناصر المشكلة للرسائل السياسية، وهذا في حدّ ذاته يعدّ لوما وعتابا وإبداء للغضب وعدم الرضا الموافق لغرض الرسالة التي اكتفى الكاتب فيها بتوضيح بعض الأمور المتعلقة بالرسل الذين تعرضوا للنهب في طريق عودتهم مستخدما أسلوبا مباشرا يخلو من الزخرفة اللفظية ومن ألوان البيان والبديع.

ويظهر الإيجاز أيضا جليا في الرسالتين اللتين بعثهما أبو حمو موسى الثاني إلى ابن خلدون يستدعيه للحجابة، فالأولى من إنشاء السلطان نفسه، واحتوت على طلب الاستدعاء بصيغة مختصرة: « **الحمد لله على ما أنعم، والشكر لله على ما وهب، ليعلم الفقيه المكرم أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون، حفظه الله، على أنك تصل إلى مقامنا الكريم، لما اختصصناكم به من**

[1] تاريخ ابن خلدون (ابن خلدون)، ج7، ص300، 301.

الرتبة المنيعة، والمنزلة الرفيعة، وهو قلم خلافتنا، والانضمام في سلك أوليائنا، أعلمناكم بذلك. وكتب بخط يده عبد الله المتوكل على الله موسى بن يوسف لطف الله به وخار له».[1]

أما الأخرى[2] فهي من إنشاء كاتب ديوانه واشتملت على الإشادة بمكانة ابن خلدون العلمية والأدبية، التي تؤهله لهذا المنصب نظرا لتشيّعه للإمارة الزيانية، وبالنظر إلى أن الرسالتين كانتا موجهتين ممن هو أعلى مرتبة إلى من هو أدنى فقد جاءتا مختصرتين موجزتين، ولو كان العكس لمسهما الإطناب كما جرت عليه العادة عند مخاطبة الملوك، وكذلك تضمنهما لغرض واحد هو طلب الاستدعاء لأداء وظيفة في بلاط السلطان، وخلو الرسالتين من الاقتباس أو التنويع بين النثر والشعر، وعدم الاعتماد في صياغتهما على المحسنات البديعية، ووضوح الأفكار والمعاني وتجنب الخيال والصور البيانية.

ويضاف إلى هذه الرسائل السياسية التي اتسمت بالإيجاز بعض الرسائل الموجهة إلى ملوك (أراغونة) التي هي الأخرى جاءت واضحة المعاني والأفكار بلغة سهلة واضحة لا غموض فيها ولا تعقيد، بأسلوب مباشر يخلو من الخيال والصور البيانية ومن المحسنات البديعية، ما عدا مقدماتها التي اشتملت على العناصر السابقة الذكر التي أطال فيها الكتّاب ذكر الألقاب المفخمة، أما على مستوى العرض فقد تضمنت المواضيع التي من أجلها كتبت دون زيادة أو نقصان في مثل:« **وأما ما ذكرتموه عن قضية سلف المال منا إليكم لقضاء مآربكم ومطالبكم، فمقامنا هذا والحمد لله كفيل ببلوغ آمالكم... وأما ما ذكره لنا رسولكم عنكم كونكم طلبتم معاداتنا النصارى الفنشيين، فرسولكم يبين لكم ذلك أتم تبين حسبما ألقينا هاليه وبيناه عليه.**[3]

أما الرسائل الإخوانية فلم تكن على مستوى واحد من حيث الإيجاز والإطناب فهي تطول وتقصر بحسب موضوع الرسالة والظرف الذي كتبت فيه وعاطفة المرسل حين دبجها، وعلى الرغم من ذلك فإن سمة الإطناب تظهر في معظم رسائل هذا العصر، ومرد ذلك أن هذه السمة تتيح لمنشئ الرسالة أن يظهر مهاراته الفنية وثروته الفكرية والثقافية، فيطيل في عرض المسائل والأفكار

[1] التعريف بابن خلدون، ص110.

[2] ينظر: نص الرسالة في المصدر نفسه، ص110-111.

[3] علاقة إسبانيا القطلانية، (عمر سعيدان)، ص137، 138.

التي يريد أن يوضحها ويبينها، أضف إلى ذلك مضامين الرسائل التي تعددت وتنوعت بخاصة المدح الذي نكاد نجده في أغلب المواضيع.

فنجد مثلا أن رسالة[1] ابن خميس قد اتسمت بالإطناب فإذا ما نظرنا إلى نفسيته التي اتسمت بالحسرة والألم بسبب قرار محاكمته فإنه احتاج إلى حيز كبير حتى يعبّر عمّا يختلج صدره فاستهلها بقصيدة طويلة، وتعددت أغراضها من افتخاره بقصيدته وأصله ونسبه، والدفاع عن نفسه وإثبات علوّ كعبه، وهجائه لخصموه، وحرصه على استحضار موروثه الثقافي والفكري المتمثل في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، والأمثال العربية والشعر العربي القديم، والأحداث والشخصيات التاريخية المتنوعة، والمصطلحات الفلسفية، وموظفا المحسنات البديعية المختلفة من جناس وسجع وطباق وغيرها، كل هذه العوامل الداخلية والخارجية جعلت هذه الرسالة تطول.

وامتاز لسان الدين بن الخطيب في أسلوبه بكثرة الإطناب حيث يعمد إلى تكرار المعاني، فهو «إن أطنب وأسهب، فقد سلك من البلاغة أحسن مذهب».[2] لأنه اعتمد في بناء رسائله على الجمل القصيرة حيث لا يشعر المتلقي بهذا التكرار، فإذا ما نظرنا في رسالته[3] إلى صديقه ابن خلدون، نجدها هي الأخرى قد اتسمت بالإطناب، ومرد ذلك –أولا وقبل كل شيء– إلى نفسية الكاتب وعلاقته بصديقه، فهو لم يستسغ بسهولة رحيله بل تجرع بسبب الفراق ألما وحسرة في نفسه، أضف إلى ذلك انقطاع أخبار ابن خلدون حين حلّ ببسكرة ما زاد من وساوس ابن الخطيب، فاحتاج إلى التعبير بكل حرية عن معانيه وأفكاره التي تعددت من شوق وحنين وتطلع إلى اللقاء وعتاب ولوم لصديقه، واحتاج بالإضافة إلى ما سبق إلى التنويع بين الشعر والنثر والاعتماد على الأسلوب المسجوع حتى يخفف عن نفسه.

ومن رسائل ابن الخطيب التي اتسمت بالإيجاز رسالته التي يرحب فيها بقدوم صديقه ابن خلدون، ولعل قرب اللقاء الذي سيجمعه بصديقه هو ما دفعه إلى توخي الإيجاز بدل الإطناب، فاكتفى بالترحيب به وتشييعه لدى السلطان :«**سيدي، قدمت بالطير الميامين، على البلد**

[1] ينظر: الإحاطة في أخبار غرناطة، (ابن الخطيب)، ج2، ص 554 وما بعدها.

[2] نفح الطيب (أحمد المقري)، ج6، 27.

[3] ينظر: التعريف بابن خلدون، ص112وما بعدها.

الأمين، واستضفت الرفاء إلى البنين، ومتعت بطول السنين. وصلتني البَراءة المعربة عن كثب اللقاء، ودنو المزار، وذهاب البعد، وقرب الدار؛ واستفهم سيدي عما عندي في القدوم على المخدوم، والحق أن يتقدم سيدي إلى الباب الكريم، في الوقت الذي يجد المجلس الجمهوري لم يفض حجيجه، ولا صَوَّح بهيجه، ويصل الأهل بعده إلى المحل الذي هيأته السعادة لاستقرارهم، واختاره اليمن قبل اختيارهم، والسلام».[1]

ويبدو أن هذا النوع من الرسائل يغلب عليه الإيجاز فرسالة[2] ابن مرزوق التي يرحب فيها بابن الخطيب حين حل بفاس إذا ما استثنينا القصيدة التي استهل بها خطابه فإنه جزأها النثري اقتصر فيه على إبداء فرحه بقرب الوصول واللقاء وتهيئة المقام لدى السلطان حتى يطمئن باله.

أما ابن خطاب فإن رسائله الإخوانية قد تنوعت بين الإيجاز والإطناب، ففي رسالة الشوق إلى الحكيم أبي الرضا فقد أسهب في وصف رسالة صديقه، والافتخار بمقدرته الأدبية، كما تطرق فيها إلى بعض أخباره وأحواله، ومما جاء فيها قوله: «**فلله تلك الصحيفة الحصيفة، والحميلة الجميلة، نور ساطع، ونور يانع، فتنتني بدائعها وملأت بصري وسمعي روائعها... ما هذه الاستطاعة، التي أعجزت القدر، وأعوزت البصر، العلم وإن صح رفعه، لا يحل لأحد منعه، فعلميني ما تعلمت، ومن لي باتباع أثرك إذا تقدمت... ولك عهد الله وميثاقه على الوفاء الذي لا يقيد إطلاقه، والكتمان الذي لا يفتح إغلاقه».**[3]

ويبدو أن جل الرسائل التي تضمنت الأغراض التي يعبّر فيها الأدباء عن مشاعرهم وعواطفهم كالشوق والعتاب والإعجاب والفرح والسرور قد اتسمت بالإطناب، فابن خطاب في رسالته التي يجيب فيها الفقيه أبي عمرو بن المرابط يعلن إعجابه بها وفرحه وسروره ويصفها وصفا حسيا ومعنويا، ويثني على بلاغته وفصاحته ومما جاء فيها قوله: « **مرحبا بغريبتك السالبة للألباب، الجالبة للإعجاب، المنسكب طبع براعتها وبراعة طبعها كالرباب عذبتني بعذابها**

[1] المصدر السابق، ص95-96.

[2] ينظر: نفح الطيب، ج6، ص65.

[3] Edición y estudio del Fasl al jitab, (Hassan El –Ghailani), p226, 227.

أحقابا، وأتعبتني استبطاء لقربها وارتقابا، واكثبت متبرقعة بالصباحة، متبرعة بالإباحة، فبعثت لبرها وسبرها فخبرت بخبرها وسبرها، وقبلت بساطها، وتقبلت استنباطها».[1]

ومن الأغراض التي اتسمت بالإطناب أيضا، نجد تلك المتضمنة جوابا عن عتاب، مثل رسالة[2] ابن خطاب التي استهلها بقصيدة طويلة مناسبة لغرضها ومضمونها، واتسم جزؤها النثري بتعدد الأغراض وتنوعها من وصف لأسلوبها وما أحدثته من أثر في نفسه، وتذكر لذكريات الماضي التي جمعته بصديقه، ودعوته إلى إصفاء الودّ وتجديد المحبة.

أما رسائله التي اتسمت بالإيجاز تلك التي كتبها إثر مرض أصابه وإرجاف بموته حيث اكتفى بوصف حاله، ومما جاء فيها قوله: «**رسمت هذه العجالة من تلمسان –حرسها الله– والحامل واقف مستحث للقلم، مستقل من الكلم، وأنا قد طار عني الترب والكفن، وضيرني إحدى أعاجيبه هذا الزمن، والإرجاف كما قيل مقدمة الكون، والنفوس إلى مواقيتها محفوفة بالكلاءة والصون، وكنت في الشهر الفارط قد هجم علي مرض صفراوي في غاية الحدة وأحل بجسمي وأيأسني من نفسي، وأشرف بي على الموت».**[3]

ومن رسائله التي اتسمت بالإيجاز تلك المتضمنة غرض التعزية وبخاصة الموجهة إلى الأصدقاء ففي إحداها يقتصر على وصف حاله إثر سماع النبأ المفجع مع الدعاء للمخاطب حيث استهلها بالغرض مباشرة دون مقدمات: «**وقد بلغني ما جرى به القدر من وفاة أخيكم، عين الأعيان، وزين الإخوان، جدد الله عليه رحمته ورضوانه، لقد صدع مصابه كبدي، ونغص عرى صبري وجلدي، وأطال مدى حزني وكمدي، وفقدت به عمدتي وعددي، فنومي نافر، ودمعي هامر، فيا له قيدا ذهب الحمام منه بجمال وأجمال».**[4] يبدو أن توخي الإيجاز في رسائل التعزية يعود سببه إلى نفسية المرسل الذي يعجز عن التعبير أمام هذه المصيبة فيكتفي بالتعبير عن شعوره وحاله مع الدعاء لأهل الفقيد.

---

[1] Ibid, p194.

[2] تراجع الرسالة المتضمنة لغرض العتاب التي اتسمت بالإطناب في: Edición y estudio del Fasl al jitab, p209- 212

[3] Ibid, p239.

[4] Ibid, p307.

والملاحظ أن رسائل[1] ابن خطاب المتضمنة غرض التعزية الموجه إلى الأصدقاء دون السلاطين قد اتسمت بالإيجاز حيث استهلها بوصف حاله إثر سماع خبر الوفاة والدعاء للمخاطب بما يناسب الحال، ورسالة أخرى استهلها بوصف مآثر الفقيد ثم وصف حاله والدعاء لأهل الميت. ومن الأغراض الأخرى التي اتسمت بالإيجاز وعدم الإسهاب في تكرار المعاني رسائل الشفاعات[2]، لأنها جاءت مستقلة في غرضها حيث أن أغلبها تضمنت وصف حال المشفوع له وطلب رعايته والاهتمام به.

3- الأساليب والسمات الإيقاعية:

الأسلوب هو «الصورة اللفظية التي يعبر بها عن المعاني أو نظم الكلام وتأليفه لأداء الأفكار وعرض الخيال، أو هو العبارات اللفظية المنسقة لأداء المعاني».[3] ويبدو تأثر كتّاب هذا العصر بأسلوب الكتابة الأدبية المشرقية واضحا، لاسيما تأثرهم بطريقة القاضي الفاضل[4]، وهي تعتمد على المبالغة في الجناس والسجع المتكلف، وكثرة الاقتباس واستخدام الطباق، وهذه الطريقة شاعت في عصر ابن خلدون ولسان الدين بن الخطيب.

وقد تنوعت أساليب كتّاب وأدباء العصر الزياني، فهناك الأسلوب المرسل والأسلوب المسجوع فلم يلتزموا أسلوبا بعينه لأنهم « لم يستحدثوا لأنفسهم مذهبا جديدا في النثر الأدبي... فقد وقفوا عند المحاكاة، وهي محاكاة اضطرتهم إلى ضروب الخلط».[5] لذلك مال أغلب كتّاب هذا العصر في صياغة الرسائل الرسمية والأدبية على حد سواء إلى اعتماد الأساليب الشعرية المتمثلة خصوصا في الأسجاع الكثيرة.

---

[1] تراجع الرسالتان الواردتان في: Edición y estudio del Fasl al jitab, p307 ,308

[2] تراجع بعض الرسائل المتضمنة غرض الشفاعة الواردة في: Edición y estudio del Fasl al jitab, p161. P182. نفح الطيب، ج6، ص67، 388.

[3] الأسلوب دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية (أحمد الشايب) مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط8، 1991م، ص42.

[4] هو أبو علي عبد الرحمن البيساني، وزير صلاح الدين الأيوبي، قال النويري فيه: « إلى القاضي الفاضل انتهت صناعة الإنشاء ووقفت». عرف أسلوبه بالتزام السجع الطويل والتشبيه والاستعارة. توفي سنة 596هـ. ينظر ترجمته، نهاية الإرب في فنون الأدب(شهاب الدين النويري)، ج8، ص03 وما بعدها.

[5] الفن ومذاهبه في النثر العربي (شوقي ضيف)،ص320.

1.3 الأسلوب المرسل:

هو ذلك الأسلوب الذي لا يعتمد الكاتب في بنائه على السجع إذ يقوم على الطبع والموهبة، وفيه يترك الكلام على سجيته، دون تكلف فيجري حرا طليقا، من غير قيد من القيود التي تفرضها الزخرفة البديعية وبخاصة السجع، فيعبّر عن مقصده وغرضه بألفاظ واضحة لا غموض فيها، حيث يقول ابن خلدون: «هو الذي يطلق فيه الكلام إطلاقا، ولا يقطع أجزاء بل يرسل إرسالا من غير تقييد بقافية ولا غيرها»[1]، ويبدو أن هذا الأسلوب بعيد المنال لذا عجز كتاب هذا العصر عنه «لبعد أمده في البلاغة وانفساح خطوبه».[2]

ولم يرد هذا الأسلوب كثيرا في رسائل العهد الزياني، مقارنة بالأساليب الأخرى التي شاع استخدامها، ويختص هذا الأسلوب بالمواضيع التي لا تحتمل الزخرفة اللفظية والبلاغية من الإكثار من السجع والجناس وألوان البيان من استعارات وتشبيهات حيث إن الغرض من استخدام هذا الأسلوب هو إيصال الفكرة بدقة، وبشكل منظم.

ومن الرسائل السياسية التي اعتمد كتابها على هذا الأسلوب تلك الموجهة إلى ملوك أراغونة، ومن نماذجه ما ورد في الرسالة المتضمنة معاهدة صلح بين الطرفين التي وجهها السلطان عبد الرحمن بن موسى بن عثمان بن يغمراسن بن زيان إلى (جاقمو الثاني):« **أما ما أشرتم إليه من تسريح جميع من عندنا من الأسارى فذلك ما لا يمكن أن يكون، كما لا يمكن لنا أن نطلب منكم تسريح من عندكم من أسرى المسلمين، لأنكم تعلمون أن ما عمر بلادنا إلا الأسارى، وأكثرهم صناع متفننون في أنواع جميع الصنائع، ولو طلبتم ما يستغنى من الحال من تسريح خمسة أو ستة لأسعفنا مطلبكم وقضينا إربكم، وأما تسريح الجميع فصعب الآن، ذلك يخلي المواضع ويعطل ما يحتاج إليه من أنواع الصنائع، فإن أردتم أن تكون الصداقة بيننا وبينكم في ماعدا الأسرى، ويكون حالنا وحالكم واحدا في ما نحتاج أو تحتاجون إليه من قضاء الحوائج التي تمكن، ومن سرحة أو غيرها فنحن نعمل إن شاء الله على ذلك**».[3] فنلاحظ في هذا النص

[1] مقدمة ابن خلدون (ابن خلدون)، ج2، ص393.

[2] المصدر نفسه، ج2، ص394.

[3] علاقة إسبانيا القطلانية، (عمر سعيدان)، ص 90-92.

أنه يخلو من المحسنات اللفظية ولاسيما السجع، حيث تحرر الكاتب منه، وجعل يرسل الكلام دون تقيّد أو تكلف، فجاءت أفكاره واضحة لا لبس فيها ولا غموض.

ولغة هذه الرسائل سهلة بسيطة تخلو من التكلف، وتميل إلى لغة المحادثة العادية، فقد كان جل اهتمامهم يقتصر على المضامين لغرض نقلها في صورة مباشرة لا تحتمل التأويل ولا يشوبها التعقيد مراعاة للمخاطب الذي لا يفهم معانيها إلا بواسطة ترجمان حيث اعتادوا إرساله مع هذه الرسائل حتى يبين لهم ما جاء فيها.

ومن الرسائل الديوانية التي اعتمد كاتبها على الأسلوب المرسل تلك التي كتبها مُحَمَّد بن هدية عن أبي حمو موسى الأول إلى السلطان مُحَمَّد بن قلاوون في غرض العتاب ونصها: «**أما عتابك عن شأن الرسل وما أصابهم في طريقهم فقد حضروا عندي وأبنت لهم الاستعجال حذرا مما أصابهم، وأريتهم مخاوف بلادنا وما فيها من غوائل الأعراب، فكان جوابهم أنا جئنا من عند ملك المغرب فكيف نخاف مغترين بشأنهم يحسبون أن أمره نافذ في أعراب قبائلنا. وأما الهدية فترد عليك، أما دهن البلسان فنحن قوم بادية لا نعرف إلا الزيت وحسبنا به دهنا. وأما المماليك الرماة فقد افتتحنا بهم إشبيلية وصرفناهم إليك لتستفتح بهم بغداد والسلام**».[1]

ولم يكن هذا الأسلوب شائعا في الرسائل الإخوانية وإن وجد فقد كانت له مواقعه المخصصة، وندر أن نجد رسالة في هذا العصر لا يتقيد كاتبها بالوزن المتمثل في السجع، على خلاف ابن خلدون الذي ثار على الصنعة اللفظية التي ميزت النثر في عصره واتخذ موقفا مغايرا تماما حيث يقول: «فانفردت به (الكلام المرسل) يومئذ، وكان مستغربا عندهم بين أهل الصناعة».[2] فخالف بذلك كتّاب عصره الذين مالوا إلى التصنع والتكلف اللذان يؤديان إلى اختيار الألفاظ المناسبة لتشكيل السجعات المختلفة.

ونظرا لما سبق نجد ابن خلدون في رسائله إلى لسان الدين يبتعد عن السجع ويجري كلامه على الأسوب المرسل في بعض المواضع من الرسالة، يقول: «**وأما أخبار هذا القطر فلا زيادة**

[1] تاريخ ابن خلدون (ابن خلدون)، ج7، ص300، 301.

[2] التعريف بابن خلدون (ابن خلدون)، ص72.

على ما علمتم، من استقرار السلطان أبي إسحاق ابن السلطان أبي يحي بتونس مستبدا بأمره بالحضرة بعد مهلك شيخ الموحدين أبي مُحَمَّد بن تافراكين القائم بأمره، رحمة الله عليه، مضايقا في جبابة الوطن، وأحكامه بالعرب المستظهرين بدعوته، مصانعا لهم بوفرة على أمان الرعايا والسابلة».[1] ففي هذا النص لا يتقيد الكاتب بالوزن والتقفية في نهاية فواصله، ويجري كلامه عفويا من دون تكلف أو تصنع للألفاظ.

ومن الأمثلة الدالة على ذلك أيضا، نورد نصا من رسالة أخرى كتبها إلى لسان الدين: **«وأقرر ما أنتم أعلم بصحيح عقدي فيه من حبي لكم، ومعرفتي بمقداركم، وذهابي إلى أبعد الغايات في تعظيمكم، والثناء عليكم، والإشادة في الآفاق بمناقبكم، ديدنا معروفا، وسجية راسخة، يعلم الله وكفى به شهيدا، وبهذا كما في علمكم قسما ما اختلف لي في أول وآخر، ولا شاهد ولا غائب، وأنتم أعلم بما في نفسي، وأكبر شهادة في خفايا ضميري، ولو كنت ذاك، فقد سلف في حقوقكم، وجميل أخذكم».**[2]

إن الملاحظ على هذا النص هو سهولة الألفاظ وسلاسة الأسلوب، الخالي من المحسنات البديعية التي تحرر منها الكاتب وأرسل الكلام في غرضه دون أن يتقيد بوزن أو قافية، فجاءت فكرته واضحة لا يشوبها غموض، وما ورد من سجع فلم يكن مقصودا فلم يكلف الكاتب نفسه في استحضار هذه الألفاظ بل جاءت دون قصد. لكن ابن خلدون نفسه الذي يرى في الصنعة اللفظية عيبا قد أجرى كلامه في رسائله على السجع، هذا ما يؤكد لنا أن الأسلوب المسجوع هو الغالب على أساليب كتّاب هذا العصر.

2.3 الأسلوب المسجوع:

من المعلوم أن العرب عرفوا فن السجع منذ العصر الجاهلي، وكان حلية لديهم تزيّن سجع الكهّان ووصايا الحكماء وخطب الخطباء، وغيرها من فنون الكلام التي كانت سائدة يومئذ، وتطور عبر عصور مختلفة حتى صار أسلوبا يعتمده أغلب الكتّاب. وهو ضرب من ضروب

[1] المصدر السابق، ص134.

[2] المصدر نفسه، ص 151.

المحسنات البديعية اللفظية يعرف عند البلاغيين على أنه « تواطؤ الفاصلتين في النثر على حرف واحد»[1]، ومن أنواعه بحسب الألفاظ المطرف والمتوازن والمرصع.

وقسّم ابن الأثير السجع إلى ضربين سجع قصير تكون فيه الفواصل المسجوعة مؤلفة من ألفاظ قليلة وأفضله ما كان مؤلفا من لفظتين، وهو الأحسن لأن الفواصل تكون أقرب إلى السمع، وسجع طويل وهو ما كان مؤلفا من إحدى عشرة لفظة فأكثر.[2] ويضع له تقسيما آخر بحسب طول الفصل التي يتكون منه الكلام المسجوع إلى ثلاثة أقسام[3]: الأول أن يكون الفصلان متساويان بحيث لا يزيد أحدهما عن الآخر، والثاني أن يكون الفصل الثاني أطول من الأول بشرط ألا يزيد عنه بألفاظ كثيرة، وأما الثالث أن يكون الفصل الثاني أقصر من الأول.

وإذا كان الوزن والقافية هما أهم مصادر الإيقاع الصوتي الخارجي في الشعر، فإن النثر الفني يمكن أن يتحلى بأنواع الإيقاع وأعذب الأنغام الموسيقية اعتمادا على ألوان البديع وبخاصة السجع الذي تعددت أفانينه في العصر الزياني، وجاءت بضروب مختلفة على النحو الآتي:

1.2.2. السجع المطرف:

وهو ما اختلفت فيه الفاصلتان أو الفواصل وزنا واتفقت رويا.[4] وحين تصفحنا للرسائل المتنوعة التي بين أيدينا لاحظنا أن الكتّاب لم يبنوا رسائلهم على السجع المطرف، بل نادرا ما نجده مبثوثا بين ثنايا رسائلهم، أما فيما يخص الرسائل السياسية فنجده في رسائل البيعة مثل قول بن خطاب:« ...**فأخرجنا من الظلمات إلى النور، وجاء بالذكر الحكيم جلاء للعمى وشفاء لما في الصدور، وأطلع شهب هديه المنيرة، وأخمد نار الشرك المستطيرة، ورقأت الدماء، وبرأت الأدواء**». فالألفاظ التي انتهت بها الفواصل قد اتفقت في حرف الروي كالراء والهمزة واختلفت في الوزن، وهذا ما يعرف عند علماء البلاغة بالسجع المطرف، ومادام أن للسجع دلالة صوتية فإن

[1] الإيضاح في علوم البلاغة، (القزويني)، ص 296.
[2] ينظر: المثل السائر ، (ابن الأثير)، ج1، ص257.
[3] ينظر: المصدر نفسه، ج1، ص255- 257.
[4] الإيضاح في علوم البلاغة، ص 296.

الكاتب جاء بألفاظ تشترك في الوزن مثل: (جلاء، شفاء) و(أطلع، أخمد)، و(رقأت، برأت)، وهذه محاولة منه لتحقيق الترددات الصوتية التي تحدثها هذه الألفاظ الموزونة.

ونظير هذا الضرب من السجع نجده في رسالة تأكيد الولاء: «**وإلى هذا، وصل الله تأييدكم فإن العبد وجّه مخاطبته هذه إلى الباب الكريم – أيّده الله – لرسم خدمته مقيما، وبشعار العبودية معلما وكفى به وسما وسيما، وما أولى العبد أن يقيم خدمة غدي بها وليدا، ومهدت له كنف الرعاية تمهيدا، ودرّجته إلى الارتقاء والصعود، وجرى حبها في قلبه جرى الماء في العود**».[1] فالألفاظ (وليدا /تمهيدا /الصعود /العود) قد اتفقت في روي واحد هو الدال لكنها اختلفت في الوزن، والكاتب جعل هذا النوع من السجع على فاصلتين فقط ولم يبن جل رسالته عليه بل نجده ينوع في فواصله باستخدام أنواع أخرى من السجع.

ومن الأمثلة على السجع المطرف في الرسائل الإخوانية نورد نصا من رسالة ابن خطاب إلى أبي أمية الدلائي :«**وخاطب الآن جلالكم متطلعا من أحوالكم الكريمة ما يجل مني موقعه، وينظم شتات مناي المتفرقة ويجمعه، فإن كل ما يكيف الله لكم من جميل الصنائع، ويمهد لكم من الرتب الرفيعة في كنف اعتنائه الواسع، فصدري به منشرح مبتهج، ولساني بشكر الله سبحانه عليه لهج، وكيف لا وحياتكم للفضل ملاك، وحظوتكم لجميع أوليائكم فيها اشتراك**».[2] فمن الملاحظ أن الفواصل (الصنائع، الواسع، مبتهج، لهج، ملاك، اشتراك) قد اتفقت في حرف العين والجيم والكاف على الترتيب، واختلف في الوزن.

ولسان الدين بن الخطيب مثل كثير من الكتّاب البلغاء في عصره الذين التزموا السجع في رسائله، حتى غدت خاصية من خصائص أسلوبه الفني « حتى عرف به فما أن يذكر لسان الدين الأديب، وإلا ويقترن اسمه به، فكأنهما صنوان لا يفترقان»[3]، فهو يقول في إحدى رسائله يجيب ابن مرزوق: «**وصلتني رقعتك التي أبدعت، وبالحق من مولى الخليفة صدعت، وألفتني وقد**

[1] المغرب والأندلس في القرن السابع (أحمد عزاوي)، ص141.

[2] Edición y estudio del Fasl al jitab, p236.

[3] النثر الفني عند لسان الدين بن الخطيب(عبد الحليم حسن الهروط)، دار جرير للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2006م/ 1426هـ ، ص 181.

سطت بي الأوجال، حتى كادت تتلف الرحال، والحاجة إلى الغداء قد شمرت كشح البطين، وثانية العجماوين قد توقع فوات وقتها وإن كانت صلاتها صلاة الطين، والفكر قد غاض معينه، وضعف وعلى الله جزاء المولى الذي يعينه، فغزتني بكتيبة بيان أسدها هصور، وعلمها منصور».[1] لقد بنى هذا النص على السجع المطرف فالكلمات في نهاية الفواصل قد اتفقت في حرف الروي المتنوع، واختلفت في الوزن، ومما يلاحظ على أسلوب ابن الخطيب ميله إلى الاعتدال بين فصول سجعاته، مع قصر العبارات، وجودة سبكها.

2.2.2. السجع المتوازي:

وهو ما اتفقت فيه اللفظة الأخيرة من الفقرة مع نظيرتها في الوزن والروي.[2] وهذا النوع من السجع نجده واضحا كل الوضوح في رسائل ابن خطاب السياسية، ففي رسالته التي يدور غرضها حول استرجاع قسنطينة يقول: «**وذكر أيضا ما صدر عن جماعة الموحدين من العمل المشكور، والصبر والمأثور، ولا ينكر لا مولاي إعمال السيوف، والثبات في مواطن الهول المخوف، فإنهم أبناء الحروب، المفرجون للكروب، نار حربهم متوهجة، ومضائقهم عن الظفر أبدا متفرجة، وصوارمهم على قلوب الأعداء في زوايا الصدور متولجة، نفوسهم عزيزة، والإباء فيهم غريزة، وحوزة دعوة التوحيد فيهم حريزة**».[3]

وهنا يتضح لنا أن الفواصل قد اتفقت في الوزن والروي بين كلمتي (مشكور ومأثور)، فقد جاءتا على وزن مفعول وتنتهيان بحرف واحد هو الراء، وكذلك بين الكلمات (عزيزة وغريزة وحريزة) فهي على وزن فعيلة واتفقت في حرف الروي وهو الزاي، مما يزيد من إيقاع النص ونغمه الموسيقي هو اشتراك هذه الألفاظ الثلاثة في السجع والجناس الناقص.

لكن ما يجب الإشارة إليه فيما يتعلق بالرسائل الديوانية فإنها تقوم على التنويع في ضروب السجع فأغلب الرسائل التي بين أيدينا قد جمعت بين السجع المطرف والمتوازي وبدرجة أقل

---

[1] نفح الطيب (أحمد المقري)، ج6، ص66.

[2] علوم البلاغة-البيان والبديع والمعاني، (محمد أحمد قاسم، محي الدين ديب)، المؤسسة الحديثة للكتاب، طرابلس، لبنان، ط1، 2003م، ص108.

[3] المغرب والأندلس في القرن السابع(أحمد عزاوي)، ص122.

المرصع، وكمثال على ذلك نورد نصا من رسالة السلطان أبي عبد الله مُحَمَّد السابع إلى الملكة (دونيا إيزابيلا):«**الحضرة التي جل في الأقدار قدرها، واشتهر في الفضائل والمفاخر فضلها وفخرها، حضرة السلطانة الجليلة المرفعة الأصيلة الفاضلة الكاملة الشهيرة الخطيرة... ونحن نحمد الله الذي لا شيء كمثله، ونشكره على جميل إحسانه وفضله، ونسأله اليمن والتوفيق في شأننا كله، وعندنا لجنابكم المرفع كرامة نستوفيها، ومبرة لا شك فيها، وعلمنا بمجدكم الشهير، وقدركم الخطير... وقد وصلنا كتابكم المعظم، وخطابكم المكرم... وعرفنا منه جميع ما ذكرتم، واستوفينا ما شرحتم، فقابلنا تعريفكم بالشكر الجزيل، وأثنينا على مقامكم الثناء الجميل**»[1].

هذا النص بني على السجع المطرف والمتوازي، فالأول يتجلى بين كلمتي (نستوفيها / فيها) وبين (فضله / كله) والآخر بين كلمتي (قدرها / فخرها) وبين (الشهير / الخطير) وبين (الجزيل والجميل). فنلاحظ شيوع استخدام السجع المتوازي بكثرة في الرسائل السياسية وبدرجة أقل السجع المطرف يليه السجع المرصع، وعلى هذا النحو بنيت أغلب رسائل هذا العصر.

وحفلت الرسائل الإخوانية هي الأخرى بالسجع المتوازي، وكمثال على ذلك نورد نصا من رسالة ابن مرزوق للسان الدين بن الخطيب التي لا نملك غيرها لنقف على خصائص أسلوبه، يقول: «**فالحمد لله يا سيدي واخي على نعمته التي لا تحصى، حمدا يؤم به جميعنا المقصد الأسنى فيبلغ الأمد الأقصى، فطالما كان معظم سيدي لأسى في خبال، وللأسف بين اشتغال بال، واشتعال بلبال، ولقدومكم على هذا المقام المولوي في ارتقاب، ولمواعيدكم بذلك في تحقق وقوعه من غير شك ولا ارتياب، فها أنت تجتلي من هذا المقام العلي بتشيعك وجوه المسرات صباحا، وتتلقى أحاديث مكارمه ومواهبه مسندة صحاحا**».[2] مزج ابن مرزوق بين السجع المطرف والسجع المتوازي، فالضرب الأول تجلى في الألفاظ خبال وبال وبلبال التي اتفقت في روي واحد هو اللام واختلفت في الوزن، والثاني في الألفاظ تحصى وأقصى، ارتياب وارتقاب، صباحا وصحاحا.

[1] تاريخ الجزائر العام، (عبد الرحمن الجيلالي)، ج2، ص225.

[2] نفح الطيب (أحمد المقري)، ج6، ص 64، 65.

ومن الكتّاب الذين استعانوا بالسجع لبناء رسائلهم أبو القاسم البرجي في رسالة الشفاعة حيث يقول:«**وقد أعلقته من ذمام علائكم بالحبل المتين، وأنزلته من حماكم بربوة ذات قرار ومعين، فإن أعرتموه من لحظكم الجميل طرف اهتبال ، وأبقلتموه من اعتنائكم الجزيل وجه إقبال ، فقد عاد دهره بعد النفار مواتيا، ونزل على أهل المهلب شاتيا، ومجدكم كفيل بتبليغ أمله، وتوسيع جذله**».[1] يقوم هذا النص على التنويع في حروف الفواصل وعلى الاختلاف في وزنها مثل (اهتبال / إقبال، مواتيا / شاتيا) وهذا من السجع المطرف، لكن لا يعتمده في الرسالة كلها بل ينوع في استخدام الأنواع الأخرى.

3.2.2. السجع المرصع:

هو الذي تقابل في كل لفظة من فقرة النثر بلفظة على وزنها ورويها.[2] حيث تكون الكلمات المتقابلة بين الفاصلتين المسجوعتين متفقة في الوزن وحرف الروي، وهذا الضرب «إذا سلم من الاستكراه فهو أحسن وجوه السجع».[3] لما له من أثر كبير في تحقيق النغم الموسيقي الذي يتكرر بين الفواصل ويتعدد في تركيب الجمل ويتنوع بين الحروف.

وهذا النوع من السجع الأقل استخداما في الرسائل السياسية إذا ما قورن بالنوعين الآخرين، ومن نماذجه ما ورد في رسالة ابن خطاب عن يغمراسن بن زيان في غرض تأكيد الولاء: «**فمن مضى على تلك الطريقة، فقد نظر بعين الحقيقة، وترك المجاز للحقيقة، واستقبل غرة الفلاح والنجاح، واستغنى عن زحل بطلعة براح، ومن قصد البحر الزاخر استقل السواقي، وأي حاجة في العجائب لمن وجد المناقي، لا جرم أن مملكتها البهية أسمى الممالك علما، وأهماها كرما، وأعلاها همما، وأوفاها ذمما، وأسدها رأيا، وأجدها سعيا...وأسير إحسانا وأحسن سيرا، وأحصن نظرا، وأجمل أثرا، فمن اعتلق بسببها أجاد اختيارا، وأتيح من هبات**

[1] المصدر السابق، ج6، ص 68.

[2] علوم البلاغة، (مُحَمَّد أحمد قاسم، محي الدين ديب)، ص107

[3] الصناعتين، (أبو هلال العسكري)، ص263.

خدمتها سعادته اضطرارا، أبقاها الله للدنيا جمالا، وللدين موئلا ومآلا، وللآمال جاها ومالا، ولا زالت يد التأييد لرايتها رافعة، وأعناق المارقين عن أمرها لسيفها خاضعة».[1]

بنى الكاتب الفصول المسجوعة لهذا النص على ضربين، الأول أن تكون الجملة الثانية أطول من الأولى، أما الضرب الآخر وهو الذي يقوم عل نظام الاعتدال حيث يتساوى فيه الفصلان، فكل فصل يتكوّن من لفظتين بحيث لا يزيد أحدهما عن الآخر في مثل: أهماها كرما، وأعلاها همما، وأوفاها ذمما، وأسدها رأيا، وأجدها سعيا، فقد تساوت الفصول وكأنها أفرغت في قالب واحد ولم يتعدّ كل فصل لفظتين، وأخضع بقية الفصول إلى نظام الاعتدال الذي تكون فيه الجملة الثانية أطول من الأولى من حيث عدد الكلمات، ونجد أنها لا تزيد عن الأخرى سوى بلفظة واحدة في مثل: استقل غرة الفلاح والنجاح، واستغنى عن زحل بطلعة براح، فالفصل الأول يتألف من أربع لفظات، والآخر من خمس لفظات.

ونجده يستخدم هذا الضرب في رسالة البيعة التي كتبها عن يغمراسن بن زيان إلى السلطان الحفصي، لكنه لا يلتزم به في الرسالة كلها بل يجعله مبثوثا بين ثنايا خطابه: «**فعادت إلى هيئتها الصحية، ونادت ببنيتها المرضية، فأسمعت الداني والقاصي، والطائع والعاصي، كل أجاب دعوتها السامية المرقى، وأعلق يده منها بالعروة الوثقى، فألقت البلاد إليه أفلاذها، واتخذت بابه العلي ملاذها**».[2] فلو أخذنا الفصلين الأوليين من الفصول المسجوعة من هذا النص لوجدنا أن هناك ثلاثة ألفاظ تتفق في الوزن وفي حرف الروي، وهي، (عادت= نادت)، و(هيئتها= بنيتها)، و(الصحية= المرضية).

ومن نماذج هذا النوع في الرسائل الإخوانية ما ورد في رسالة ابن خطاب إلى القاضي أبي أمية الدلائي، حيث نوع في حروف الفواصل، وبنى نصه على السجع القصير المتساوي الذي يحدث نغما موسيقيا وترددا إيقاعيا متنوعا: «**فاتحت سيدي أبقاه الله مطلع سعادة، ومجمع سيادة، ومنبع كل حسنى وزيادة، والفوائد المحصلة من جدواه، والفرائد المفصلة من فتواه، إن**

[1] المغرب والأندلس في القرن السابع (أحمد عزاوي)، ص 136- 137.

[2] المصدر نفسه، ص149.

فاتحته فأحق من فاتح، وان سامحني فهو أولى من سامح، فإنما أهديت الزيف إلى يد نقاد، وعارضت بظلام سني كوكب وقاد، والسعيد من أحظاه، ولحظه بعين رضاه».[1]

ونجده أيضا في غرض التعزية: «**وقد بلغني ما جرى به القدر من وفاة أخيكم (فلان)، عين الأعيان، وزين الإخوان، جدد الله عليه رحمته ورضوانه، لقد صدع مصابه كبدي، ونغّص عرى صبري وجلدي، وأطال مدى حزني وكمدي، وفقدت به عمدتي وعددي، فنموي نافر، ودمعي هامر**».[2] حيث قابل في كل فقرة بين لفظتين تشتركان في الوزن والروي مثل: (عين، زين/ الأعيان، الإخوان/ عرى، مدى/ صبري، حزني، نومي، دمعي/ نافر، هامر).

ونجد الترصيع في بعض الرسائل الإخوانية لا يتوقف عند سجعتين أو ثلاثة، بل يطول حتى يشمل الرسالة كلها، وهذا لا يتأتى إلا لمن له خبرة ومقدرة على الكتابة الإنشائية، ونورد في هذا الجانب نصا من رسالة لابن خطاب بناها على الترصيع، ومنها قوله: «**حذفت الجواب للدلالة غاية، ووصفت الكتاب بالجلالة، أصرفت الخطاب إلى الرسالة، فهصرت ألفاف السطور، وكسرت الكاف على المشهور، وما التأنيث لاسم الشمس عيبا، ولا التذكير فخرا للهلال، ومن أين يتعلق بمثل جماله العيب، أو يتطرق إلى فضل جلاله الريب، وهي الثريا ودان الهرم والشيب، أشهد أنها لفريدة العصر، شديدة الأسر، فرعت لناي، ونجعت روعة الأخبار، ومتعة هذه الأحبار حديقة سقيت العين أنبقه، ونسيت الشين، تكلف الطائر الوقوع، وتعرف الناظر الولوع، أتيت الحكمة وفصل الخطاب، وافيت الرحمة، ووصل الصحاب، ولقنت صيد شوارد البيان، ولقيت قيد أوابد الإحسان، ثم سويت بإتقان الصانع ألوكه، وأهديت إلى جنان السامع مسبوكه، وقيل لها احكي فحكت، وابكي فبكت**».[3]

إن الترصيع جلي في هذا النص فالكاتب لا يكتفي بمقابلة الفاصلتين فقط، بل يتعداه إلى ألفاظ أخرى مثل: الجواب والكتاب، هصرت وكسرت، التأنيث والتذكير، يتعلق ويتطرق، فريدة

[1] Edición y estudio del Fasl al jitab, p234.
[2] Ibid, p307.
[3] Ibid, p213.

وشديدة، واتفقت هي الأخرى في الوزن والروي حتى تحسب أنها أبيات شعرية في غرض الوصف، ونوّع في فواصله المسجوعة التي أحدثت إيقاعا موسيقا يخدم الغرض دون أن يؤثر ذلك في المعنى.

وله أيضا رسالة أخرى بناها على الأسلوب نفسه يردّ فيها عن عتاب له صدر من لدن الفقيه الخطيب أبو بكر بن القلان، ومما جاء فيها: «**إيه أيتها العقيلة المزورة، والخميلة المفترة، نفثت بخفيّ أسرارك، وحدثت عن ذكيّ أزهارك، فوهبت جسيما جليلا، وهببت نسيما بليلا، ثم انقلبت إعصارا والتهبت نارا، فتلونت كالحرباء، وتكونت بين الاستكانة والإباء... فنحن نبتقي من منّتك مزيدا، ونشتكي من سنتك تشديدا، ونلوذ بجنابك، ونعوذ بعذابك، ونرتعش لتقلبك ونفارك، وننتعش بتقربك وجوارك**».[1] وإضافة إلى التوافق بين الفقرتين في الوزن فقد بنى ابن خطاب هذا السجع على نظام التساوي والاعتدال بين الفصلين، وقصر العبارات وتنوع السجعات التي يتولد عنها من إيقاع داخلي، وتناغم صوتي بين الفواصل لإضفاء جو موسيقي عذب.

ومن الرسائل التي حفلت بهذا النوع من السجع رسالة ابن خميس التلمساني في سياق هجائه لفقهاء فاس: «**ضيعتم النص والشرائع، وأظهرتم في بدعكم العجائب والبدائع، نفقتم النفاق، وأقمتم سوق الفسوق على ساق، استصغرتم الكبائر، وأبحتم الصغائر، أين غنيكم الشاكر، يتفقد فقيركم الصابر، أين عالمكم الماهر، يرشد متعلمكم الحائر. مات العلم بموت العلماء، وحكم الجهل بقطع دابر الحكماء، جرد لنا شريعتك يا أفضل الشارعين، أتم فيها موعظتك يا أفصح التابعين**».[2] فالكاتب يميل إلى استخدام السجع القصير الذي يكون أقرب إلى سمع المتلقي، وإلى المساواة والمعادلة بين عدد الكلمات، وإلى الموافقة بين الجمل المسجوعة مستخدما لفظتين تشتركان في الوزن على غرار نهاية كل فاصلة، مثل: (نفقتم، أقمتم/ العلم، الجهل/ جرّد، أتم/ شريعتك، موعظتك/ أفضل، أفصح)، فهذه الألفاظ ترفع من وتيرة الإيقاع وتجعل الفقرات متوافقة من حيث النغم الموسيقي.

---

[1] Ibid, p209 , 210.

[2] الإحاطة في أخبار غرناطة (ابن الخطيب)، ج2، ص 562.

نخلص إلى القول إن الأسلوب المسجوع كان الغالب على أساليب كتّاب هذا العصر الذي ازدهرت فيه الصنعة اللفظية ازدهارا كبيرا حيث بنوا رسائل السياسية والإخوانية على هذا النوع الذي تعددت ضروبه، بحسب الألفاظ المسجوعة وبالنظر إلى طول أو قصر الفصول، وجعلوه سمة بارزة في أساليبهم التعبيرية لما له من أثر على اللفظ والمعنى.

3.3 الجناس:

الجناس من حلي البديع التي استعان به الكتّاب في العصر الزياني على تحقيق التوافق النغمي والتعادل الموسيقي بين الجمل والعبارات في فصول الرسائل السياسية والإخوانية، وهو « أن يورد المتكلم كلمتين تجانس كل واحدة منهما صاحبتها في تأليف حروفها».[1] فالكلمتان المتجانستان تشتركان في الشكل وتختلفان في المعنى، فابن الأثير رأى أن يكون اللفظ واحدا والمعنى مختلفا وذهب إلى القول إن سبب تسميته بالجناس لأن هذه الألفاظ تكون حروفها من جنس واحد.[2]

ولقد فصل عبد القاهر الجرجاني القول في ميزته وتأثيره في الكلام، ونوّه إلى أنه لا يحسن إيراده إلا إذا اقتضاه المعنى، وتطلّب وروده: « وعلى الجملة فإنك لا تجد تجنيسا مقبولا ...حتى يكون المعنى هو الذي طلبه واستدعاه وساق نحوه، وحتى تجده لا تبتغي به بدلا، ولا تجد عنه حولا، ومن ههنا كان أحلى تجنيس تسمعه وأعلاه، وأحقه بالحسن وأولاه».[3] بحيث يؤدي الجناس وظيفة تنبيه المستمع من خلال إحداث إيقاع موسيقي يكون موافقا ومتمما للمعنى المقابل للفظ.

وكان الجناس من الألوان الزخرفية التي استعملها الكتّاب والأدباء في العصر الزياني لتزويق كلامهم وتنميقه، ومما يلاحظ أن عنايتهم بالجناس التام* كانت أقل من الجناس الناقص في كلا النوعين من الرسائل، فأغلبها قد توشحت بالنوع الثاني، وممن اهتموا به ابن خطاب في رسائله الديوانية، ففي رسالته التي كتبها إلى السلطان الحفصي في شأن مُحَمَّد بن عبد القوي في غرض طلب

---

[1] الصناعتين (أبو هلال العسكري)، ص321.

[2] المثل السائر (ابن الأثير)، ج1 ، ص262.

[3] أسرار البلاغة، (عبد القاهر الجرجاني)، تعليق: محمود مُحَمَّد شاكر، دار المدني، جدة، دت، ص11.

* الجناس التام: هو اتفاق اللفظتين في أنواع الحروف، وأعدادها، وهيئاتها، وترتيبها. الإيضاح في علوم البلاغة، ص 288.

الصفح، يقول: « **وهذه زناتة والعرب لما تيقنوا أن في عبيدكم محسوبون، وإلى خذمتكم منسوبون، ورأوا جاهكم قد امتد إلينا ظله، واعتناءكم قد ملأ أيدينا فضله وطوله، وانسكب في أرجائنا طله ووبله، أقبلوا إلينا، وتطارحوا علينا**».[1] فقد جانس جناسا لاحقا[2] بين كلمتي محسوبون ومنسوبون وبين كلمتي ظله وطله بمعنى المطر وبين إلينا وعلينا.

ومن أنواع الجناس الناقص الأخرى التي شاعت في رسائله السياسية ما يعرف بالجناس المحرف[3]:« **وما أحقّ تسمية كل حبيب ولبيب، فحيث يسر للتوفيق، وأخرج إلى السعة من الضيق...اللهم أمدّ حضرة مولانا من نصرك العزيز بأقوى مُعين، وسوّغهما من موارد الظفر كل صفو مَعين**».[4] ويظهر هذا النوع بين كلمتي مُعين وهي من الإعانة ومَعين بمعنى الماء الظاهر، فقد وقع الاختلاف في حركة حرف الميم ففي الأول جاءت بالضمة وفي الأخرى بالفتحة، وهذا التجانس يحمل من الانسجام، وجمال التنغيم، ما لا يخفى وقعه وتأثيره في النفس والمعنى.

ونجد أيضا جناس القلب وهو اختلاف الكلمتين في ترتيب الحروف، ومن الأمثلة على ذلك ما ورد في رسالة المهاداة إلى السلطان النصري: «**ونثني على خصائص مجده الباسق الفرع والأصل السابق في مضمار الفخار استيلاء على الخصل بأفعاله الكريمة وأقواله**».[5] فقد جانس بين كلمتي الباسق والسابق وذلك بتغيير ترتيب الحروف، فأضفى بذلك على الجملة إيقاعا وتناغما يلمسه المتلقي حين قراءة النص أو سماعه.

واستخدام ابن خطاب للجناس في رسائله الديوانية على اختلاف أغراضها ومضامينها جاء متوافقا مع نهاية الفواصل، حيث كان يأتي به غالبا لغرض إتمام السجعات، ولجلب الصوت الموسيقي المناسب لها.

---

[1] المغرب والأندلس في القرن السابع (أحمد عزاوي)، ص115.

[2] الجناس اللاحق هو اختلاف الكلمتين في حرفين غير متقاربين، الإيضاح في علوم البلاغة (القزويني)، ص292.

[3] الجناس المحرف: هو اختلاف الكلمتين في هيأة الحروف، الإيضاح في علوم البلاغة، ص290.

[4] المغرب والأندلس في القرن السابع، ص139- 140.

[5] المصدر نفسه، ص165- 166.

ولم تخل رسائله الإخوانية من التجنيس ففي رسالة التعزية في وفاة يغمراسن بن زيان، يقول: «**وقد كان من وفاة مولانا السلطان أبي يحي قدس الله ثراه، وجعل الجنة مثواه، ما جرى به القدر، وأشاب لأجله صفو الحياة الكدر، وملأ القلوب حزنا، وصير سبيل العزاء وعرا حزنا**»[1]. فقد جانس بين كلمتي الكدر والقدر، وبين كلمتي حزنا وحزنا فالأولى نقيض الفرح والثانية بمعنى الشديد وهو من الجناس التام المماثل لاشتراكهما في النوع فكلتا الكلمتين عبارة عن اسم.

ومن النصوص الحافلة بالجناس الناقص وبأنواعه المختلفة ما ورد في رسالة ابن خطاب إلى الحكيم أبي الرضى: «**كتبته، كتب الله لكم عزة عريضة، وسعادة لا تزال فريضة، من تلمسان والشوق إليكم لا يهدأ، والإجلال لإخائكم صدر في الأعمال التي لا تنسى وتنسأ... وقد وصل الله عزكم كتابكم الكريم، والنفس لقصص أنبائه متطلعة، ولقصص إبطائه متجرعة، فجلى من الوحشة ظلما، ونشر علي دررا نفسية تسمى كلما بخعت الضراء، ولبست السراء، فلله تلك الصحيفة الحصيفة، والحميلة الجميلة، نور ساطع، ونوْرٌ يانع**».[2] فقد جاء بالجناس اللاحق بين كلمتي فريضة وعريضة، وبين تنسى وتنسأ، وبالجناس المضارع* بين كلمتي الضراء والسراء، وبجناس القلب بين الصحيفة والحصيفة، وبالجناس المحرف بين نور ونَوْرٌ التي هي بمعنى الزهر، وجاء بالجناس المضارع بين كلمتي الضراء والسراء لتقارب حرفي الضاد والسين في المخرج. وهذا التنويع في الجناس له أثر واضح في إضفاء النغم الموسيقي المناسب الذي يتوافق مع غرض الشوق مما يجذب المستمع ويؤثر في نفسه.

ويعدّ لسان الدين بن الخطيب من الكتّاب الذين شاع الجناس في نثرهم بشكل كبير في رسائله الإخوانية بخاصة، «فلا تكاد تخلو جملة أو فقرة في تراكيبه من ضرب من ضروب الجناس المعروفة، حتى أصبح لذلك الأمر سلطان عليه، فكان لازمة من لوازم نثره»[3]، ويكثر في رسائله استخدام الجناس الناقص لاسيما الجناس اللاحق، ومن نماذج ذلك ما ورد في رسالته التي يتشوق

---

[1] Edición y estudio del Fasl al jitab, p305.

[2] Ibid, p 226.

* الجناس المضارع هو اختلاف الكلمتين في حرفين متقاربين. الإيضاح في علوم البلاغة، ص291.

[3] النثر الفني عند لسان الدين بن الخطيب (عبد الحليم حسن الهروط) ، ص 194.

فيها إلى صديقه ابن خلدون، يقول: «**وعذرا فإني لم اجترئ على خطابك بالفقر الفقيرة، وأدللت لدى حجراتك برفع العقيرة... وإنما هو اتفاق جرته نفثة المصدور وهناء الجرب المجدور، وان تعلل به مخارق، فثم قياس فارق، أو لحن غنى به بعد البعد مخارق، والذي هيأ هذا القدر وسببه، وسهّل المكروه إلي منه وحببه، ما اقتضاه الصنو يحيى هد الله حياته، وحرس من الحوادث ذاته، من خطاب ارتشف به لهذه القريحة بلالتها، بعد أن رضي علالتها، ورشح إلى الصهر الحضرمي سلالتها، فلم يسع إلا إسعافه، بما أعافه، فأمليت مجيبا، ما لا يعد في يوم الرهان نجيبا، وأسمعته وجيبا لما ساجلت بهذه الترهات سحرا عجيبا، حتى إذا ألف القلم العريان سبحه، وجمح برذون الغزاة فلم أطق كبحه، لم أفق من غمرة غلوه وموقف متلوه، إلا وقد تحيز إلى فئتك، معتزا بل معترا، واستقبلها ضاحكا مفترا**».[1]

إذا ما أمعنا النظر في هذا النص نجد الجناس يتوافق مع نهاية الفقرات لبناء السجعات، والغالب هنا هو الجناس اللاحق وبدرجة أقل شبيهه المسمى بالجناس المضارع، فالنوع الأول ينطبق على الكلمات الآتية: (الفقيرة والعقيرة)، و (حببه وسببه)، و(بلالتها وعلالتها وسلالتها)، و(مجيبا ونجيبا وجيبا وعجيبا)، (أفق وأطق)، أما النوع الآخر فينطبق على الكلمات: (كبحه وسبحه)، (معتزا معترا)، و(المصدور والمجدور)، واستعان بنوع آخر هو المذيل بين كلمتي (إسعافه وأعافه).

ومن فحول الأدباء المتقدمين في هذا العصر الذين اعتنوا بالجناس ابن خميس التلمساني في رسالته الفقهية، فالقارئ لهذه الرسالة يجد أن الكاتب قد نوّع من هذا المحسن البديعي لاسيما من الجناس المضارع الذي طغى على سائر الأنواع الأخرى، ففي سياق افتخاره بقصيدته يقول: « **مقصورة الأسرة والحجال، بل أسيرة الأساوير والأحجال، على أنها حليفة آلام وأوصاب، وأليفة أشجان وأطراب، صبابة أغراب في صيابة أعراب... فلو ساجلت بنبعها أبا كرب، وأرته ضراعة خدها الترب، لساجلت به أخضر الجلدة من بيت العرب، ماجدا يملؤ الدلو إلى عقد الكرب... ولاذت بركنها اليمني فأجزل محلّها، ولو استسقت بأوديتها، لأذهبت محلها**».[2]

[1] التعريف بابن خلدون (ابن خلدون)، ص 121-122.

[2] الإحاطة في أخبار غرناطة (ابن الخطيب)، ج2، ص557، 558.

ففي هذا النص جانس ابن خميس بين الألفاظ الحجال بمعنى الستار والأحجال وهي الخلاخيل جناسا مطرفا، حليفة و أليفة جناسا مضارعا، وبين صبابة وهي بمعنى بقية الماء في الإناء وصيابة بمعنى خيار القوم جناسا لاحقا، وبين أطراب و أعراب أغراب جناسا لاحقا ومضارعا، وبين أبي كرب وهو ملك من ملوك حمير اليمنية، وكرب بمعنى الدلو الممتلئ جناسا تماما ، وبين مَحَلُّها بمعنى المكان ومَحْلها بمعنى الجدب والقحط جناسا محرفا، فقد نوّع الكاتب في توظيف الجناس مما يزيد من تكثيف موسيقى النص، ويخلق نوعا من الانسجام بين موسيقى الألفاظ ومعانيها، ويجعلها أحسن وقعاً في السمع، وأكثر علوقا في الذهن.

ونجد أيضا من هؤلاء الذين برعوا في توظيف الجناس ابن مرزوق، لكن لا يمكننا الوقوف على خصائصه أسلوبه لأننا لا نملك له إلا رسالة واحدة في غرض الترحيب التي يقول فيها: «**فالحمد لله يا سيدي وأخي على نعمته التي لا تحصى، حمدا يؤمّ به جميعنا المقصد الأسنى فيبلغ الأمد الأقصى، فطالما كان معظم سيدي في للأسى في خبال، وللأسف بين اشتغال بال، واشتعال بلبال... فها أنت تجتلي في هذا المقام العلي بتشييعك وجوه المسرات صباحا، وتتلقى أحاديث مكارمه ومواهبه مسندة صحاحا**».[1] فقد اعتمد على الجناس الناقص لكن نوّع فيه فتارة يستخدم الجناس المضارع بين كلمتي الأسى والأسف وبين استغال واشتعال، وتارة يأتي بالجناس المذيل الذي يكون فيه الاختلاف بين الكلمتين في أكثر من حرف واحد[2]، مثل كلمتي بال وبلبال، والجناس اللاحق بين كلمتي صباحا وصحاحا، وهذا التنويع في الجناس في نص واحد يرفع من إيقاعه ويزيد موسيقاه مما يطرب النفس ويجذب المستمع.

إن النماذج التي جئنا بها كشفت لنا أن الجناس قد ارتبط ارتباطا وثيقا بالأسلوب المسجوع الذي طغى على الرسائل السياسية والإخوانية في العهد الزياني، وهذا يعود لطبيعة العصر الذي تميز بالصنعة اللفظية حيث مال أغلب الكتّاب إلى هذا الأسلوب ونوعوا فيه لما يؤديه من قيمة صوتية متمثلة في تجانس الألفاظ فيما بينها، وقيمة دلالية تسهم في تقرير المعنى وإتباثه في ذهن المتلقي، وذلك من خلال تحسين صورة الألفاظ حتى تبلغ غايتها في التأثير على النفس لإنشاء النغم الموسيقي الذي تحدثه.

[1] نفح الطيب (أحمد المقري)، ج6، ص 65.

[2] الإيضاح في علوم البلاغة (القزويني)، ص291.

4.3 الطباق:

الطباق من المحسنات المعنوية التي وظفها الكتّاب في بناء نصوصهم، وأجمع علماء البلاغة على أن الطباق هو الجمع بين المعنى وضده في الكلام، وهو نوعان طباق إيجاب إذا لم تختلف الكلمتان المتضادتان إيجابا وسلبا، وطباق سلب إذا تحقق التضاد بوجود اللفظ ومنفيه من الكلام.[1] وهو من الفنون البديعية التي تؤدي إلى إيضاح المعنى وتقريب الصورة، لذلك عني كتّاب الرسائل في هذا العصر كثيرا بالطباق إلى جانب حلي البديع والزخارف البلاغية الأخرى، لتجميل معانيهم وتحسينها، ولزيادة وضوحها فضلا عن تقويتها لشدة التأثير في السامع لائتلاف المعاني المتضادة حين اجتماعها في الكلام.

وشاع استخدام الطباق في رسائل جل كتّاب هذا العصر على اختلاف أنواعها ومضامينها، ومن هؤلاء ابن خطاب الذي كان يُكثر من الثنائيات المتضادة في بنية النص حسب ما يقتضيه المعنى، ويوافق الغرض وما يحتاجه من الإيقاع، ومن أمثلة ذلك ما ورد في رسالة البيعة: «**فبايعوه –أيّده الله– كافة على السمع والطاعة في العسر واليسر، والمنشط والمكره والحلو والمر**».[2] فقد طابق بين العسر واليسر، والمنشط والمكره، والحلو والمر، مطابقة الأسماء للأسماء.

ومن الطباق ما يقوم على المطابقة بين الأفعال في مثل قول ابن خطاب في رسالة البيعة: «**وكثر دعاة الفرق ودرس الطريق المهيع، فسلك الناس بنيات الطرق، ومضت الأعصار والأمور تستقيم وتعوج، والفتن تسكن وترتج**».[3] فقد أسهم هاذان الطباقان بين تستقيم وتعوج، وبين تسكن وترتج في إبراز المعنى، والتدليل على ما أصاب الأمة من تغير أحوالها واضطرابها زمن الفتن.

ومن أنواع طباق السلب التي يهدف الكاتب من ورائها إلى تأكيد أفكاره وتقوية معانيه، ما ورد في رسالة ابن خطاب عن يغمراسن بن زيان معرفا بأبناء بني توجين قوله:«...**وواقفون عند أمرهم ونهيهم، لا نأخذ إلا ما أخذوه ولا نترك إلا ما تركوه، ولا نقبل إلا ما قبلوه، ولا**

[1] ينظر: الصناعتين (أبو هلال العسكري)، ص307. حسن التوسل إلى صناعة الترسل (شهاب الدين الحلبي)، ص47.
[2] المغرب والأندلس في القرن السابع (أحمد عزاوي)، ص150.
[3] المصدر نفسه، ص133.

نستعمل إلا ما استعملوه».[1] فالإكثار من هذه الثنائيات المتضادة بين كلمتي لا نأخذ و أخذوه، وبين لا نترك و تركوه، وبين لا نقبل وقبلوه، وبين لا نستعمل واستعملوه، هو من باب التأكيد على ولاء أبناء بني توجين للسلطان الحفصي بعدما ارتدوا عن طاعته.

ومن نماذجه أيضا ما ورد في رسالته حول إنهاء التمرد على مدينة قسنطينة في سياق وصفه وافتخاره بجيش الأمير الحفصي: «**هجرتم الكرى، ووصلتم التأويب بالسرى**».[2] فقد طابق بين الفعلين وصلتم وهجرتم، وبين كلمتي التأويب والسرى، فالأولى بمعنى سير النهار أجمع، والأخرى بمعنى سير الليل عامته، وذلك للتأكيد على عزيمة الجيش وإصراره على الانتصار في المعركة.

ولم تخل الرسائل السياسية الموجهة إلى ملوك النصارى من هذا المحسن البديعي مثل رسالة السلطان أبي عبد الله السابع إلى إمبراطورة إسبانيا (دونيا إيزابيلا) في شأن صاحب الجزائر:« **بل في صحيح علمكم ما هو حالنا عليه من نكاية صاحب الجزائر وما هو يرومه من تشغيبنا في الباطن والظاهر، فعلنا ذلك طمعا منا في مهادنته، وحيلة لجلب محاسنته. لما أعيانا أمره واشتد تنكيره وضره، أظهرنا له ما كنا نخفيه من عداوته، وقابلناه بما يليق بفساد بيته، وخبث سريرته**».[3] فقد طابق كاتب الرسالة بين الباطن والظاهر، وبين أظهرنا ونخفيه، حتى يوضح للمخاطب فكرته المتمثلة في عداء صاحب الجزائر للزيانيين وتحديهم له بعد أن أضمروا في نفوسهم ذلك.

ويرد الطباق في عدد قليل من مواضيع الرسائل الإخوانية، ومن نماذجه قول ابن خميس في سياق سخريته من أبي البركات الذي كان سببا في محاكمته واتهامه بالزندقة: «**على رسلك ما هذا العجل، لا خطأ تتوقعه ولا خطل، أمكره أنت في هذه الكريهة أم بطل... على أن لا غالب اليوم لأني غالب، ولا طالب يدرك شأو هذا الطالب، فقه بلا تفقيه، وحذق في تحذلق**».[4] فقد جاءت هذه الثنائيات المتضادة متوافقة مع المعنى والغرض، فالكاتب حتى يؤكد لخصمه أنه قد

[1] المصدر السابق، ص114.

[2] Edición y estudio del Fasl al jitab, (Hassan El –Ghailani), p124.

[3] تاريخ الجزائر العام (عبد الرحمن الجيلالي) ج2، ص225.

[4] الإحاطة في أخبار غرناطة (ابن الخطيب)، ج2، ص560.

تعجل الحكم طابق بين رسلك والعجل، وليثبت علو كعبه طابق طباق السلب بين لا غالب وغالب وبين لا طالب وطالب، وحتى يسخر منه طابق بين كلمتي فقه ولا تفقيه، وحذق بمعنى الماهر وتحذلق بمعنى أنه يدّعي العلم والمهارة.

ومن المواضيع المتضمنة هذا اللون البديعي رسالة الشكر والثناء لابن خطاب التي وجهها إلى صديقه الفقيه الحكيم أبي الرضا حيث طابق بين الفعلين ظهر وبطن في مقام التأكيد على فضله: «**وأما أنتم يا أخي، فمقاصدكم كلها كريمة، ومواساتكم بمشاركتكم النافعة قديمة، وشكري لمقامكم الذي بهر، وفضلكم الذي تشابه ما ظهر منه، وما بطن ديمة**».[1]

ويتجلى الطباق في تعزية ابن خطاب إلى عثمان بن يغمراسن في وفاة والده: «**وإن كان فقد مولانا خطبا عسيرا، وثكله عظيما، لا نجد له نظيرا، فقد أدال الله من جزعه صبرا، وجعل مع عسره يسرا**».[2] في هذا النص طابق الكاتب بين كلمتي الجزع والصبر وبين العسر واليسر، فجاء هذان الطباقان متوافقين مع غرض الرسالة المتضمنة غرضي التعزية والتهنئة، وأدّيا ما لا يخفى في إبراز المعنى، وللتدليل على ما أصاب السلطان من فجيعة بفقد والده، وتغيّير أحواله من الحزن والألم إلى الفرح والسرور بتوليه العرش.

ومن الأغراض المتضمنة للطباق غرض الشوق، مثل رسالة لسان الدين إلى ابن خلدون: «**فأنا الآن بعد إنهاء التحية المطلولة الروض بماء الدموع، وتقرير الشوق اللزيم ، وشكوى البعاد الأليم، وسؤال إناحة القرب قبل الفوت من الله ميسر العسير، ومقرب البعيد**».[3] فقد طابق بين البعاد والقرب وطابق بين كلمتي ميسر والعسير وبين مقرب والبعيد تأكيدا منه للمعنى الذي جاء به وتعبيرا عن حالته الشعورية بسبب الفراق وأملا في زوالها.

يتضح لنا أن استخدام الكتّاب لهذا المحسن البديعي في الرسائل الديوانية والإخوانية في العهد الزياني لا يقع إلا في النادر حين تقتضيه الضرورة، وكان طباق الإيجاب الذي يقوم على

[1] Edición y estudio del Fasl al jitab, p228.
[2] Ibid, p306.
[3] التعريف بابن خلدون (ابن خلدون)، ص124- 125.

اختلاف الكلمتين لفظا ومعنى هو الغالب مقارنة بطباق السلب، وجاء موافقا لمضامين الرسائل وأغراضها بهدف تأكيد المعنى وتوضيحه لأن الأشياء بأضدادها تعرف.

5.3 المقابلة:

تعني المقابلة «إيراد الكلام، ثم مقابلته بمثله في المعنى واللفظ، على جهة الموافقة أو المخالفة»[1]، وهي الأخرى من ألوان البديع المهمة التي تسهم في تقوية المعنى وتوضيحه، مثلها مثل الطباق لكنها «أعم منه وذكر بعضهم أنها اخص وذلك أن تضع معاني تريد الموافقة بينها وبين غيرها، أو المخالفة فتأتي في الموافق بما يوافق وفي المخالف بما خالف».[2]

ومن أمثلة المقابلات الواردة في الرسائل السياسية قول ابن خطاب في بيعة عثمان بن يغمراسن إلى الأمير الحفصي أبي مُحَمَّد عبد العزيز بولاية العهد: «**وأرشد (الرسول صلى الله عليه وسلم) الناس إلى ما به قوامهم من المصالح، وأمر بالانتظام والائتلاف، ونهى عن التقاطع والاختلاف**».[3] طابق بين العبارتين أمر بالانتظام والائتلاف ونهى عن التقاطع والاختلاف.

ونجد نظير ذلك، المقابلة الواردة في بيعة يغمراسن بن زيان للواثق الحفصي: «**فأخرجنا من الظلمات إلى النور، وجاء بالذكر الحكيم جلاء للعمى وشفاء لما في الصدور، وأطلع شهب هديه المنيرة، وأخمد نار الشرك المستطيرة**».[4]حيث قابل بين جملتي أطلع شهب هديه وأخمد نار الشرك التي تدل على تغير حال الأمة بعد قدوم الرسول (ﷺ) من الضلال والشرك إلى الهدى والتوحيد.

كما تظهر صور المقابلة في رسائل الحرب، ومثال ذلك قول ابن خطاب في رسالة التهنئة بفتح قسنطينة في سياق حديثه عن غدر الأعداء: «**إنذارا رجى إقبالا منهم عليه وقبولا، واقتداء بقوله عز وجل (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) فأظهروا الانقياد، وأضمروا اللجاج**

[1] الصناعتين، (أبو هلال العسكري)، ص337.
[2] حسن التوسل، (شهاب الدين الحلبي)، ص48.
[3] المغرب والأندلس في القرن السابع (أحمد عزاوي)، ص144.
[4] المصدر نفسه، ص131.

والعناد».[1] فقد جاء بهذه المقابلة ليبين التناقض الحاصل بين ما أظهره الأعداء وبين ما أسروه في نفوسهم وليثبت خبث سريرته واستحقاقهم للجزاء الذي نالوه من هزيمة نكراء.

ومن أمثلة المقابلة الواردة في الرسائل الإخوانية ما ورد في رسالة ابن خطاب يجيب عن رسالة عتب، قوله: «**ونلوذ بجنابك، ونعوذ بعذابك، ونرتعش لتقلبك ونفارك، وننتعش بتقربك وجوارك، ونجن من رهبتك، ولا نرهب في جوارك**».[2] فقد قابل بين جملتي نرتعش لتقلبك ونفارك، وننتعش بتقربك وجوارك. فهذه المقابلة تتوافق مع المعنى والغرض الذي يصبو إليه فالكاتب في مقام التأكيد على المودة والمحبة التي يكنها للمخاطب وتجاوز ما كان بينهما من بعد ونفار.

ومن الرسائل التي ورد فيها هذا اللون البديعي رسائل التعزية في مثل قول ابن خطاب معزيا في وفاة أبي القاسم العزفي: « **فيا له رزءا أفاق الأرزاء، وعاق العزاء، وساق ما شاء مما ساء، وأنّس الأموات، وأوحش الأحياء، فإنا لله وإنا إليه راجعون**».[3] فهذه المقابلة بين أنس الأموات وأوحش الأحياء لم يأت بها الكاتب عبثا فقد توافقت تمام التوافق مع مضمون الرسالة المتمثل في التعبير عن عواطفه ومشاعره المتمثلة في الحزن والألم بسبب هذه المصيبة.

ولسان الدين ابن الخطيب في رسالته إلى ابن مرزوق حين استقل من مرض يستعين هو الآخر بهذا المحسن البديعي لغرض تأكيد المعنى حيث يقول: « **فاشكره جل وعلا بملء لسانك وجنانك... على ما طرقك من استرقاق حر...وإتاحة نفع ودفع ضر**».[4] فقد جاء بهذه المقابلة التي تصور الانتقال من حالة المرض إلى حالة الشفاء، وتعبر عن زوال الألم والتوجع، وتشع بالأمل والتفاؤل.

وخلاصة القول إن استعمال الطباق و المقابلة في الرسائل السياسية والإخوانية في العهد الزياني عن طريق الجمع بين كلمتين أو أكثر في الكلام تجمع بينهما علاقة تضاد يكون لها أثر كبير

[1] المصدر السابق، ص120.

[2] Edición y estudio del Fasl al jitab , p210.

[3] Ibid, p297.

[4] ريحانة الكتاب، (ابن الخطيب)، ج2، ص120.

في تشكيل المعنى وتعميق الدلالة والتأثير في نفسية المتلقي وذهنه، مما يخدم مضمون النص وغرضه، ويسهم في توضيح المعاني وتقويتها.

4-التصوير الفني والخيال:

يعد التصوير الفني والخيال من أهم الأدوات والآليات التي يعتمدها الأديب في بنائه للعمل الأدبي شعرا كان أم نثرا، وهي ترتبط ارتباطا وثيقا بنفسية الكاتب حين ينشأ عمله، وإبراز مدى تفاعله مع الجو المحيط به للتعبير عن انفعالاته وأحاسيسه، وخياله الواسع والبيئة التي نشأ فيها. وهي مكوّن مهم في البناء الفني والأدبي لفن الرسائل لما لها من أهمية حيث يتم من خلالها تجسيد المعاني وتوضيحها، وتعتمد بالأساس على التشبيهات والاستعارات والمجاز والكنايات.

ولقد أدرك الكتّاب في هذا العصر أهمية التصوير الفني بوصفه أحد طرائق التعبير والبيان، فاستعانوا بالصور المختلفة من تشبيه واستعارات وكنايات، فوظفوها في الرسائل السياسية باعتبارها تعدّ ركنا من أركان التعبير التي وردت بشكل متباين في العديد من الأغراض، فبالرغم من طابعها الرسمي الذي ينتهجه الأدباء أثناء مخاطبتهم للملوك والأمراء كونها موجهة لتسيير شؤون الدولة والحكم إلا أنهم لم يتقيدوا بالأسلوب السهل البسيط في التعبير عن أغراضهم ومواضيعهم وإيصال الأفكار، ولم يمنعهم ذلك من توظيف الخيال وجلب الصور البيانية لتوضيح المعاني وتقريبها إلى ذهن المتلقي.

1.4 التشبيه:

هو أحد أساليب التعبير المهمة والأكثر استخداما في أساليب التعبير البيانية، حيث أشار أبو هلال العسكري إلى أهميته وشيوع استخدامه، قال: «التشبيه يزيد المعنى وضوحا ويكسبه تأكيدا، ولهذا ما أطبق جميع المتكلمين من العرب والعجم عليه، ولم يستغن أحد منهم عنه».[1] لذا نجد أن أغلب الكتّاب يستخدمونه مستعينين على صناعته بالبيئة التي عاشوا فيها والظروف المحيطة بهم، فكثيرا ما وظفوا الطبيعة بمختلف أنواعها كالحيوان والبحر والمطر وغيرها في تشبيهاتهم.

[1] الصناعتين (أبو هلال العسكري)، ص243.

وعدّه ابن الأثير من أهم أنواع البيان تعبيرا وأصعبها استخداما، قال: «فالتشبيه إذا يجمع صفات ثلاثة: هي المبالغة والبيان والإيجاز... ألا انه من بين أنواع البيان مستوعر المذهب، وهو مقتل من مقاتل البلاغة، وسبب ذلك أن حمل الشيء على الشيء بالمماثلة إما صورة، وإما معنى يعز صوابه، وتعسر الإجادة فيه». [1] وبهذا يكون التشبيه وسيلة مهمة من وسائل الخيال التي استعان بها كتّاب الرسائل، ودعامة أساسية في تثبيت الصورة في نفس المتلقي وتوضيح المعاني والأفكار وجعلها أقرب إلى الذهن.

وقد أجاد ابن خطاب في استخدام التشبيه بصفته الأكثر شيوعا، ففي رسالته التي يخبر فيها عن تحرك السلطان الحفصي نحو البلاد الغربية، قال: «**وهدايات الحضرة العلية المجاهدة أيدها الله سامية المنار، نامية الأنوار، وبركاتها تَكِفُ كالغيث المدرار، وتَكُف أكُفَّ الخطوب الطوارق**». [2] فقد صور الكاتب هدايات السلطان بالنور المرتفع، وشبه بركته بالمطر الغزير المنهمر وفي ذلك تشبيه الأمور المعنوية بالأشياء الحسية الملموسة المأخوذة أصلا من الطبيعة.

وفي رسالة التهنئة بفتح قسنطينة يصور ابن خطاب الجيش وهو متجه إلى أرض المعركة لخوض النزال: «**وعساكره الجرارة، وكتائبه المتعودة لشن الغرة الغارة، ضراغم آجامها الرماح الخواطر، وبراثنها السيوف البواتر، على خيول كالمجادل، تنقض على الأقران أمثال الأجادل، وتقص الجنادل من حوافرها بأصلب الجنادل**». [3] فقد شبّه العساكر والجنود بالأسود القوية برماحهم وسيوفهم لشجاعتهم وبسالتهم، وشبه الخيول بالمجادل التي تنقض على الأعداء انقضاض الصقور على فريستها، فقد اتخذ من عناصر الطبيعة الحية المتمثلة في الأسود والصقور مادة خصبة لهذه التشبيهات.

ويستعين أيضا ابن خطاب في رسالة أخرى في الغرض نفسه بالتشبيه ليعبّر عن مدى قوة الجيش، يقول: «**فتوجهتم إلى قسنطينة في عسكركم اللهام، الضارب للهام، المعروف بالصرامة والإقدام، جموع ينجدها القضاء، وتضيق عنها الأرض الفضاء، تضل البلق في حجراتها،**

[1] المثل السائر (ابن الأثير)، ج2، ص 122

[2] المغرب والأندلس في القرن السابع (أحمد عزاوي)، ص116.

[3] المصدر نفسه، ص120.

ويقطر الموت من شفراتها، عقبان تحمل أسودا، تقذف محاربها بالمنايا حمرا وسودا».[1] حيث وصف تعطشهم للقتال بتشبيهه الموت بالدماء التي تقطر من السيوف، وشبّه الفرسان بالأسود لشجاعتهم، والخيول التي يمتطونها بالعقبان لسرعتها وخفتها، كما جاء بالمجاز المرسل فبدل أن يذكر الرماح التي يقذف بها العدو ذكر ما تسببه وهو الموت.

كما أن التشبيه سمة بارزة في الرسائل الإخوانية، فهذا ابن الخطيب الذي يمتاز تصويره بدقة الوصف والإجادة في تجسيد المعاني في صور أقرب إلى الواقع يجسد هذا المحسن البياني في رسالته التي وجّهها إلى صديقه ابن خلدون يتشوق إليه بعد أن ترك غرناطة قاصدا بسكرة، حيث يقول: «**فلو لا عسى الرجاء ولعله، لا بل شفاعة المحل الذي حله، لنشرت ألوية العتب، وبثت كتائبها، كُمُناءَ في شعاب الكتب، تهز من الألفات رماحا خزر الأسنة، وتوتر من النونات أمثال القسي المرنة وتقود من مجموع الطرس والنقس بلقا تردي في الأعنة».**[2] أضفى الكاتب في هذا النص على معنى العتاب لوحة فنية بنقل الحروف وما تحمله من معاني اللوم إلى صورة الجنود أثناء الحرب، فجعل من الخطاب المكتوب المتضمن معنى العتاب شبيها بالجيش المتأهب لخوض النزال، والذي يرفع الأعلام أثناء المعركة، وشبه الحروف التي يستخدمها في لومه بأدوات الحرب لاشتراكها في الشكل، فحرف الألف شبهه بالرمح، وحرف النون بالقوس.

2.4 الاستعارة:

ومن ألوان البيان الأخرى التي استعان بها الكتّاب الاستعارة التي تعد من ضروب المجاز اللغوي الأكثر بلاغة من التشبيه، وهي «استعمال اللفظ في غير ما وضع له لعلاقة المشابهة بين المنقول عنه والمعنى المستعمل فيه، مع قرينة صارفة عن إرادة المعنى الأصلي»[3]، وهي تشبيه حذف أحد طرفيه الأساسيين إما المشبه أو المشبه به وهي نوعان مكنية وتصريحية.

والاستعارة تعمل على توضيح المعاني وإبانتها وتقريبها إلى ذهن المتلقي، كما أن قدرتها على التجسيد والتشخيص يسهم في إظهار جمال التصوير وبراعة التعبير، وإبراز قدرة الكاتب

[1] المصدر السابق، ص124.

[2] التعريف بابن خلدون (ابن خلدون)، ص 115.

[3] جواهر البلاغة (السيد أحمد الهاشمي)، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، دت، ص258.

وتحكمه في اللغة والألفاظ وسعة الخيال، والإيجاز في الكلام فهي «تعطيك الكثير من المعاني باللفظ اليسير، حتى تخرج من الصدفة الواحدة عدّة من الدرر، وتجني من الغصن الواحد أنواعا من الثمر».[1] وهي من الفنون التي استخدمها الكتّاب الأوائل في كلامهم بما يخدم مضامينهم ومعانيهم التي يريدون إظهارها.

ومن الرسائل السياسية التي اعتمدت على الاستعارات رسائل البيعة، ففي بيعة يغمراسن بن زيان للسلطان الحفصي يقول ابن خطاب:« **أرسله والشرك قد ظهر فريقه، واستطار في الأقطار حريقه، واستطال في الأرض فلا أحد يطيقه، والدماء مطلولة، وسيوف البغي مسلولة، وليل الظلام ممدود الرواق، مسدول الأفاق، فأخرجنا من الظلمات إلى النور، وجاء بالذكر الحكيم جلاء للعمى وشفاء لما في الصدور، وأطلع شهب هديه المنيرة، وأخمد نار الشرك المستطيرة**».[2] فقد جسّد الأمور المعنوية في صورة محسوسة تكون أقرب إلى ذهن المتلقي وأكثر رسوخا وأوضحها معنى حين شبه الشرك بالحريق، وجعل للبغي سيوفا، وللهدي شهبا، واقتبس صورة من القرآن الكريم متمثلة في الاستعارة التصريحية حين شبه الكفر بالظلمات والإيمان بالنور.

ونجد أيضا استخدام الصور البيانية في الرسالة الموجهة إلى سلطان غرناطة حيث يقول ابن خطاب: «**وإخاؤكم الكريم عقده وثيق، ووجهه سافر أنيق**».[3] فقد صور علاقة الأخوة القائمة بين الدولتين بالوجه البارز الجميل حيث جعل من الشيء المعنوي (الإخاء) شيئا ماديا محسوسا (وجه) فشبهه بالإنسان، فهذه الصورة التي تشخّص المعنى تزيد من بروزه ووضوحه.

ويقول في رسالته المتضمنة ولاء يغمراسن بن زيان للسلطان الحفصي :«**وما أولى العبد بأن يقيم خذمة غدّي بها وليدا، ومهدت له كنف الرعاية تمهيدا...وجرى حبها في قلبه جري الماء في العود**».[4] حيث شبه ولاءه للسلطان بالغذاء الذي يتغدى به الطفل الصغير، فهذه الصورة

[1] أسرار البلاغة، (عبد القاهر الجرجاني)، ص43.
[2] المصدر نفسه، ص64.
[3] المغرب والأندلس في القرن السابع، ص131.
[4] المصدر نفسه، ص163.

توحي بحبه وتعلقه الشديد بالسلطان تعلق الطفل بأمه، وهذا الحب راسخ في قلبه وهو يجري في عروق دمه مثل الماء الذي يجري في العود ففي هذا إثبات للتبعية والطاعة للحفصيين.

والرسائل الإخوانية هي الأخرى ضمنها الأدباء من جميل الصور البيانية بخاصة الاستعارة، حيث يقول ابن خطاب في رسالته التي يتحدث فيها عن إرجاف بموته ومرض أصابه: «**رسمت إليكم هذه العجالة من تلمسان...وأنا قد طار عني الترب والكفن، ... وكنت في الشهر الفارط قد هجم علي مرض صفراوي في غاية الحدة... ثم أفلت من أظافير الموت، وسأنشب فيها فلا أستطيع الإفلات**».[1] حيث صور المرض الذي أصابه بالحيوان المفترس يهجم عليه لبيين مدى تأثره وألمه حيث استعار الفعل هجم بدل أن يصرح بالحيوان، واستعار مرة أخرى اللفظ أظافير وهو يريد ذاك الحيوان فجعل الموت شبيها به حتى يوضح المعنى ويجعله أقرب إلى ذهن المخاطب.

ويبدو أن استخدام الخيال والصور البيانية شائع في غرض الوصف والثناء على الأصدقاء، فابن خطاب يصور تبحّر صديقه القاضي أبي أميّه الدلائي في العلوم وكثرة معارفه بالمرعى الخصب، والسحاب الممطر، يقول: «**وكنت ألوم نفسي على الإقامة في محل جذب، والمرعى الخصب أمامي، والغمام الصيب يعدني وميضه بنفع أوامي**».[2]

وتبدو قدرة ابن خلدون الواسعة على التصوير حيث يكثر من التشبيهات والاستعارات، ويعتمد على العناصر المادية المحسوسة المستمدة من العالم المحيط به، وأغلبها مستمدة من عناصر الطبيعة التي شكلت منطلقا ومرجعا أساسيا عنده في بناء الصور، وهذا على نحو ما ورد في رسالته إلى لسان الدين، يقول: «**وصلني كتابك الكريم، بل فضلك الباهر العميم، بل تشريفك الأسنى العظيم، بل منشورك الذي له في مقام الحمد التقديم، فطالعت ما شئت من علوم تفجر يمنها، وآداب تفتح في تلك الخمائل زهرها... ثم قلت: حضرة سيدي بحر لا تكدره الدلاء، وبدر إن أظلم أفقي فمنه الضياء، وروض إن أثمر به غرسي فإليه الإنماء**».[3]

---

[1] Edición y estudio del Fasl al jitab, p239.

[2] Ibid,p 234.

[3] أدب الرسائل في المغرب العربي(طاهر توات)، نقلا عن الإحاطة في أخبار غرناطة(نصوص جديدة لم تنشر)، ص188.

حيث استغل الكاتب الطبيعة أحسن استغلال في الإشادة ببلاغة صديقه وفصاحته وتمكنه من الأدب، فشبه معرفته بالعلوم بالماء المتفجر من الينابيع، والآداب بالأشجار المزهرة، وفي مقام الثناء عليه وذكر فضله شبهه بالبحر لسعة علمه وغزارته، وبالبدر لأنه هو الذي ينير دربه ويوجهه إذا ما ضاقت به الأيام، وبالروض لفضله وكثرة خيره. فهذه الصور شكلتها ألفاظ بعينها هي البحر والبدر والروض وكلها تندرج ضمن الاستعارة التصريحية.

ويقول أيضا، في سياق مخاطبته لابن الخطيب يهنئه بالخلاص من النكبة التي حلّت به: «**فحمدت لكم الله على الخلاص من ورطة الدول على أحسن الوجوه... بعد أن رضتم جموح الأيام، وتقولتم قلل العز، وقدتم الدنيا بحذافيرها، وأخذتم بآفاق السماء على أهلها**».[1] حيث جعل الكاتب الأيام شبيهة بالفرس الجموح استطاع أن يذللها حتى تسير وفق رغباته، وشبه العز بالجبل الذي يصعد إلى قمته، والدنيا شبهها بالدابة التي تقاد دليل على تحكمه في زمام الأمور.

ولسان الدين هو الآخر ممن استعانوا بالصور البيانية لغرض توضيح معانيهم وتقريبها إلى ذهن المتلقي، ففي سياق مدحه ليحيى بن خلدون يقول: «**والبحر لا ينفذ بالاغتراف، لاسيما وذاتكم اليوم والله تعالى يقيها... ياقوتة اختارها واعتبرها...وسبيكة أخلصها مسجرها**».[2] حيث شبّهه بالبحر الذي لا ينفذ لسعة علمه ومعرفته فحذف المشبه وصرح بالمشبه به على سبيل الاستعارة التصريحية، وفعل الأمر نفسه حين شبهه بالياقوتة الثمينة النادرة، وبالسبيكة المتقنة الصنع.

3.4 الكناية:

تعد إحدى فنون البيان وهي «لفظ أريد به لازم معناه مع جواز إرادة معناه حينئذ»[3]، بمعنى أنها ترد في المعنى الحقيقي كما ترد في المعنى المجازي، ولا يراد بها المعنى المقصود من الكلام الظاهر في السياق بل يراد به إما صفة، أو موصوفا، أو نسبه، وبذلك يصير اللفظ تابعا للمعنى المراد بمثابة الدليل. وقد لجأ الكتّاب إلى استخدام الكنايات بوصفها وسيلة من وسائل الإيضاح

[1] التعريف بابن خلدون (ابن خلدون)، ص153.
[2] نفح الطيب (أحمد المقري)، ج6، ص202.
[3] الإيضاح في علوم البلاغة، (القزويني)، ص241.

والمبالغة وتأكيد المعنى، فعبد القاهر الجرجاني يرى أن الأديب حين يكني عن معنى من المعاني فإنه يزيد في إثباته حتى يصير أبلغ وأكثر تأكيدا[1].

ولم ترد الكناية بصورة كبيرة في الرسائل التي بين أيدينا، ومن نماذجها قول ابن خطاب **فتوجهتم إلى قسنطينة في عسكركم اللهام، الضارب للهام، المعروف بالصرامة والإقدام، جموع ينجدها القضاء، وتضيق عنها الأرض الفضاء،** ».[2] لقد رسم الكاتب صورة للجيش وهو متجه إلى المعركة الذي يتصف بالكثرة فكنى عن هذه الصفة بالأرض التي ضاقت عنهم.

ومن رسائله الإخوانية التي احتوت على الكناية تلك التي يخبر فيها عن مرض أصابه، يقول: « ... **والواقف مستحث للقلم، مستقل من الكلم، وأنا قد طار عني الترب والكفن**».[3] تداول الناس خبر وفاة ابن خطاب وأراد أن يثبت عكس ذلك فكنى عن بقائه على قيد الحياة بعبارة (طار عني الترب والكفن).

وها هو يصور معركة العزفي في الجزيرة الخضراء بالأندلس مستغلا العديد من الصور التي استمدها من الطبيعة، يقول: «**فابيضّ وجه الخضراء، بصبح الفتح المسفر، واحمر وجه خضارة* بما أشرب من دماء بني الأصفر، حين هدت إليهم أسطولكم المظفر غربان تطير إليهم بأجنحتها، وتحمل في ظهورها أسودا لا فراش لها غير أقدامها وأسلحتها...وقسموهم بحكم التوحيد ثلاثا إرغاما للتثليث، فلا ترى منهم إلا غرقى لجتي بحر ودموع، وقتلى حصدهم السيف مثل خامات زرع، أضحت أجسامهم من الأرواح يبابا**».[4]

تبدو الكناية واضحة في هذا النص فمن المعلوم أن بني الأصفر كناية عن الروم، وأما التوحيد فهو كناية عن العقيدة الإسلامية، والتثليث كناية عن النصرانية وعن معتنقيها، واحمرار

---

[1] دلائل الإعجاز (عبد القاهر الجرجاني)،قراءة وتعليق: محمود مُحَمَّد شاكر، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مطبعة المدني، المؤسسة السعودية بمصر، دت، ص71.

[2] المغرب والأندلس في القرن السابع (أحمد عزاوي)، ص124.

[3] Edición y estudio del Fasl al jitab , p239.

* خُضارة: بمعنى البحر. مقاييس اللغة، (ابن فارس)، ج 2، ص 196.

[4] Edición y estudio del Fasl al jitab, p 294- 295.

البحر إنما هو كناية عن كثرة عدد القتلى في صفوف الأعداء، كما كنى عن الموت حين جعل أجسام الأعداء خالية من الأرواح.

والكاتب احتاج في وصفه لهذه المعركة التي انتصر فيها جيش العزفي إلى عناصر الطبيعة الحية والجامدة، حيث جعل للجزيرة وجها مسفرا مضيئا مثل ضوء الصبح، وهذه الصورة تحمل معنى الفرح والابتهاج بتغيّر الأحوال إلى ما هو أفضل.

ولم يكتف بلون بياني واحد في هذا النص، بل استعان بالاستعارة ومنها الصورة التي رسمها لكثرة الخيول وزحفها إلى العدو كأنها غربان تحمل الأسود التي تتصف بالشجاعة والقوة، وهذا من باب الاستعارة التصريحية حيث حذف المشبه وهو (الخيول) وأبقى على المشبه به وهي (الغربان)، وكذلك فعل في الصورة الأخرى حيث حذف المشبه وهو (الفرسان) وذكر المشبه به وهو (الأسود). وفي وصفه للقتلى الذين أطاح به جيش العزفي شبهه بالنبات الطري الذي لا يقوى على تحمل الرياح، فهذه الصورة توحي بضعف الأعداء وجبنهم.

وبالنظر إلى ما أوردناه من نماذج عن التصوير الفني وتوظيف الخيال في رسائل العهد الزياني، يتضح لنا أن الأدباء جعلوا من ألوان البيان المختلفة من تشبيه واستعارة وكناية مادة خصبة في كلامهم للتعبير عن مضامين وأغراض رسائلهم بنوعيها السياسية والإخوانية، وارتبط توظيفها ارتباطا وثيقا بغرض الوصف بمواضيعه المتنوعة من وصف للرسائل والشخصيات والجيش والمعارك وغيرها، وللتعبير أيضا عن الحالات الشعورية والعواطف المتقلبة من حزن وفرح وشوق، وذلك بهدف إبراز المعاني وتجسيدها في صور محسوسة تكون أقرب إلى ذهن القارئ.

خـــــاتمـــــة

خاتمة:

لقد كان لأدب الرسائل حضور بارز في عهد الدولة الزيانية على غرار سائر الفنون الأدبية الأخرى، فباعتباره وسيلة للتواصل بين مختلف أطياف المجتمع قد شكّل منطلقا لإبداع الكتّاب والأدباء، وساحة واسعة أفرغوا فيها طاقتهم ومواهبهم التي أنتجت لنا نصوصا أدبية راقية واكبت جميع مظاهر الحياة الزيانية المختلفة عبر أزمنة مختلفة، وكان انعكاسا لها بكل أبعادها السياسية والاجتماعية والثقافية، مما جعل له قيمة إنسانية كبيرة تكشف عن ماضي هذه الأمة وتاريخها الحافل بالإنجازات والإبداعات في شتى الميادين.

ولقد تبين أثناء دراستنا لهذا الفن الأدبي النثري أن سلاطين بني عبد الواد كانوا يتخيرون لكتابة الإنشاء أحسن الكتّاب وأفضلهم على غرار أبي بكر بن خطاب المرسي، وابن خميس التلمساني، وابن هدية القرشي، ويحي بن خلدون وغيرهم ممّن تبوّؤوا مكانة علمية وأدبية مرموقة في ذلك العصر، وذلك نظرا لأهمية هذه الوظيفة التي يعنى صاحبها بكتابة الرسائل الديوانية التي هي بمثابة مرآة عاكسة لصورة الدولة، ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل وجد من السلاطين من كان يدبّج الرسائل بخط يده كأبي حمو موسى الزياني الثاني، مما يعكس مكانة الدولة ودرجة الرقي الأدبي الذي بلغته.

ولقد كانت الرسائل الديوانية لسان الدولة الزيانية الذي تنطق به ووسيلة رسمية في تحديد العلاقات الثنائية مع المماليك والدول المختلفة، فتعددت مواضيعها بحسب الظروف والمناسبات المستجدة على الساحة السياسية، فكان منها الرسائل الموجهة إلى السلاطين الحفصيين في غرض البيعة وتأكيد الولاء وطلب العناية وفي شأن الحروب والمعارك، وتلك الموجهة إلى دولة المماليك في شأن العتاب وتأكيد الأخوة بين الدولتين، والرسائل التي بعثها بنو زيان إلى مملكة (أراغونة) المتعلقة بالمعاهدات والعلاقات التجارية، كل هذه الرسائل أبانت لنا عن الامتداد السياسي للدولة الزيانية وعن الروابط والعلاقات التي سعت إلى بنائها خدمة لمصالحها السياسية والاقتصادية، وضمانا لبقائها واستمرارها، وعدم زوالها.

أما الرسائل الإخوانية فهي الأخرى قد صوّرت أحوال المجتمع والأحداث التي طرأت عليه فكشفت عن الروابط الأخوية التي تجمع بين أفراده، وعكست مواقف التضامن والتكافل فيما

بينهم في الشدائد والمحن والأزمات، وعبّرت عن حالتي الحزن والفرح اللتان ترتبطان بالمناسبات الاجتماعية المختلفة، وجسّدت الصلات الثقافية والعلمية بين العلماء والفقهاء لاسيما في المجال الديني الذي نبغ فيه أهل المغرب بصفة عامة، فتعددت بذلك أغراضها ومضامينها كالثناء والشكر، والتعزية والتهنئة، وطلب العناية والشفاعة، والرسائل الدينية.

ومن الأدباء من جعل هذا الفن مطيّة للتعبير عن أحوال النفس البشرية كالشوق الذي عكس من ناحية الروابط التي جمعت بين أدباء وعلماء هذا العصر، ومن ناحية أخرى مقدرتهم الأدبية في التعبير عن المشاعر والأحاسيس الصادقة والنبيلة، كما كان للوصف حضور بارز وجلي إذ إن أغلب النصوص قد تزينت به من خلال وصف الشخصيات ومكانتهم العلمية، ووصف ذكريات الماضي ومظاهر الطبيعة وغير ذلك، وعلى العموم يتبين لنا أن أغلب هذه الأغراض والمضامين قد استقاها الكتّاب من الفنون الشعرية فكانت الرسائل بمثابة شعر منثور أبدعوا في إخراجه.

واتخذت الرسائل في هذا العهد في بنائها شكلا فنيا يراعي مكانة المخاطب السياسية والاجتماعية، فالرسائل الديوانية قد حافظت على طابعها الرسمي فلم تختلف في بنائها بالرغم من اختلاف مواضيعها حيث كانت تفتتح بالألقاب المفخمة التي تناسب الطرف المرسل إليه متبوعة بخطبة موجزة قبل الولوج في العرض، في حين أن الرسائل الإخوانية قد تحرر أصحابها من كل قيد أو شرط فلم تأخذ شكلا واحدا في بنائها فقد كانت تبدأ بالدعاء للمخاطب أو مدحه، أو المنظوم، أو التحميد، واختتم كلا النوعين في الغالب بتحية السلام.

وأكثر الكتّاب من توظيف الجمل الدعائية والمعترضة في رسائلهم بصورة عامة، وأبانوا عن ثقافتهم الواسعة وكثرة اطلاعهم وتبحّرهم في مختلف العلوم والآداب، فحرصوا على الاقتباس من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة باعتبارهما المنبع الأول للبيان، كما اهتموا بتضمين الأمثال والتنويع بين المنظوم والمنثور بحسب ما يقتضيه الحال وبحسب غرض الرسالة وظرفها فأبدعوا في ذلك.

ولم تكن الرسائل الديوانية والإخوانية على حد واحد من الإيجاز والإطناب، فهي تقصر وتطول بحسب غرض الرسالة ومضمونها، ومراعاة لمكانة المخاطب الاجتماعية، والظرف الذي

كتبت فيه، وبحسب عاطفة الكاتب، وعلى العموم فإن السمة الغالبة عليها هي الإطناب لأن الأدباء وجدوا فيها مجالا واسعا للإفصاح عن مقدرتهم الأدبية.

واستعان الكتّاب في هذا العهد بالكتابة المتأنقة، فأكثروا من استخدام المحسنات البديعية في رسائلهم، وقد كان السجع والجناس من أكثرها شيوعا، وأجادوا في استعمالها ونوعوا فيها، ومالت إلى الإسراف أحيانا، وأحيانا أخرى إلى الاعتدال بحسب مقدرتهم الثقافية. وبدرجة أقل وظفوا الطباق والمقابلة في مواضع مختلفة لغرض إبراز معانيهم وتأكديها وتقويتها، وزيادة وضوحها.

أما من حيث التعبير عن المعاني، فلم يكن اهتمام الكتّاب منصبا فقط على اللفظة الواحدة بل تعداه إلى الجمل والتراكيب التي اصطبغت بألوان البيان المختلفة التي زينت رسائلهم من تشبيهات واستعارات وكنايات أثبتوا بها سعة خيالهم وقدرتهم على التحكم في الألفاظ، فجاءت في مجملها لغرض تأكيد معانيهم وتجليتها وتوضيحها، وتجسيد الأشياء المعنوية في صور محسوسة تكون أقرب إلى ذهن المتلقي، وأكثر تأثيرا في نفسه.

الفهـــــارس العـــــامة

فهرس الآيـــــات القرآنيـــــة

فهـرس الأحـــــاديث النبويـــة

فهـرس المصـــــادر والمـــراجع

فهـــــرس المحتـــــويـــات

1- فهرس الآيات القرآنية:

الآية	رقمها	السورة	الصفحة
فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ	79	الأعراف	03
لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ	28	الجن	03
ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ	5-1	العلق	10
ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ	156	البقرة	90
مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ	05	الكهف	166
هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ	02	الحشر	166
لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ	63	النور	166
فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ	54	الزخرف	167
فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا	09	الطلاق	167
وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ	60	الكهف	168
ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم	257	البقرة	168
يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ	57	يونس	168
إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ	10	الحجرات	169
أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً	97	النساء	169
صَبْرًا جَمِيلًا	05	المعارج	169
ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ	98	النساء	169
لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا	98	النساء	169

رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ	75	النساء	169
قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعًا وَلَا ضَرًّا	188	الأعراف	170
قُلۡ إِنِّي نُهِيتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱلَّذِينَ	56	الأنعام	170
وَجَعَلۡنَا ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً	50	المؤمنون	170
وَلَئِنۡ أَصَٰبَكُمۡ فَضۡلٞ مِّنَ ٱللَّهِ	73	النساء	171
وَظِلّٖ مَّمۡدُودٖ	30	الواقعة	171
وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ	03	التين	171
وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٖ	24	التكوير	172
إِذَا زُلۡزِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ زِلۡزَالَهَا	01	الزلزلة	172
فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ	62	الكهف	172
قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ	86	يوسف	173

2- فهرس الأحاديث النبوية:

نص الحديث	المصدر	الصفحة
رفقا سوقك القوارير	صحيح البخاري، ص1549.	174
الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف	صحيح مسلم، ج2، ص1218	174
إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم	صحيح مسلم، ج2، ص1193.	175
وإن من البيان لسحرا	صحيح البخاري، ص1460	175
لن يغلب عسر يسرين	إتحاف المهرة، ج18، ص495	175
من دخل دار سفيان فهو آمن	صحيح مسلم، ص856.	176
ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا	صحيح مسلم، ص342.	176
والحكمة ضالة المؤمن	الجامع الكبير، مج4، ص417	176
إن الدال على الخير كفاعله	الجامع الكبير، مج4، ص404.	177
الرجل على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل	الجامع الكبير، مج4، ص187.	177
إِنّ رُوحَ القُدُس لا يزال يؤيّدك ما نافحت عن اللَّهِ ورسوله	صحيح مسلم، ج2، ص1163	177

القرآن الكريم برواية ورش.

أولا: المصادر والمراجع

1-ابن خميس شعره ونثره، (الطاهر توات)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط2، 2002م.

2- أبو حمو موسى الثاني حياته وآثاره (عبد الحميد حاجيات) الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982م.

3- إتحاف المهرة بالفوائد المبتكرة من أطراف العشرة، (ابن حجر العسقلاني)، تحقيق: صالح 4- حامد الرفاعي، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، ط1، 2002م.

4- الإحاطة في أخبار غرناطة (لسان الدين بن الخطيب) تحقيق: مُحَمَّد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط2، 1973م.

5- الإحاطة في أخبار غرناطة –نصوص جديدة لم تنشر- (لسان الدين بن الخطيب) تحقيق: عبد السلام شقور، مؤسسة الطباعة والنشر والتوزيع، طنجة، 1988م.

6- إحكام صنعة الكلام(الكلاعي: أبي القاسم مُحَمَّد بن عبد الغفور الإشبيلي الأندلسي) تحقيق: مُحَمَّد رضوان الداية، دار الثقافة، بيروت، 1966م.

7-اختلافات المحدثين والفقهاء في الحكم على الحديث (عبد الله شعبان علي)، دار الحديث، القاهرة، 1997م.

8- أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري (فايز عبد النبي فلاح القيسي)، دار البشير للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 1989م.

9-أدب الرسائل في المغرب العربي في القرن السابع والثامن الهجريين (الطاهر توات)ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط2، 2010م.

10-الأدب العربي في الأندلس (عبد العزيز عتيق) دار النهضة العربية، بيروت، ط2، 1976م.

11-أدب الكتّاب، (الصولي مُحَمَّد بن يحيى)، تصحيح وتعليق : مُحَمَّد بهجة الأثري، المطبعة العربية ببغداد، المطبعة السلفية، مصر، 1341هـ.

12-الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية(ابن الشماع أبي عبد الله) تحقيق وتقديم: الطاهر بن مُحَمَّد المعموري، الدار العربية للكتاب، تونس، 1984م.

13-أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض (المقري التلمساني أحمد بن مُحَمَّد) تحقيق: مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلبي، مطبعة فضالة، المغرب، دت.

14-أساس البلاغة (الزمخشري أبي القاسم جار الله محمود بن عمر بن أحمد) تحقيق: مُحَمَّد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط1، 1998م.

15-الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى (الناصري أبي العباس أحمد بن خالد)، تحقيق: جعفر الناصري ومُحَمَّد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء،1997م.

16- أسرار البلاغة، (عبد القاهر الجرجاني)، تعليق: محمود مُحَمَّد شاكر، دار المدني، جدة، دت.

17-الأسلوب دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية (أحمد الشايب) مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط8، 1991م.

18-أعلام المغرب والأندلس-نثير الجمان في شعر من نظمني وإياه الزمان- (إسماعيل بن الأحمر)، تحقيق: مُحَمَّد رضوان الداية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 1987م.

19-الاقتضاب في شرح أدب الكتاب (البطليوسي أبي مُحَمَّد عبد الله) تحقيق: مصطفى السقا، حامد عبد المجيد، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1996م.

20-البرد الموشى في صناعة الإنشا (موسى بن حسن الموصلي الكاتب) تحقيق: عفاف سيد صبرة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1990م.

21-البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان (ابن مريم التلمساني) مراجعة: مُحَمَّد بن أبي شنب، المطبعة الثعالبية، الجزائر، 1908م.

22-بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد (ابن خلدون أبي زكريا يحي) تحقيق: عبد الحميد حاجيات، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011م.

23-البيان والتبيين (الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر) تحقيق: عبد السلام مُحَمَّد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط7، 1998م.

24-تاج العروس من جواهر القاموس (الزبيدي مُحَمَّد مرتضى الحسيني) تحقيق: عبد الفتاح الحلو، المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت، 1997م.

25-تاريخ ابن خلدون (عبد الرحمن بن خلدون) ضبط: خليل شحادة، مراجعة: سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، 2000م.

26-تاريخ الأدب العربي العصر الإسلامي (شوقي ضيف)، دار المعارف، مصر، ط7، دت.

27-تاريخ الأدب العربي- العصر العباسي الأول (شوقي ضيف) دار المعارف، القاهرة، ط8، دت.

28-تاريخ الأدب العربي-العصر الجاهلي- (شوقي ضيف) دار المعارف، القاهرة، ط11، دت.

29-تاريخ الجزائر الثقافي (أبو القاسم سعد الله) دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1998م.

30-تاريخ الجزائر العام(عبد الرحمن بن مُحَمَّد الجيلالي)، دار مكتبة الحياة، بيروت، دت.

31-تاريخ الطبري-تاريخ الرسل والملوك (الطبري أبو جعفر مُحَمَّد بن جرير) تحقيق: مُحَمَّد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، ط2، ج2، 1968م.

32-تاريخ بني زيان ملوك تلمسان: مقتطف من نظم الدر والعقبان في بيان شرف بني زيان (التنسي مُحَمَّد بن عبد الله)، تحقيق وتعليق: محمود آغا بوعياد، موفم للنشر، الجزائر، 2011م،

33-تاريخ قضاة الأندلس(النباهي أبو الحسن بن عبد الله بن الحسين المالقي الأندلسي) تحقيق: لجنة إحياء الثرات العربي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1980م.

34-تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن (ابن أبي الإصبع المصري)، تقديم وتحقيق: حفني مُحَمَّد شرف، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، 1995م.

35- تحليل الخطاب الشعري: استراتيجية التناص (مُحَمَّد مفتاح)، دار التنوير، لبنان، ط1، 1985م.

36- تعريف الخلف برجال السلف (الحفناوي أبو القاسم مُحَمَّد)، مطبعة بيير فونتانة الشرقية، الجزائر، 1324هـ/1906م.

37- التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا (عبد الرحمن بن خلدون)، دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، بيروت، 1979م.

38- تلمسان في العهد الزياني (عبد العزيز فيلالي) موفم للنشر والتزيع، الجزائر، 2002م.

39- التناص نظريا وتطبيقيا (أحمد الزعبي)، مكتبة الكتاني، إربد، ط1، 1995م.

40-الجامع الكبير،(الترمذي: أبي عيسى مُحَمَّد بن عيسى)، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1996م.

41-جذوة الاقتباس في ذكر من حل من العلماء مدينة فاس، (ابن القاضي أحمد المكناسي)، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1973م.

42-جمهرة الأمثال (أبو هلال العسكري)، تحقيق: مُحَمَّد أبو الفضل إبراهيم، عبد المجيد قطامش، دار الجيل ودار الفكر للطباعة والنشر، ط2، 1988م.

43-جواهر البلاغة (السيد أحمد الهاشمي)، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، دت.

44-حسن التوسل إلى صناعة الترسل (الحلبي: شهاب الدين محمود بن سليمان)، المطبعة الوهبية، مصر، 1398هـ.

45-دراسات في الأدب المغربي (عبد الله حمادي) دار البعث للطباعة والنشر، الجزائر، ط1، 1986م.

46-الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة (ابن حجر العسقلاني شهاب الدين أحمد) ، دار إحياء التراث العربي، بيروت، دت.

47-دلائل الإعجاز (عبد القاهر الجرجاني)،قراءة وتعليق: محمود مُحَّد شاكر، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مطبعة المدني، المؤسسة السعودية بمصر، دت.

48-الدولة الزيانية في عهد يغمراسن –دراسة تاريخية وحضارية633هـ-681هـ (خالد بلعربي) دار الألمعية للنشر والتوزيع، قسنطينة، الجزائر، ط1، 2001م

49-ديوان أبي الهندي وأخباره، إخراج: عبد الله الجبوري، مطبعة النعمان، النجف بغداد، ط1، 1969م.

50-ديوان جميل بثينة، (جميل بن معمر)، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1982م.

51-ديوان حسان بن ثابت، شرح وتعليق: عبدأ مهنا، دار الكتب العلمية، بيروت ، ط2، 1994م.

52-ديوان لسان الدين بن الخطيب السلماني(لسان الدين بن الخطيب)، تحقيق: مُحَّد مفتاح، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، ط1، 1989م.

53-الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية،(مؤلف مجهول)، تحقيق: مُحَّد بن أبي شنب، مطبعة جول كربونل، 1920م.

54- رحلة ابن رشيد السبتي (ابن رشيد أبو عبد الله مُحَّد) دراسة وتحليل: أحمد حدادي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامي، مطبعة إليت، المغرب، 1424هـ/ 2003م.

55- رحلة القلصادي (القلصادي أبو الحسن علي الأندلسي) تحقيق: مُحَّد أبو الأجفان، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1978م.

56- الرحلة المغربية (مُحَّد العبدري البلنسي) تقديم: سعد بوفلاقة، منشورات بونة للبحوث والدراسات، الجزائر،ط1، 2007م.

57- الرسائل الأدبية النثرية في القرن الرابع للهجرة، (غانم جواد رضا الحسن)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2011م.

58- الرسائل الفنية في العصر الإسلامي حتى نهاية العصر الأموي(غانم جواد رضا) المكتبة الوطنية، بغداد، 1978م.

59-الروض المعطار في خير الأقطار (الحميري مُحَّد عبد المنعم) تحقيق: إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، ط2، 1984م.

60- روضة النسرين في دولة بني مرين (إسماعيل بن الأحمر) المطبعة الملكية، الرباط، 1962م.

61- ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب، (ابن الخطيب لسان الدين أبو عبد الله مُحَّد بن عبد الله بن أحمد السليماني) تحقيق: مُحَّد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 1981م.

62- السيرة النبوية- سيرة ابن هشام (عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري) تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط3، 1410هـ/1990م.

63-شجرة النور الزكية في طبقات المالكية (مُحَّد بن قاسم مخلوف)، تحقيق: عبد المجيد خيالي، منشورات علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2003م.

64-شرح ديوان أبي تمام (الخطيب التبريزي) دار الكتاب العربي، بيروت، ط2، 1994م.

65-شرح ديوان المتنبي،(عبد الرحمن البرقوقي)، دار الكتاب العربي، بيروت،1986م.

66-شرح ديوان امرؤ القيس، تحقيق: حسن السندوبي، دار إحياء العلوم، بيروت، ط1، 1990م.

67-صبح الأعشى في صناعة الإنشا (القلقشندي :أبي العباس أحمد بن علي) المطبعة الأميرية، القاهرة، ج14، 1919م.

68- صحيح البخاري، (البخاري: أبو عبد الله مُحَمَّد بن اسماعيل)، دار ابن كثير، دمشق، ط1، 2002م.

69- صحيح مسلم (مسلم: أبي الحسن بن الحجاج القشيري النيسابوري)، تحقيق: أبو قتيبة نظر مُحَمَّد الفاريابي، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، ط1، 2006م.

70- الصناعتين الكتابة والشعر (أبو هلال العسكري الحسن بن عبد الله بن سهل) تحقيق: علي مُحَمَّد البجاوي، مُحَمَّد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ط1، 1952م.

71- عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي (محمود رزق سليم)، المطبعة النموذجية، القاهرة، 1955م.

72- علاقة إسبانيا القطلانية بتلمسان- في الثلثين الأول والثاني من القرن الرابع عشر ميلادي- (عمر سعيدان) منشورات سعيدان، سوسة، تونس، 2002م.

73- علوم البلاغة-البيان والبديع والمعاني، (مُحَمَّد أحمد قاسم، محي الدين ديب)، المؤسسة الحديثة للكتاب، طرابلس، لبنان، ط1، 2003م.

74- العمدة في صناعة الشعر ونقده (ابن رشيق القيرواني)، تحقيق: النبوي عبد الواحد شعلان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1، 2000م.

75- عمرو بن براقة الهمداني من مخضرمي الجاهلية والإسلام —سيرته وشعره- (شريف راغب علاونة) دار المناهج للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 2005م.

76- عيار الشعر(ابن طباطبا العلوي مُحَمَّد أحمد) شرح وتحقيق: عباس عبد الساتر، بيروت لبنان، ط2، 2005م.

77- الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، (ابن قنفد القسنطيني أبي العباس أحمد بن الخطيب)، تحقيق: مُحَمَّد الشاذلي النيفر و عبد المجيد التركي، الدار التونسية للنشر، تونس، 1968م

78- الفن ومذاهبه في النثر العربي (شوقي ضيف)، دار المعارف، القاهرة، ط10، 1983م.

79- الفهرست- في أخبار العلماء وأسماء ما صنفوه من الكتب (النديم مُحَمَّد بن إسحاق) تحقيق: رضا تجدد، دت.

80- قاموس المحيط (الفيروز آبادي مجد الدين مُحَمَّد بن يعقوب) مراجعة: أنس مُحَمَّد الشامي وزكريا جابر أحمد، دار الحديث، القاهرة، 2008م.

81- قراءة جديدة للنثر العربي القديم- من العصر الجاهلي إلى نهاية العصر الأموي- (مُحَمَّد مرتاض) ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2012م.

82- الكامل في اللغة والأدب (المبرد أبو العباس مُحَمَّد بن يزيد) تحقيق: عبد الحميد هنداوي، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية، دت.

83- كتاب الأغاني (الأصفهاني أبو الفرج علي بن الحسين)تحقيق: إحسان عباس، إبراهيم السعافين، بكر عباس، دار صادر، بيروت، ط3،ج9، 2008م.

84- كتاب الوزراء والكتاب (الجهشياري أبو عبد الله مُحَمَّد بن عبدوس) تحقيق: مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلبي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، القاهرة، ط1، 1938م.

85- الكتيبة الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة (ابن الخطيب لسان الدين) تحقيق: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1983م.

86- لسان العرب (ابن منظور جمال الدين أبو الفضل مُحَمَّد بن مكرم)، دار صادر، بيروت، دت.

87- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر (ابن الأثير ضياء الدين)، تحقيق: أحمد الحوفي، بدوي طبانة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، الفجالة، القاهرة، دت.

88- مجمع الأمثال (الميداني: أبي الفضل أحمد بن مُحَمَّد النيسابوري)، المعاونية الثقافية للأستانة الرضوية المقدسة، 1344هـ.

89- المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن (مُحَمَّد بن مرزوق التلمساني)، تحقيق: ماريا خيسوس بيغيرا، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م.

90- معجم أعلام الجزائر- من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر- (عادل نويهض)، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، ط2، 1980م.

91- المعجم الأدبي(جبور عبد النور)، دار العلم للملايين، بيروت، ط2، 1984م.

92- معجم البلدان (الحموي شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي البغدادي)، دار صادر ، بيروت، 1993م.

93- معجم الشعراء (المرزباني أبي عبيد الله مُحَمَّد)، تحقيق: فاروق أسليم، دار صادر، بيروت، ط1، 2005م.

94- المعجم المفصل في الأدب(مُحَمَّد التونجي) دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1999م.

95- معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، (البكري أبي عبيد عبد الله بن عبد العزيز الأندلسي)، تحقيق: مصطفى السقا، عالم الكتب ، بيروت، دت.

96- معجم مقاييس اللغة (أحمد بن فارس بن زكريا) تحقيق وضبط: عبد السلام مُحَمَّد هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ج2، 1979م.

97- المغرب والأندلس في القرن السابع/13م-دراسة وتحقيق لديوانيات كتاب فصل الخطاب في ترسيل أبي بكر بن خطاب(أحمد عزاوي)، جمعية الحسن الوزان للمعرفة التاريخية، ربا نيت، الرباط، ط1، 2008م.

98- المفتاح المنشا لحديقة الإنشا (ابن الأثير ضياء الدين) دراسة وتحقيق:عبد الواحد حسن الشيخ، مكتبة ومطبعة الإشعاع الفنية، مصر، ط1، 1999م.

99- مقامات الحريري (الحريري القاسم بن علي) دار بيروت للنشر والتوزيع، بيروت، 1978م.

100- مقدمة ابن خلدون (عبد الرحمن بن خلدون) تحقيق: عبد الله مُحَمَّد الدرويش، دار يعرب، دمشق، ط1، ج1، 2004م

101- المقدمة(عبد الرحمن بن خلدون)، تحقيق: عبد الله مُحَمَّد الدرويش، دار يعرب، دمشق، ط1، 2004م.

102- من أعلام تلمسان مقاربة تاريخية فنية(مُحَمَّد مرتاض) دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، 2004م.

103- المناقب المرزوقية، (مُحَمَّد بن مرزوق التلمساني) دراسة وتحقيق: سلوى الزاهري، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط1، 2008م.

104- مواد البيان (علي بن خلف الكاتب) تحقيق: حاتم صالح الضامن، دار البشائر، دمشق، ط1، 2003م.

105- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار والمعروف بالخطط المقريزية (تقي الدين المقريزي) ،مكتبة الثقافة الدينية ،القاهرة ، ط2، 1978م، ج2

106- موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون(مُحَمَّد علي التاهوني) مكتبة لبنان، بيروت، ط1، 1996م.

107- النثر الأدبي الأندلسي في القرن الخامس مضامينه وأشكاله (علي بن مُحَمَّد)، دار الغرب الإسلامي، لبنان، ط1، 1990م.

108- النثر الفني أبرز فنونه وأعلامه(عمر عروة)، دار القصبة للنشر، الجزائر، دت.

109- النثر الفني عند لسان الدين بن الخطيب (عبد الحليم حسن الهروط)، دار جرير للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2006م/ 1426هـ.

110- النثر الفني في القرن الرابع (زكي مبارك) مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، دت.

111- نشأة الكتابة الفنية في الأدب العربي(حسين نصار) مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، 2002م.

112- نظم الحكم في دولة بني عبد الواد الزيانية،(بوزيان الدراجي)،ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1993م.

113- نفاضة الجراب في علالة الاغتراب (لسان الدين بن الخطيب)، تحقيق: السعدية فاغية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1989م.

114- نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب (المقري التلمساني أحمد بن مُحَّد) تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1968م،

115- نقد النثر(قدامة بن جعفر)، تحقيق: عبد الحميد العبادي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1980م.

116- نهاية الإرب في فنون الأدب(شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري)، تحقيق: علي بوملحم، منشورات مُحَّد علي بيضون، دار الكتب العلمية، لبنان، ط1، 2004م.

117- نيل الابتهاج بتطريز الديباج (أحمد بابا التنبكتي) إشراف وتقديم: عبد الحميد عبد الله الهرامة، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس- ليبيا، ط1، 1989م.

118- واسطة السلوك في سياسة الملوك، (أبو حمو موسى الزياني الثاني)، مطبعة الدولة التونسية، تونس، 1279هـ.

119- الوشي المرقوم في حل المنظوم (ابن الأثير ضياء الدين)، تحقيق: يحي عبد العظيم، شركة الأمل للطباعة والنشر، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ط1، 2004م.

120- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن مُحَّد بن أبي بكر بن خلكان) تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1977م.

ثانيا: الدوريات:

1- أدب المراسلات في العصر الأموي (حسين نصار)، مجلة عالم الفكر، وزارة الإعلام، الكويت، العدد3، ديسمبر، 1983م.

2-أهم الأحداث الفكرية بتلمسان عبر التاريخ، ونبذ مجهولة من تاريخ بعض حياة بعض أعلامها (المهدي البوعبدلي)، مجلة الأصالة، العدد 26، جويلية- أوت 1977م.

3-تطور العلاقات بين تلمسان وغرناطة في العصر الوسيط (عبد الحميد حاجيات) عصور الجديدة، عدد خاص بتلمسان عاصمة الثقافة الإسلامية، العدد2، 2011م.

4-التناص في رسالة ابن خميس الفقهية، (هشام تاولي، مُحَّد مرتاض) مجلة إشكالات في اللغة والأدب، المركز الجامعي لتامنغست، مجلد(09)، عدد(04)، نوفمبر 2020م.

5-عبد الرحمن بن خلدون والسلطة الزيانية، (بوبكر زاوي)،. المجلة الجزائرية للبحوث والدراسات المتوسطية، ع3، جوان 2016م.

6-العلاقة التجارية بين إمارة بني عبد الواد ومملكة أراغونة (بشاري لطيفة) مجلة الاتحاد العام للآثاريين العرب، القاهرة، عدد12، مج 12، ديسمبر 2011م.

7- الفنون البديعية في الرسائل الإخوانية، (قاسم عزام، مُحَّد إسماعيل بن عبد السلام)، مجلة القسم العربي، جامعة بنجاب، لاهور، باكستان، ع 24، 2017م

8-لسان الدين بن الخطيب وتراثه الفكري في تلمسان (مُحَّد الشريف قاهر)، مجلة الأصالة، العدد 26، جويلية- أوت 1977م.

9-المراحل والأدوار التاريخية لدولة بني عبد الواد الزيانية (يحي بوعزيز)، مجلة الأصالة، مطبعة البعث، قسنطينة، وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، الجزائر، العدد26، 1975م.

10-المراحل والأدوار التاريخية لدولة بني عبد الواد الزيانية (يحي بوعزيز) مجلة الأصالة، مطبعة البعث، قسنطينة، وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، الجزائر، العدد26، 1975م.

11-نهاية دولة بني زيان(مولاي بالحميسي) مجلة الأصالة، مطبعة البعث، قسنطينة، وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، الجزائر، العدد26، 1975م.

ثالثا:الأطاريح الجامعية:

1- أهل الذمة في الدولة الزيانية 633هـ-962هـ (عبد الصمد حمزة) رسالة دكتوراه، جامعة وهران، كلية العلوم الإنسانية والإسلامية، قسم الحضارة الإسلامية، 2017/2016م.

2- التجارة الخارجية لتلمسان في عهد الإمارة الزيانية-من القرن السابع إلى القرن العاشر الهجريين- (بشاري لطيفة) رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، معهد التاريخ، السنة الجامعية: 1987/1986م.

3- المغرب الإسلامي بمصر خلال القرن الثامن الهجري(الحاج عيفة) رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، بوزريعة، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم التاريخ، 2002/2001م.

رابعا: المراجع الأجنبية:

1-Edicion y Oestudio del Fasl al jitab de Abu bakr ibn jattab al-mursi, (Hassan El –Ghailani), Universidad Complutense De madrid, Facuttad de filologia, Departamento de estudios arabes e islamicos,1994

3- فهرس المحتويات:

إهداء.....

شكر وعرفان.....

مقدّمـــة.....

مدخـل:.....

لمحة عـن فـن الرسـائـل.....1

1-تعريف الرسالة:.....2

1.1الرسالة لغة:..... 2

2.1الرسالة اصطلاحا:..... 3

2-أنواع الرسائل:.....5

1.2الرسائل الديوانية:..... 5

2.2الرسائل الإخوانية:..... 7

3-نشأة فن الرسائل:..... 8

الفصل الأول: الرسائل الديوانية 16

1-شروط كاتب الإنشاء: 18

2-أشهر كتّاب الدولة الزيانية: 21

1.2مُحَمَّد بن عبد الله بن داود بن خطاب الغافقي المرسي: 22

2.2مُحَمَّد بن عمر الحجري الرعيني المعروف بابن خميس التلمساني: 23

3.2مُحَمَّد بن منصور بن علي بن هدية القرشي التلمساني: 25

4.2أبو زكريا يحيى بن مُحَمَّد بن خلدون:..... 25

3-مواضيع الرسائل الديوانية 28

1.3رسائل البيعة:..... 28

2.3رسائل تأكيد المودة وتجديد الولاء:.....35
3.3 رسائل اللوم والعتاب:..... 44
4.3 الاستدعاء للحجابة:..... 46
5.3 رسائل المعاهدات والعلاقات التجارية:..... 50
6.3 رسائل الفتوح والتعريفات:..... 58
7.3 الظهائر الرسمية:..... 65
8.3 رسائل التخدم:..... 67
الفصل الثاني: الرسـائل الإخـوانية 73
1- أشهر كتّاب الرسائل الإخوانية في العهد الزياني 74
1.1مُحَمَّد بن مرزوق التلمساني:..... 74
2.1 عبد الرحمن بن خلدون:.....76
3.1لسان الدين بن الخطيب:..... 78
2-مواضيع الرسائل الإخوانية في العهد الزياني: 80
1.2رسائل الثناء والشكر:.....81
2.2رسائل التهاني والتعازي:.....89
3.2رسائل الشّوق والحنين:..... 99
4.2رسائل الشفاعات والعنايات:..... 106
5.2رسائل العتاب الاعتذار والشكوى:..... 113
6.2الرسائل الوصفية:..... 121
1.6.2وصف الرسائل والكتب المتبادلة:.....122
2.6.2وصف ذكريات الماضي ومظاهرالطبيعة:.....124
3.6.2وصف المكانة العلمية والأدبية.....125

7.2الرسائل الدينية: 128
الفصل الثالث: الدراسة الفنية 145
1-بناء الرسائل:..... 146
1.1مقدمة الرسائل:..... 146
أ- مقدمة الرسائل الديوانية:..... 146
ب- مقدمة الرسائل الإخوانية:.....153
2.1الانتقال إلى غرض الرسالة:.....158
3.1الخاتمة أو الانتهاء:.....161
2-**السمات الأسلوبية**:..... 164
1.2الاقتباس الديني:.....164
1.1.2.تضمين القرآن الكريم:..... 164
2.1.2. تضمين الحديث الشريف:..... 173
2.2التضمين الأدبي:..... 178
1.2.2.تضمين الشعر:.....178
2.2.2.تضمين الأمثال:..... 184
3.2الجمل المعترضة:..... 187
4.2الإيجاز والإطناب:..... 191
3-**الأساليب والسمات الإيقاعية**:..... 198
1.3الأسلوب المرسل:.....199
2.3الأسلوب المسجوع:..... 201
1.2.2. السجع المطرف:.....202
2.2.2. السجع المتوازي:.....204

3.2.2.السجع المرصع:..... 206
3.3الجناس:..... 210
4.3الطباق:..... 215
5.3المقابلة:.....218
4-**التصوير الفني والخيال**: 220
1.4 التشبيه:..... 220
2.4 الاستعارة:..... 222
3.4 الكناية:..... 225
خاتمة:..... 229
الفهـارس العـامة..... 232
1-فهرس الآيات القرآنية: 233
2-فهرس الأحاديث النبوية: 235
3- فهرس المصادر والمراجع.....236
4-فهرس المحتويات:..... 249

ملخص:

يعد الأدب الزياني جزءا من تاريخ الأدب الجزائر القديم الذي يحتاج إلى مزيد من البحث والعناية، إذ ظل قرونا طويلة حبيس المصنفات وكتب التراجم، فكان هذا البحث الذي يتناول أدب الرسائل الديوانية والإخوانية بهدف التعريف به من خلال الوقوف على أهم مضامينه وأغراضه ومدى ارتباطه بطبيعة العصر في شتى المجالات السياسية والفكرية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية، وتسليط الضوء على أشهر الكتّاب والأدباء الذي برعوا في هذا الفن، واستجلاء أهم سماته الفنية المشكلة له.

الكلمات المفتاحية: الأدب الزياني، أدب الرسائل، الديوانية، الإخوانية، الأدباء، السمات الفنية.

Abstract :

Ziani literature is part of the history of ancient Algerian literature, which requires further research. For centuries it's been trapped in ancient literature books. This research, which deals with the literature of brotherhood and diwaniyah letters successively, aims to make it known by identifying its most important content, purposes and relevance to the nature of that era in various political, intelletual culturale, economic and social spheres, and to highlight the most famous writers who have contributed to this art and to illustrate its most important artistic aspects.

Keywords : ziani literature, literary letters, diwaniyah, brotherhood, writers, artistic aspects.

Résumé:

La littérature Ziani fait partie de l'histoire de l'ancienne littérature algérienne gui a besoin de plus de recherches et de soins, car elle s'est cantonnée pendant des siècles aux ouvrages et aux livres de traduction ce mémoire qui traite la littérature des lettres Dewaniyah et de fraternité dans le but de la présenter atravers ses contenus et ses objectifs et son lien avec la nature de l'epoque dans divers domaines politiques economique et sociaux et mettre en avant les plus celebres écrivains et littéraires qui ont excelle dans cet art et clarifier ses qualités artistiques.

Les mots clés : la littérature ziani, la littérature des lettres, diwaniyah, fraternité, les littéraires, les qualités artistiques.